
حسن الجندي
رواية
نوح المذبوح
دارك
ساحر الكتب

دارك للنشر والتوزيع
www.darak-egy.com
01027251915 - 01098952125
51 ب شارع النزهة من شارع رمسيس - القاهرة

نوح المذبوح

اسم المؤلف: حسن الجندي

تصميم الغلاف: عبد الرحمن محمد خلف

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2025/2188

الترقيم الدولي: 978-977-9672-31-1

الطبعة الأولى: 2025

إهداء

إلى الوقت.. أعتذر بسبب غبائي، تخيلت أنه يمكن الانتصار عليكَ، لكني الآن أكثر انتعاشًا بعد استسلامي لك، افعل ما تريد فإني ميِّت ابنُ ميِّت.

شكر وتقدير

شكر خاص للفراخ البلدي، والدهون الثلاثية، وللحاج عاطف قطقوطة ديلر المخدات التائب.

تمهيد للمؤانسة

قرية (أبو الغيط)/ 1974م

في ظلام الليل توقف (مؤنس) أمام المبنى ذي الطابق الواحد المضلع بقبّتِه الخضراء، كان ما لفت نظره فيه هو فخامته التي لا تليق على منازل القرية الفقيرة، على حدّ علمه مما رآه؛ فهو لم يرَ تلك الفخامة إلا في أضرحة آل البيت وبعض مقامات الأولياء المشهورين في (مصر)، لكن هذه الفخامة والنظافة والعطر الخارج من باب المقام مع تلك الإضاءة الخافتة من المصابيح الكهربية الموزّعة على الجدران الخارجية للمبنى تقول إن أهل هذه القرية مصابون بنوع من الغباء، حتى شبكة الكهرباء لم تصل للكثير من منازل القرية الفقيرة فكيف يسمحون بهذا البذخ المبالغ فيه على هذا المقام.

رفع عينيه إلى اللافتة الكبيرة المعلّقة على باب المقام والمحفور عليها بخط زخرفي (مقام الشيخ نوح المذبوح)، في الداخل كانت المساحة رحبة وفسيحة والحوائط المنقوشة بالزخارف الإسلامية والسقف الخشبي المعلق وعليه الرسومات النباتية أوحوا له برهبة عجيبة كأنه في قبر سلطان مملوكي.. بغض النظر عن أي شيء سأل نفسه كيف لم يعرف بوجود هذا المكان من قبل، لو كانت هذه الزخارف قديمة فعلًا فهذا المكان يجب وضعه تحت تصرف وزارة الآثار في أسرع وقت.

كان يقف في وسط قاعة تطل عليها غرفتان مغلقتان، هناك صناديق خشبية مغلقة في كل مكان، ومكتبة صغيرة ودواليب بواجهة زجاجية داخلها مسبحة وأدوات وملابس معلّقة على هياكل

خشبية لتظهر كاملة كأن أحدهم يرتديها، قفز لذهنه سؤال: أين الضريح أو المقصورة!!!!

اصطدمت عيناه في تلك اللحظة برسمة على الحائط، حسبها في البداية أنها تشبه المحراب الذي يقف أمامه الإمام في المسجد ليؤم الناس في الصلاة، لكنها كانت على شكل باب مرتفع عن الأرض، رسمة دقيقة لباب قديم بمقبض، وهذه الرسمة محاطة بسياج حديدي موشى بالأحجار الملونة.. وأعلى رسم الباب كُتبت عبارة بخط صغير داخل إطار ملوّن (عمل أولاد رجب الصولي خدم الشيخ نوح المذبوح).

سمع صوت شخص يسعل من داخل إحدى الغرفتين، لم يجفل لأنه يعرف أن لكل مقام خادمًا، وطالما لم يرَه في الخارج فهو نائم في الداخل، فعلًا انفتح باب الغرفة وخرج رجل في السبعين من عمره متغضن الوجه يرتدي جلبابًا فخمًا وعمامة بيضاء يحمل في يده حفنة من البخور، لم يُعِر العجوز (مؤنس) أي اهتمام وهو يلقي حفنة صغيرة من البخور في الفحم المشتعل الموضوع على الطاسات النحاسية على جدران القاعة.

- أنت غريب عن هنا.

نطَق بها العجوز دون أن يلتفت إلى (مؤنس) الذي ابتسم بسخرية، طبعًا غريب فهو يرتدي بدلة وربطة عنق.

- آه غريب مش من هنا، واضح إنك لماح.

- أنا مش بتكلم عن بدلتك، أنا بتكلم عن دماغك، الأماكن دي غريبة

على دماغك وهاتفضل كده طول عمرك.

تعوّد (مؤنس) على هذه الطريقة الغامضة التي يعتبرها فارغة من العمق برغم أنها تمتلئ بالكلمات الطربية، ضحك وقال:

- لكن أنا جيت كتير أماكن زي دي.

التفت له العجوز، وببساطة قال:

- الأماكن دي بالنسبة لك يا بيه عاملة لا مؤاخذة زي فيلم السيما، بتتفرج عليه من بعيد، بالنسبة لك كل حاجة في الفيلم فشنك، والناس بتمثل، و...

قاطعه (مؤنس) بجدية:

- غلط تحكم عليّا أول ما تشوفني.

- طب ما إنت حكمت عليا برضو أول ما شفتني.. وحكمت على مقام سيدي (نوح المدبوح) أول ما شُفته.

- أنا آسف لو ضايقتك، بس أنا عايز أعرف، مين (نوح المدبوح) ده؟ وإيه علاقته باللي حصل في البلد الأيام اللي فاتت؟

جلس العجوز أرضًا في موضعه الذي كان يقف فيه ونظر بعيدًا للا شيء، وقال شاردًا:

- دا راجل طيب عاش زمان أوي في بلدنا، يمكن أيام ما الفرنساوية احتلونا.

بخطوات سريعة قفز (مؤنس) حتى وصل للعجوز وافترش الأرض بجانبه قائلًا:

- أيام حملة (نابليون) على (مصر)؟ إيه كان من المقاومة؟

- لا هو ماشافهومش.

- مش مهم.. قولي عمل إيه بقى؟

- ما أنا قُلتلك، كان بيحبنا، ولسّه بيحبنا، ووعدنا وعد.

- وعد بإيه؟

- إنه هايرجع دايمًا لما الظلم يشتد في بلدنا، يمشي وسط البيوت.

- شكله بيحب يتمشى.

قالها (مؤنس) ساخرًا فابتسم العجوز وأشار للرسمة التي على هيئة باب على الحائط وهو يقول:

- الباب اللي متصور على الحيطة دي كان شاغل عينك لما دخلت، ركز معاه، ده الباب بتاعه اللي بيدخل ويخرج منه.

- أركز معاه ليه؟

- علشان سيدي (نوح) رجع يمشي في البلد كل ليلة، خليك قاعد مكانك لو عايز تشوفه، إن شاء الله مش هيتأخر، وابقى اسأله اللي تحبه ساعتها

أنهى جملته ونهض ليدخل الغرفة الجانبية و(مؤنس) جالس وابتسامته الساخرة تزول وهو ينظر لرسم الباب قلقًا كأنه سيفتح الآن.

***

بَلَانَا اَللّٰهُ بِحَاكِمٍ

(1)

بداية عام (1965) في (مصر) كانت شديدة البرودة، وخاصة على القرى الريفية، خذ عندك تلك القرية.. (أبو الغيط)، هل سمعت بها؟ لا مشكلة، فهناك 5 آلاف قرية مصرية بالتأكيد لن يحصرها أيّ شخص مهما كان متحمسًا، تلك القرية غير معلومة إلا لأهلها وللحكومة وللقرى المحيطة بها.. إذن لو اصطدم بها نيزك فلن تشعر بالقلق عليها، ربما ستراها في نشرة الأخبار وتمصمص شفاهك حسرةً عليها لثانية، ثم تعود لتناول الأرز بلبن الذي أعدّته المدام أو ماما لو لم تتزوج بعد.

لذا فمشكلة البرودة تخص أهل تلك القرية، هي وأي مشكلة أخرى، وعلى القرية أن تعتمد على نفسها في حل أزماتها، البرد ليس مشكلة كبيرة.. يمكنك أن تغطي نفسك بأي غطاء حتى لو كان مهترئًا، الجوع ليس أزمة وجودية.. يمكنك أن تموت وتريح الجميع منك.. الأمان ليس همًّا تحمله، توسل وقبّل بعض الأيادي وإن كنت ذكيًا، فمرغ رأسك في التراب أمام القوي ليعفو عنك.

أرأيت أن الحياة في تلك القرية بسيطة ليست بأزمة، (أبو الغيط) هي قرية متوسطة المساحة تعتمد على الزراعة كمصدر دخلها الرئيسي، ونعم لا تقل لي أن كل القرى مثلها، ستفاجأ -أو لن تتفاجأ- حين تعرف أن الكثير من القرى تعتمد كمصدر دخل رئيسي على التجارة أو الصناعات اليدوية، المهم أن (أبو الغيط) هي قرية غنية بإنتاجها لكن أهلها فقراء، تتبعها بعض العزب والنجوع والنواحي صغيرة الحجم لكن الذين يسكنون تلك المناطق ينسبون أنفسهم

لتلك القرية.

(أبو الغيط) تتبع محافظة (القليوبية) على الورق فقط، لكنها أقرب للقاهرة منها لأي مكان، مصابة بلعنة ثقافية تصيب بعض القرى المصرية، فما هو معروف في مخيلة الجميع أن كل محافظة مصرية تتميز بلهجة في نطق المقاطع الصوتية للُغة المصرية، والقرى التي تتبع تلك المحافظات تحافظ على تلك اللهجة وتعمقها أكثر.

لكن بعض القرى مثل قريتنا -ولأسباب يطول ذِكرُها- أصبحت وِجهةً للمهاجرين من شمال ووسط وجنوب (مصر) ومن الكثير من القرى والمحافظات الأخرى، فتضيع لهجة القرية الأصلية وسط بحر من اللهجات والأفكار والطباع.. وبعد سنواتٍ كثيرة تذوب تلك اللهجات والأفكار لتصنع لهجة وطباعًا أقرب لأهل (القاهرة).. وهذا ما حدث لقرية (أبو الغيط).

لهجة أقرب للقاهرة، طباع وملابس متنوعة لا تجمعها هوية صريحة، ولكي يتم ضمُّ كل المختلفين في بوتقة واحدة، كان الحل في ظهور أعراف وقوانين داخلية من خلال عائلات يمتلك بعضُها المال والبعض يمتلك القوة، ومع مرور الوقت خبت قوة تلك العائلات، وأصبحت عائلة (الصولي) هي أقواهم مالًا وسطوة ونفوذًا مما مكّنها من فرض قوانينها على الجميع.

المجالس العرفية للمصالحة بين المتخاصمين تتم تحت حمايتهم وإشرافهم، ولا مانع من تواجد بعض رؤوس العائلات الأخرى كضيوف شرف.

الحكم على المارقين من أهل القرية في يد رجال (الصولي) بل

وتنفيذ ذلك الحكم في بعض الأحيان.. وطبعًا عمدة القرية وشيخ الخفر من نفس العائلة.

التعامل مع الحكومة المصرية في كل المناحي الأمنية والاقتصادية يكون من خلال تلك العائلة، والحكومة طبعًا كانت وما زالت سعيدة باستتباب الأمن داخل (أبو الغيط)، وبتنفيذ كل أوامرها بدقة لامتناهية؛ لذلك تركت القرية للعائلة تديرها كيفما تشاء مع غض الطرف عن بعض الممارسات المرعبة كالإتاوة التي يجمعها أولاد (الصولي) من الفلاحين، أو بعض جرائم الاختفاء المريبة لأهل القرية والتي تعلم الحكومة ضمنيًا أن السبب وراءها -والذي هو في حقيقته قتل مع إخفاء الجثة- هم تلك العائلة، لكن كما قلت؛ فالأمور جيدة طالما لم تتعارض المصالح بعد.

كثرت الأقاويل عن أصولهم الغامضة التي تتفق في أنهم أتوا من خارج القرية في زمن قديم واستطاعوا في وقت طويل الاستيلاء على نصف الأراضي الزراعية في حيز القرية والقرى المحيطة أيضًا، كما أنهم يعملون بالتجارة ولا تسألني عن نوعية تلك التجارة؛ فأهل القرية يجهلون كل شيء عن تلك المعلومة إلا أن الإشاعات تقول إنها تجارة غير شرعية.. وإلا فما السبب لحصولهم على تلك الكمية من الأسلحة الخفيفة والثقيلة.. يقولون إنهم يستخدمونها لحراسة أراضيهم وحماية القرية من أيِّ تعدٍّ عليها من بقية القرى القريبة وخاصة قرية (باسوس) القريبة منهم، لكن حتى صرصور الحقل في أراضيهم لا يصدق هذه النظرية.

أعرف أنني صوّرتهم كشياطين -وهذه هي الحقيقة في وجهة

نظري- لكن هناك بعض الأشياء التي يقومون بها تُدخِل السعادة على أهل القرية.. مثلًا اهتمامهم المبالغ فيه بإقامة احتفال للمولد النبوي سنويًا ويصبحون هم الـ **sponsor** الرسمي له فتجد اللافتات القماشية في كل مكان تمتلئ بعبارات مفتعلة يهنئون بها أهل البلد.

وقِس على هذا كل الاحتفالات الدينية والقومية، هل سمعت عن الحزب الاشتراكي الذي حكمَ مصر في فترة رئاسة (جمال عبد الناصر)، كانوا يقيمون احتفالًا بِعِيد الثورة 23 يوليو من كل عام يحضر فيه ممثّلون من الحزب وبعض الموظفين الذين يعملون في مناصب سياسية غريبة كنائب المقرر العام للجنة الثقافة الجماهيرية بتفهْنا العزب، ويذبحون عِجلًا ليوزعوا لحمَهُ على الفقراء.

ولكن أهم احتفال لهم هو ليلة الشيخ (نوح المذبوح)، وهو ليس مولدًا؛ لأنهم لا يعلمون تاريخ ولادته، لكنهم يسمونها ليلة الستر، وفيها غاب الشيخ (نوح) مع وعد بالعودة، في هذه الليلة يكثرون الذبائح ويملئون القرية بالزينة والمواكب وينتظر الأهالي تلك الليلة من العام للعام بفارغ الصبر بسبب الانفراجة الاقتصادية التي يعيشونها بالإضافة إلى أن هذه الليلة هي الليلة الوحيدة التي يقبل فيها أولاد عائلة (الصولي) بالتشفع في بعض الإتاوات أو تأجيلها، ويجيبون الكثير من مطالب أهل القرية المُعدَمين.. صحيح أنه في اليوم التالي تعود تلك العائلة لسيرتها الأولى، إلا أن الناس يتعلقون بأملِ أن ينصلح حالهم إلى الأبد ببركة (نوح المذبوح).

كنت قد نسيت أن عائلة (الصولي) يمهّدون بعض طرقات القرية من وقتٍ لآخر، ينشئون كباري خشبية على الترع لعبور الأهالي،

يتكفلون بعمارة بعض الزوايا والمساجد، وكل هذا على حسابهم.

وبسبب هذه الازدواجية يقع أهالي (أبو الغيط) في حالة من البغض والحب والاحتقار والاحترام لتلك العائلة، حالة أتكهن بأنهم لن يستطيعوا الفكاك منها على المدى البعيد.

***

لنترك الآن عائلة (الصولي) والديباجة الجادة المملة ونتعرف على (عزيزة جاد حسب النبي)، الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا ابنة (جاد) الذي يملك وابور الطحين الوحيد في القرية، واختصارًا فهذا الوابور هو مبنى من طابق واحد به مطاحن عملاقة تطحن القمح والشعير والذرة وتحولهم إلى (دقيق) صالح للعجن.

نعود إلى (عزيزة) التي كانت بالأمس القريب طفلة عادية تلعب مع أقرانها وتقوم بالأعمال المنزلية من تحضير الطعام لأبيها في المنزل وإيصاله إلى الوابور ثم العودة لتنظيف دارهم الواسعة ثم الخروج للعب قليلًا أمام المنزل حتى عودة والدها بعد صلاة العشاء، فتعد له الطعام وتتحدث معه قليلًا حتى ينام.

ماتت أمها وهي طفلة فقامت شقيقتها (جوهرة) بتربيتها، وبسبب أنها تكبرها بسنوات قامت بدور الأم والشقيقة والصديقة والقريبة وكل شيء، وهذا سرُّ تعلُّقها الجنوني بها. تزوجت الأخت سريعًا وانتقلت إلى دار بعيدة وأصبحت (عزيزة) وحيدة، فتحول حبها مع الوقت لأبيها الذي كان يعشقها بجنون؛ فهي آخر العنقود كما يقولون، كما أنها حققت مصادفة غريبة.

فقد سماها (عزيزة) على اسم أمّه الراحلة ليجد أنها بدأت تشبهها شكلًا وطبعًا بطريقة مبهرة، كما أنها يتيمة الأم مما زاد من تعاطفه معها وزيادة تدليله لها.

وفجأة تحولت الطفلة لفتاة جميلة، نُحتت ملامحها كأنها وضعت مساحيق تجميل طبيعية أبرزت جمال عينيها الواسعتين، متى انتفخت شفاهها الصغيرة وتلونت بالأحمر الطبيعي!!! كيف ظهرت خدودها بهذا الجمال عندما تبتسم فتنقل السعادة لكل من يشاهد تلك اللحظة الملهمة التي تُشبه شروق الشمس من قلب المزروعات على ضفاف (النيل).

تابعَتها العيون المذهولة والتي فوجئت بهذا التبديل المفاجئ وهي تحمل على رأسها "مشنة" الطعام وهي تسير بخطوات متزنة تلقي بالسلام على السيدات الجالسات على شط الترعة ينظفن المواعين، وعلى الفلاحين في بعض الحقول، وجميعهم يرددون بينهم وبين أنفسهم: "البت (عزيزة) خلاص زارها خراط البنات".

لم تتعمد الدلال في خطواتها أو حركاتها أبدًا وإن كان دلالًا طبيعيًا من مصدر خارج العالم يخرج منها كالعطر يزكم الأنوف برائحة الجمال والنضارة.

وصلت لوابور الطحين الذي تجمهر حول بابِه أهلُ القرية يصيحون بعم (جاد) بأن ينجزهم، خرج لهم يهدئهم فلمح ابنته.. أزاح الناس ليصنع ممرًا لها لتدخل وهي تلقي بالسلام والتحية على كل الواقفين بالاسم وهي تمر وسطهم، حتى دخلت الوابور وفي ذيلها أبيها الذي قال:

- جيتي بدري النهارده، الضهر لسّه ما أذّنش.

- خلصت اللي ورايا قلت ألحقك لتكون جعت.

وضعت المشنة على الأرض في زاوية تعلمها مسبقًا وهي تلتفت للحظة تمسح الوابور من الداخل بحثًا عن شخص ما حتى وجدته؛ (فايق)، الذي كان ينظر لها هو الآخر بطرف عينيه فجفل عندما رأته وأشاح ببصره بسرعة ليعود لعمله، لم تستطع أن تداري ابتسامة ارتسمت على وجهها للحظة وصوت أبيها يلاحقها:

- فيكي الخير يا حبيبتي، انتي فطرتي؟

- سبقتك يابا الحمد لله.

كشفت المنديل الذي يغطي المشنة من الأعلى ليظهر من تحته خبز البتاو والجبنة القريش والعسل الأسود والطماطم والخيار، التفتت له قائلة:

- أنا جايبة أكل بزيادة لو حد معاك حب يجاور الزاد.

- طب ما انتي واعية إن محدش بيجاورني الزاد غير الواد (فايق).

اتبع قوله بالمناداة على (فايق) الذي ترك المطحنة الرئيسية بعدما سلمها لأحد العمال وأتى جريًا.

- اقعد عشان نلحق نفطر ونرجع لمصالحنا.

- أنا الحمد لله شبعان يا عم (جاد).

- إنت لسّه بتختشي مني يلا.. دا أنا زي أبوك، اترزي زي ما بقولك.

جلس ووجهه في الأرض يتحاشى النظر لعزيزة التي تحاشت هي الأخرى النظر إليه، كان (فايق) بعمر السبعة عشر عامًا، طويل.. نحيل.. قوي البنيان، حاد القسمات، لكنه طيب وجميع أهل البلدة يحبونه، ماتت أمه عند ولادته وحصّلها أبوه بعد سنوات قليلة ليكبر الطفل في منزل خاله، تعلّم في الكتّاب القراءة والكتابة وأجادهما لكنه تنقل في الأعمال الشاقة منذ طفولته من الزراعة إلى العتالة حتى وصل إلى العمل في وابور الطحين فأحبّه (جاد) وتدرّج معه في العمل حتى أصبح المشرف على كل المطاحن بل ويستطيع صيانتها، ولكن منذ شهور نما إعجابه بعزيزة فجأة والتي كان يراها طفلة كبقية الأطفال، والأغرب أنه وجد نفس الإعجاب في نظراتها بنفس الوقت تقريبًا، ومنذ هذا الحين ينظر أحدهما للآخر حين يتأكد أن الآخر لا ينظر له، فإذا تلاقت الأعين مصادفة ارتبكا وابتسما وقد شعر كل منهما بشرارة كهربية تسري في الأجساد.

تربع (جاد) على الأرض بجانبه وهو يقول:

- أختك (عزيزة) جايبالنا الأكل بدري النهارده، تلاقيها عايزة تلحق تروح تلعب مع العيال.

تأثر (فايق) حين سمع لفظة (أختك) لكنه ابتسم وهزّ رأسه حين لم يجد ردًا للعبارة في حين نظرت (عزيزة) مصدومة لأبيها للحظات قبل أن تقول بشيء من الغضب حاولت السيطرة عليه:

- أنا ماشية.

غادرت الوابور محاولةً ألا يظهر عليها ما يعتمل بخاطرها، أخذت الطريق لمنزلها بخطوات سريعة حازمة حتى عادت للدار، الدار

الواسعة التي كانت تتميز بصحنها الواسع وفيه وضعت مقاعد وأرائك الجلوس الخشبية، وفي الجانب الغربي من القاعة بُنيَ فرن من الطوب اللبني مغطّى بطبقة من الطمي المخلوط بالقش، وخمس غرف كلها تفتح على الصحن الرئيسي للدار، منها غرفة نوم والدها وغرفة نومها وغرفة نوم لشقيقتها مجهزة إن حضرت هي وأطفالها وزوجها للمبيت، وغرفة يلقبونها بالمضيفة وهي المعادل لغرفة الصالون في أماكن أخرى، يستقبلون فيها الضيوف الغرباء عن العائلة ومجهزة بشكل أفضل ولها بابٌ آخر يفتح على خارج الدار.

والغرفة الأخيرة هي غرفة جدهم الأكبر وهي خالية إلا من مقعدين غارقين في القدم، ويُحرّم على أي أحدٍ من خارج الدار دخولها، حتى إن بعض معارفهم تساءلوا عن السبب، فاكتفى (جاد) بإخبارهم بأن جدّهم الأكبر كان مبروكًا وروحه تحضر للغرفة التي كانت خلوته، وكان طلبه الأكبر ألا يستخدمها أحدٌ من بعده.

أما حمام الدار فقد كان في نهاية ممر صغير يخرج من القاعة وبجانبه غرفة صغيرة بها بعض الحِلل والأطباق وأدوات الطعام وباجور صغير تعتبر كمطبخ.

نزعت (عزيزة) طرحتَها عن شعرها المموج الناعم فانسدل على وجهها مضيفًا إليه جمالًا أكثر، فلا تعلم أهو شعرها الذي زادها فتنة أم وجهها هو الذي زاد شعرها سحرًا خاصًا!

لم تتخلص من غضبها بعد.. وقفت في صحن الدار تتلفت حولها وكأن عقلها قد توقف عن العمل، حتى ثبتت عينيها على باب غرفة الجد الخالية، فتحتها ودخلت لظلامها؛ فبالرغم من أن شمس

الظهيرة تنير كل شيء إلا أن الغرفة بلا نافذة فكانت مظلمة ليلًا ونهارًا، تحسست الرف الموضوع عليه مصباح الجاز حتى وجدته وأشعلته فألقى بالقليل من نوره على الغرفة الخالية إلا من المقعدين، أعادت المصباح إلى الرف واعتدلت في وقفتها وهي تردد بأدب:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ثم رفعت كفيها أمام وجهها في وضع الدعاء وأغمضت عينيها وهي تقرأ سورة الفاتحة ثم مسحت على وجهها بباطن كفيها، وجلست على المقعد تنظر إلى حوائط الغرفة الخضراء الباهتة التي وقع عليها الضوء الأصفر فحوّلها إلى لون ممسوخ، تابعت بعينيها إلى أرضية الغرفة المتربة غير المبلّطة التي لم تتغير منذ زمن طويل.. لم تغطها إلا حصيرة زرقاء فقيرة أصغر من مساحتها.

عيناها قلقتان تتجولان حولها بلا غاية، لكنها أغمضتهما وتنفست بعمق، بعد قليل انساب القليل من الدمع من عينيها مما جعلها تسترخي أكثر، مرت فترة لم تشعر بها حتى قالت بهَمّ: "طالما أبويا قال علينا اخوات يبقى هو فهم إن عيني من (فايق)".

استمرت بالحديث لنفسها وتفاعلت معه بعدما فتحت عينيها وصارت تنظر للامكان: "أعمل إيه أنا دلوقت؟ أنا مش هاكون لحد غير (فايق)، ولّا علشان ماهو يتيم أبويا يرفضه؟"

استمرت في قول جُمَلِها غير المترابطة تارة بعصبية وتارة بحزن وتارة بوهن، لو كانت تعلم أن ما يعتمل داخلها هو وهج المراهقة وانفجارات الهرمونات لربما خففت على نفسها.. لكن على كل حال مخُّها بعد ربع ساعة قام بتلك العملية.. أدخلها في سِنَةٍ من النوم.

العجيب أن وقت نومها القليل هذا امتلأ بمشاهد متسارعة لفايق ولشقيقتها وهي تتحدث معها ببطء، ومشاهد لنفسها تبكي في الحلم.

***

ينادونه بالحاج (زهير)، لا يتذكر الأهالي متى قام بحج بيت الله الحرام، بعضهم يقول إنه ذهبَ مع أبيه حين كان مراهقًا، هو الآن في الخمسين من العمر، أبيض البشرة، طويل، سمين الجسد مترهل، يظهر اللغد أسفل ذقنه مرعبًا بطريقة تغريك بالبحث عن أقرب دبوس ثم تغرس طرفَه في هذا اللغد العملاق لترى هل سينفجر أم يفرغ الهواء منه كالبالون المثقوب وهو يخرج صوت "فسسسسسس" بلحن مريح للأعصاب.

هيئته العامة تشبه البالون المنفوخ بالهواء الذي يأخذ شكل إنسان يتمايل يمينًا ويسارًا، ويضعونه في (مصر) وقت افتتاح المحلات، وخصوصًا محلات بيع اللب والتسالي، نسيت أن أخبرك بأن هذا البالون هو كبير عائلة (الصولي) حاليًا، ورث زعامة العائلة عن والده الذي امتلك لغدًا أكبر منه لكنه في طريقه للتفوق عليه.

يعيش في قصر صغير مبني على طراز بداية القرن العشرين في مصر وهو هجين بين نمط البناء المصري والإيطالي والفرنسي، لكن داخل القصر يعطيك انطباعًا عن أن مَن اختار هذه التركيبة من الأثاث وجمعها مع بعضها البعض هو خنزير يرتدي نظارة طبية... كلُّ ما تتخيله من ألوان الحوائط وأنواع الأثاث الخشبية والمعدنية التي تنتمي لمائة نمط وذوق وبلد، جريمة جنائية لأذية العين والذوق

والمشاعر مع سبق الإصرار من رجل حمار.

انحشر (زهير) في مقعده المفضَّل أمام التلفزيون الصغير في صالة الاستقبال والتي يسميها (الفسحة)، وحوله يتراص رجال العائلة صامتين وهو يشاهد مسلسل بالأبيض والأسود يُعرَض، ومن وقت لآخر يداعب شاربه الرفيع ويهرش في شعر رأسه القصير حتى شعر كلُّ الجالسين بالملل، لكنهم لم ينطقوا بحرفٍ احترامًا له أو خوفًا منه، حتى عمدة القرية وشيخ الخفر اللذين كانا من عائلة (الصولي) ويكبرانه في العمر لم يظهر عليهما أيُّ تعبير كأنهما في حضرة ملك متوج.

- قوم والنبي يا (هلال) اقفل التلفزيون وادخل خليهم يستعجلوا الغدا.

قال (زهير) تلك العبارة وهو يخرج علبة سجائره من الصديري الذي يرتديه تحت جلبابه الذي يصلح غطاء لسيارة نصف نقل، جرى المراهق الذي كان يجلس على مقعد يغلق الجهاز ويتجه للغرف الداخلية بينما أشار (زهير) بعلبة السجائر للجالسين حوله فقاموا واحدًا واحدًا يتناولون السجائر منه حتى مَن لم يدخنها وضعها في جيبه وجلس، من المستحيل أن يصدق أحدٌ أن كلَّ هؤلاء الرجال يخضعون لسطوة هذا البهيم الذي أشعل سيجارته وقال بجدية:

- دلوقت الاستفتاء على الرياسة قرّب خلاص جهزتوا نفسكم؟

ردَّ عليه العمدة باستنكار:

- إحنا لسّه في يناير، والاستفتا في شهر مارس، قدامنا...

قاطعه (زهير) غاضبًا:

- يعني معملتش حسابك على حاجة لسّه، أمال الفلوس اللي بتطلبها كل شهر دي بتهبب بيها إيه؟

- إنت بتسرّقني!!!! عيب عليك دا أنا ابن عمك ومتربيين مع بعض.

- ما إنت علشان ابن عمي أنا ساكت وبحبك، ساكت على الأراضي اللي بتشتريها نواحي شبرا وتكتبها باسم عيالك من الفلوس اللي بتاخدها مني.

تجمع الدم في وجه العمدة ولم يحرّك شفتيه من الصدمة والجميع ينظر له إلا (زهير) الذي أخذ نفسًا عميقًا من السيجارة وكتمه في صدره وهو ينظر للتلفزيون المغلق ويقول بابتسامة سمجة:

- بس أرجع وأقول ما هي كلها فلوس عيلتك وإنت سايبها معايا أمانة ومن حقك تتنعم في خيرها، اشتري يا ابن عمي زي ما إنت عايز وأنا هدخّل أراضي شبرا دي تحت إيدي علشان كلنا نستفاد منها.. وأهي الأراضي والعمارات كلها بتاعتكم وملككم، ولما تحب تاخدها تديرها بنفسك قولي.. بس إنت عارف ساعتها إنك لا هتبقى عمدة ولا ابنك هايورثها من بعدك، وتعلم كمان إنك هاتمشي من (أبو الغيط) وتفارقنا.. ها يا عمدة، نويت على إيه؟

بدون تفكير قال:

- الأرض في إيدك تزيد يا حاج، إحنا كل أراضينا وبيوتنا تحت إيدك من زمان، وأنا كنت هاقولك على الأراضي اللي بشتريها بس لما أسجلها الأول.

ألقى (زهير) رماد سيجارته على الأرض وقال:

- (هلال) هايسلمك 3000 جنية النهارده وإنت ماشي، تشتري القماش عشان اليفط، والخطاطين اللي هايكتبوا عليه تربط معاهم الكلام، وهاتطبع 1000 صورة للريس (جمال عبد الناصر) بالألوان وتحت كل صورة تكتب (100% ناجح يا حبيب الملايين) وعايزين نعمل كام حفلة الشهر الجاي للاتحاد الاشتراكي العربي ونجيب كام عضو من الحزب وندبح كام عجل.. (هلال) هايتابع معاك الحاجات دي.

- زي ما تشوف يا حاج.

عاد (هلال) في هذه اللحظة وهو يقول:

- الغدا جهز يابا.

قام (زهير) من مقعده فتبعه الباقون لغرفة واسعة مزينة بستائر طويلة على الحوائط، داخلها منضدة طعام طويلة تراصت عليها أطباق البط والأوز والملوخية واللحم كأنهم يصورون وليمة في فيلم يدور عن القرى الريفية، اتخذ (زهير) مجلسه على رأس المائدة وهو يطفئ السيجارة في مطفأة سجائر كريستالية بجواره ويتناول الملعقة يغترف بها غرفًا من طبق الملوخية يغرق بها الأرز الأبيض ثم يلتهم أول ملعقة وقد ظهر الاستحسان على وجهه وهو يردد "الله الله".

جلسوا جميعًا حول المائدة وقد تبدلت فجأة أجواء المشاحنة بأجواء تمتلئ بالود وحتى بالمزاح حتى إن (زهير) والعمدة تبادلوا

النكات وكأن شيئًا لم يكن، تناول الطعام كان يدخل السعادة فعلًا على قلب (زهير) لكن الحقيقة أن هذا الأخير كان يعرف جيدًا متى يظهر القسوة على من حوله ومتى يظهر اللين، وكيف يتم ذلك بصورة طبيعية تحافظ على نوع من التوازن، كأنه مَلِك عظيم يعامل حاشيته بنوع من الاستعلاء لكن حين تبدأ الحاشية في النفور منه يتباسط معهم فيمحو بذلك أي خصومة مستقبلية.

- إيه أخبار ليلة سيدنا (نوح المدبوح)؟

قالها (زهير) وهو يمصمص ما بقي من صدر بطة فرد عليه (جمال) أحد أقاربه والذي كان يصغره ببضع سنين:

- قبل أي حاجة يا حاج عايز أقوم أنا بالليلة دي.

لم ينظر له وهو يقول:

- بس اللي بيقوم بيها كل سنة هو (علام) جوز أختك، ولّا إنت عايز أختك تنكد عليك.

ردّ (علام) الذي كان يجلس بجانبهم على المنضدة:

- لو إنت وافقت يا حاج فأنا موافق، (جمال) اتكلم معايا وسمعني شوية أفكار حلوة.

- طب ما تسمّعنا الأفكار دي.

اعتدل (جمال) في مقعدة ومسح فمه بظهر يده وقال:

- بدل ما نجيب مَدّاحين ورواة سيرة الليلة دي إحنا نجيب الريس (حفني أحمد حسن) والناس بتحب تسمعه على الراديو ونخليه

طول الليل مع أهل البلد، والصوان بتاع الأكابر ورجالة الحزب الاشتراكي نجيب فيه الريس (محمد طه) ونخليه يعملنا أغنية على (أبو الغيط) وكباراتها، وبعديه نجيب الريس (متقال القناوي).. هو لسّه جديد آه بس رجالة الحكومة بيحبوه.

ابتسم (زهير) ابتسامة رضا، ونظر بطرف عينه له قائلًا:

- كمّل.

- ونعمل موكب كبير يلف البلد قبل ما تبتدي الليلة، ونحط في الموكب الحاجات اللي كان بيستعملها سيدنا (نوح) في حياته أو اللي كان ليها معاه حكاية، وكمان نوزع رماد البخور اللي كان بيتحرق جوه المقام طول السنة بركة علشان الناس تستخدمها وتشفي بيها أمراضها.

وبرغم اندماج (جمال) في وصف أحلامه إلا أنه أوقف نفسه حينما رفع (زهير) يده الملوثة بالطعام ليوقفه وعلى فمه ابتسامة واسعة تكاد تتحول لفرحة حقيقية وهو يقول:

- متكملش كلامك، إنت اللي هاتعمل الليلة السنة دي والسنين الجاية كمان، شوف عايز كام وبلغ ابني وهو يقبضك، بس متنساش إن ولاد (الحوفي) زي كل سنة هايساعدوا في النفحة والدبايح.

- يا حاج عيلة (الحوفي) ملهمش لازمة في البلد، دول بيدبحوا عجلين بس كل سنة ويشاركوا بالخضار والرز.

- وإنت مال أهلك، ولاد (الحوفي) هايفضلوا معانا إيد بإيد، ربنا ما يقطعلنا عادة.

قالها (زهير) بدون أن تظهر على وجهه أي معالم للضيق، فكاد (جمال) أن ينافق ليصلح الأمور إلا أن وجه (زهير) تبدل للجدية وهو ينظر لشيخ الخفر ويسأله بمكر:

- قولي يا (زيدان) أخبار (باسوس) إيه؟

ببرود شديد أجابه:

- كل حاجة تحت إيدينا يا حاج.

بجانب كون (زيدان) هو شيخ الخفر للقرية إلا أنه كان يعتبر هو المسؤول الأمني الخاص بزهير وله كل الصلاحيات والثقة، وقد وضعه هذا الأخير في هذا المنصب ليس لخبراته الأمنية، بل لأنه كان يحب عيش حياة الإجرام في شبابه وسط قطاع الطرق والخارجين عن القانون من القرى المجاورة.

ويقال إنه ارتكب في هذا الوقت الكثير من الجرائم، لكن عائلة (الصولي) قامت بحمايته من أيدي الشرطة.. وحين تولى (زهير) أمور العائلة وجد أنه الأنسب للأمور الأمنية وخاصة التعامل مع قرية (باسوس) التي تجاورهم بخمسة كيلومترات فقط والتي تُعتبر هي المفترِس الطبيعي لقرية (أبو الغيط) وبينهما تدور الصراعات التافهة على اللاشيء.

وفعلًا استطاع (زيدان) أن يكيد المكائد لكبار عائلات (باسوس) منذ تولى عن طريق استخدام الخارجين عن القانون وقاموا هم بالرد، وبطرق عنيفة في أحيان كثيرة وإن كانوا يتميزون فقط بقدراتهم المالية والتي اشتروا بها العديد من البلطجية والقتلة

واستخدموهم للرد على عائلة (الصولي) أو بعض العائلات الأخرى، الصراع التافة هذا لم يكن لينتصر فيه أحذ بل هو نوع من إعلان القوة والنفوذ الدائم لعائلات كل قرية.

- يعني قدِرت توصل يا (زيدان) للي اتهجموا على عربيات النقل بتاعتنا الأسبوع اللي فات وسرقوا حمولة اليوستفندي وضربوا رجالتنا؟

بكل ثقة وبرود ردّ عليه:

- ولاد (أبو حتيتة) اللي في (باسوس) هما اللي عملوها، نفّذها 7 رجالة من ولاد الجبل اللي في (حلوان)، بعتولهم يجيبوهم يتــ.....

- وعرفت المعلومات دي منين بقى؟

حمل سؤاله قليلًا من السخرية.

- عندي عين على ولاد (أبو حتيتة).

- يبقى أحسنلك تصفي عينك دي قبل ما أخزقها أنا بإيدي.

خرجت جملته فجأة بغضب وهو يتناول منشفة طعام بجانبه ويمسح فيها يده بإهمال ويكمل:

- قولي يا (زيدان) تعرف إيه عن واد اسمه (حمامة أبو وهبة)؟

لأول مرّة منذ جلس يتغير وجه (زيدان) من حالة البرود والثقة إلى القلق وهو يجيب:

- ده اسم كده يا حاج بيتقال بقاله كام شهر بس محدش قادر يأكده

- اخلص.. بيتقال إيه؟

- إنه واد ملوش لا أب ولا أم، ابن ليل، جابوه بتوع (باسوس) من بلد بعيدة علشان يشتغل معاهم.. بس محدش اتعامل معاه ولا...

قاطعه (زهير) صارخًا فيه:

- فوق من السطل بقى، طالما أنا عرفت عن الواد قبل ما إنت تعرف تبقى مصيبة.. أنا هاكمّلك، الولا ده ناشنجي مفيش زيه، صوت رجليه ميتسمعش لو عدى جنبك، ملوش مكان نومه ولا قعدة، بتوع (باسوس) بقالهم 4 شهور بيستخدموه ضدنا وإحنا مش حاسين علشان سيادتك بقيت بتنام بدري زي الفراخ، وهو اللي دبر لسرقة عربيات النقل بتاعتنا.

- الكلام ده مش مظبوط.

- اخرس وخليني أكمل.

حاول (زيدان) تمالك غضبه الذي ارتسم على وجهه و(زهير) ينظر لبقية الجالسين وأخبرهم بأن (حمامة) هذا كان الجوكر الذي تستخدم عائلات (باسوس) خدماته المتنوعة من سرقة وقتل وحماية في الفترة السابقة، واستطاعوا إخفاء سره كي لا يفقدوا نقطة قوتهم الجديدة... لكن (حمامة) نفسه تواصل مع (هلال) منذ يومين وطلب مقابلته بنفسه وأخبره بكل شيء مع عرض خدماته للعمل معهم هنا في (أبو الغيط) مقابل مال أكثر ومكان للإقامة وحياة مستقرة.

- ها يا ولاد (الصولي) رأيكم إيه؟

نظروا لبعضهم بشك يفكرون، وكلٌ منهم ينتظر الآخر أن يبدأ بعرض رأيه حتى تكلم العمدة:

- أنا والله شايف إن مفيش مانع، بس محتاجين (زيدان) يأكدلنا الكلام ده علشان هو أكتر حد فينا اتعامل مع ولاد الليل.

فجأة نطق (زيدان) حين سمع اسمه يتردد:

- وأنا شايف إن اللي جه يقابلك ده نصاب يا حاج، ايه الضامن على الكلام ده كله، يقتل ويسرق ويخطف ومحدش يعرف يوصله، ليه؟؟ محمود المليجي، دا كداب.

- بس أنا ليا نظرة في الناس، وبقولك إنه مش كداب، الواد ده لازم يعيش معانا ونسكّنه في بيت بعيد عن (أبو الغيط)، وأنا وإنت يا (زيدان) اللي نحركه.

- لا مؤاخذة يا حاج أنا مش مصدق في (حمامة) ده ومش موافق على كلامك

ارتبك الجالسين لكن (زهير) ابتسم وسأله بود زائد:

- وإيه اللي يخليك تصدقه؟

- معرفش، بس أنا مش مرتاحله.

- إيه رأيك لو نطلب منه أمارة يثبت بيها إنه زي ما بيقول؟

- أمارة زي إيه؟

اعتدل (زهير) في مقعده وترجرج كرشه وهو يقول بابتسامة:

- خلينا نقابله ونعرف، تعالى يا (حمامة).

وسط رعب الحاضرين تحركت إحدى الستائر التي كانت تغطي نافذة الغرفة الغربية، وانفتحت ليظهر من وراءها (حمامة) الذي كان يقف هناك، كان متوسط الطول نحيل، يرتدي جلبابًا أزرق ويغطي وجهه بشال مزخرف لا يظهر سوى عينين ضيقتين ثابتتين بشكل مخيف، تقدّم خطواتٍ للأمام حتى أصبح واقفًا بجانب (زهير) وأزاح الشال عن وجهه لتظهر ملامحه التي تدل على أنه في بداية العشرينيات من عمره مع لمحة من الوسامة المختلطة بالغلاظة.

مدّ (زيدان) يده اليمنى بسرعة وأخرج من طيات ملابسه مسدسه الشخصي لكن (زهير) صرخ فيه بأن يعيد سلاحه فأطاعه.

- آديني جبتلكم (حمامة) أهو علشان تشوفوا بعنيكم، كان مستخبي معانا في الأوضة من قبل ما ندخلها، ومحدش فيكم حس بيه ولا سمعله حتى صوت نفس، حتى إنت يا (زيدان) اللي المفروض عينك تبقى في وسط راسك عدت عليك.

ثم أطرق بوجهه بعيدًا مدعيًا التفكير وهو يقول بسخرية كأنه يحادث نفسه:

- يا ترى أطلب منك إيه يا (حمامة)؟ يا ترى أطلب إيه يثبتلي كلامك؟؟ آه لقيتها، بيوت عيلة (الصولي) متأمنة كويس برجالة بتحرسها، رجالة (زيدان) واللي أكيد بيته هيكون أكتر بيت في بيوتنا متأمن، يا سلام لو قدرت تدخل بيته وتوصل لحد أوضة نومه من غير ما حد يشعر، وتاخد حاجة مهمة من عنده.

مدّ (حمامة) يده داخل جلبابه وأخرج لفافة من القماش ناولها لزهير الذي فضها وأخرج منها مسدس ساقية صغير وهو يقول:

- المسدس اللي بيحطه (زيدان) تحت مخدته وهو نايم.

واكتفى بالنظر لزيدان مبتسمًا بسماجة.

***

(جوهرة) تعاني من دور أنفلونزا منذ يومين لكن لن يرحمها أطفالها ولا أعمال المنزل، تستيقظ فجرًا لتنظف الدار وهي تتمخط في مناديلها القماشية من وقت لآخر وتكتم سعالها كي لا توقظ زوجها، تزغط البط وتطعم الدجاج الذي تربيه على سطح الدار ثم تنزل لساحة الدار كي تعجن طحين القمح وهي تكافح ألمَ رأسِها، يستيقظ الأطفال لتبدأ مرحلة الصراخ، (علي) و(مروة)، الأول في سن السادسة، والثانية في سن الخامسة.

يحاولان اللعب في العجين وكأنهما يساعدانها فتنهرهما، هنا يصحو (مسعد) زوجها يتمتم بأدعية لن تسمع منها سوى (اللهم) و(رسول الله) و(لا حول)، يقف في وسط الدار منكوش الشعر يحاول إدراك أين هو ومن هؤلاء، ثم يصيح فيها:

- برضو بتعجنبي وتخبزي، مش قلنا هاشتريلك عيش من (أم حمدي) في السوق وارتاحي انتي اليومين دول.

- أنا خلاص خلصت، استنى هاقوم أغسل إيدي وأفتحلك المية.

ينهرها ويأمرها بأن تظل في مكانها ثم يتوه قليلًا من أثر النعاس ويعود وعيه فيقترب منها وينحني مقبلًا رأسها وهو يربت على كتفها

متمتمًا:

- ألف سلامة عليكي يا (أم علي).

ويتركها ليذهب لطرمبة المياه بجانب مدخل الدار وهي تنظر له وتبتسم و(علي) يحاول تسلق ظهرها و(مروة) تستعد للقفز داخل حلة العجين بحماسة.. أما (مسعد) فيضغط على يد الطرمبة بقوة أكثر من مرّة حتى تسحب الماء من باطن الأرض فيتدفق على دفعات تستمر لثوان يستغلها هو ليغسل يديه وقدميه ويلقي بقليل من الماء على رقبته ووجهه، ثم بضع ضغطات على يد الطرمبة مرّة أخرى ليتوضأ.

يبدّل ملابسه ويذهب لصلاة الفجر بينما تخبز (جوهرة) الخبز داخل الفرن المصنوع من الطين بعد أن تحمي ناره بالقش وأقراص الجلة اليابسة، ثم تعد الإفطار في انتظار رجوعه ليتناولوا الطعام الذي لا يخرج عن كونه أحد أنواع الجبن والعسل أو البيض، وبعض أنواع الخضر المتوفرة كالطماطم والخيار والخس والكثير من الخبز.. ثم يتجه الزوج إلى محل البقالة الصغير الذي ورثه عن والده في أحد شوارع القرية.

تنشغل (جوهرة) بقية اليوم في إعداد الطعام والاهتمام بالبقرتين اللتين تربيهما في الحظيرة الصغيرة الملحقة بالدار، ثم تقوم بإعداد بعض الأطعمة التي يبيعها زوجها في بقالته كالجبن الرومي والبسطرمة والزبدة والمخللات، وقبل العصر بقليل يأتي (مسعد) ليتناول الغداء ثم يعود للبقالة.

على الرغم من أن عمرها كان لا يتعدى الخامسة والعشرين إلا

أن وجهها كأنه في نهاية الثلاثين، أعمال المنزل ومساعدة زوجها أضافوا لها الكثير من القلق والهموم متمثّلة في شكل تجاعيد مبكرة تملأ وجهها والذي كان برغم كل شيء جميلًا، وإن كان من الصعب أن تقول إنها شقيقة (عزيزة) الكبرى بسبب عدم التشابه في الهيئة.. إلا أن لكلّ من الأختين جمالًا من نوع مختلف.

اليوم زادت عليها أعراض الأنفلونزا حتى إن (مسعد) حين عاد ظهرًا ليأخذ قالب بسطرمة ووجد حالتها متدهورة حلف عليها بألّا تقوم بأي أعمال منزلية بقية اليوم، وأن تدخل لتنام وهو سيأخذ الأطفال معه البقالة ليهتم بهم، وسيأتيها بعد صلاة العصر للغداء، وتكون هي أخذت كفايتها من الراحة.

من الإرهاق طاوعته ودخلت إلى الفراش، وفعلًا راحت في النوم خلال دقائق قليلة وارتاح جسدها الممتلئ... لكن بعد ساعتين أتت بعض الأحلام المبهمة لها، نستطيع أن نقول إنها أضغاث أحلام أو تخاريف المرض كأنها تشاهد مقاطع مشوهة من أفلام تُعرَض على تلفزيون تزدحم الخدوش على شاشته، إلا أن الشاشة صارت أكثر وضوحًا فجأة، ورأت في الحلم (عزيزة) تقف أمامها باكية.. تمزّق قلبها لبكائها فهي تعتبرها ابنتها لا أختها.

رأت نفسها تقترب منها لتحتضنها في الحلم و(عزيزة) تقول بحرقة "(فايق) يا (جوهرة)".. وجدت نفسها تفكر داخل الحلم ما الذي أتى بفايق الآن؟؟!!!! حاولت أن تسألها لكن صوتها لم يخرج بينما (عزيزة) مازالت تردد نفس العبارة بلا انقطاع، والغريب أنها شعرت بأنها فهمت فجأة كل شيء، هناك فكرة زُرعت برأسها، (عزيزة) تحب

(فايق) وهو يحبها لكن والدها لا يريد تزويجه بها.

انتهى الحلم فجأة وانتفض جسدها، فتحت عينيها برعب في البداية حتى اطمأنت بأنها في غرفتها، قامت من على الفراش تهرش رأسها بتثاقل وذاكرتها تعيد آخر حُلم بتفاصيله البسيطة.. الفكرة لم تغادر عقلها حتى وهي تبدأ بإعداد الغداء، الوضع صار أقرب ما يكون للوسواس القهري الذي يحمل فكرة واحدة.

كانت تقول بينها وبين نفسها منذ سنوات: "البت (عزيزة) دي فيها شيء لله"، لأنها تشعر بها هي وأبيها في أوقات الرعب والخوف والفرح وحتى الجوع، لكن اليوم كان أقوى مما سبق.

وجدت نفسها تتوقف عن إعداد الطعام وتجري لترتدي إحدى جلاليب الخروج وتضع الطرحة السوداء على رأسها ثم تغادر الدار لتسير بأسرع ما استطاعت وهي تسعل من وقت لآخر حتى وصلت لبقالة زوجها التي هي جزء من منزل عائلته القديم وقد توسع فيها بعد زواجه وعلق عليها لافتة كتبها خطاط أحول تقول (بقالة مسعد مرزوق) وتحتها كُتبت آية قرآنية "وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون" وتحت كل هذا كتب حرفي " س.ج" فقط والتي أعتقد أن (مسعد) لا يعلم أنهما يرمزان لكلمة (سجل تجاري) وأن عليه أن يكتب رقم السجل التجاري بعد تلك الحروف لكنه تركها خالية.

كان يجلس بداخلها يحتضن ولديه اللذين حاولا التملص منه لينطلقا للعب وهو يحاول تهدئتهما بلا طائل، حتى ظهرت (جوهرة) فترك (علي) و(مروة) ينطلقان ليحتضناها وهو يصيح بدهشة:

- خير؟؟ حصل حاجة في البيت؟

- اطمن يا (أبو علي)، أنا بس رايحة أزور أبويا.

- إيه اللي حصل؟

رفعت (مروة) لتجلسها على كتفها وأمسكت بيد (علي) الذي حاول الهروب من قبضتها القوية وهي تقول بابتسامة صافية:

- والنبي ما تقلق، أنا هَفّ عليا أشوف أبويا وأعدّي أزور (عزيزة).. وحشوني، هآخد العيال وهارجع البيت على طول قبل ميعاد الغدا.

- انتي مخبية إيه؟

- لما أرجع هاقولك على الحكاية وما فيها ويمكن يبقى خير.

- طب أنا هاقفل الدكانة وآجي أوصلك، انتي مافيكيش حيل.

رفضت بقوة وتركته تجر (علي) جرًا متجهة إلى الطاحونة.

***

جلس (جاد) على مقعده خلف المنضدة القديمة يراقب عمال الطاحونة يهرولون حول الماكينات يعملون في ساعات الذروة بضعف طاقتهم، و(فايق) يهرول معهم يساعد بعضهم ويعدل على البعض الآخر ويتأكد من وزن المكاييل بنفسه ثم ينهر أحد العمال الذي كاد أن يوقع قفة الشعير ويشجع الباقين ويمدحهم.

رص (جاد) لنفسه حجر معسل على الشيشة المجاورة له، ووضعَ بعض قطع الفحم المشتعلة عليه ثم جذب بعض الأنفاس الحامية سعلَ معها قليلًا بسعادة؛ فقد كان يعتقد أن تدخين المعسّل يساعد على تسليك القصبة الهوائية وتنظيف الرئة.

تأمل (فايق) بفخر كأنه ابنه البكر، صحيح أنه عملَ معه في الطاحونة منذ ثلاثة أعوام فقط وقد كان ومازال الأصغر بين جميع العمال، إلا أنه أكثرهم همة وحبًا لعمله وخوفًا عليه؛ لذلك استحق أن يكون هو المشرف على الجميع منذ شهور، والعجيب أن بقية العاملين يحبونه لأنه يحترمهم حتى وهو يصرخ فيهم، كان يعلم متى يتباسط معهم ومتى يترجاهم لينجزوا شيئًا ومتى يعنفهم.. هذا الولد خُلقَ لهذا العمل، هكذا فكّر (جاد) وهو يسعل.. إلا أنه توقف فجأة عن إتيان أي شيء حين تاه عن المحيط من حوله وثبت في مكانه.

شرد ذهنه فجأة واختفت الأصوات من حوله وسيطرت عليه أفكار غريبة، ماذا لو كانت (عزيزة) تحب (فايق)؟؟ وماذا لو بادلها هو الحب؟ هل يزوج الاثنين؟ (فايق) فتى صالح وهو متأكد من ذلك.. لو زوجهما سيصبح (فايق) الولد الذكر الذي لم ينجبه وربما أدار أمواله بعد موته وحمى ابنتيه، الأفكار تعيد نفسها في عقله وهو ثابت في موضعه لم يوقظه إلا صوت (جوهرة) التي دخلت الطاحونة ولم يلحظها وهي تلقي بالسلام على الواقفين وعلى العمال حتى وصلت لعنده.

- يابا!!! يابا مالك اسم الله عليك؟؟

خرج من شروده بصعوبة حينما اصطدم به الطفلان يحتضنانه فألقى مبسم الشيشة على الأرض وهو يضحك ويقبّل أحفاده و(جوهرة) تسحب مقعدًا وتجلس عليه.

- مالك يابا كنت سرحان كده ليه؟

- لا يا حبيبتي دا تفكير في الأشغال والهموم، طمنيني عليكي وعلى جوزك، بقالي أسبوع مشفتكوش.

- إحنا الحمد لله بخير.

- إيه اللي جابك هنا؟ ما كنتي تيجي على البيت على طول وناكل مع بعض.

- لا أنا كنت عايزة أكلمك في حكاية بعيد عن (عزيزة).

قفز القليل من القلق على وجهه حتى وجدها تنظر ناحية (فايق)، وكأن كل شيء اتضح له بشكل سحري.

- قولي يابا.. إنت إيه رأيك في الولا (فايق)؟

تشكل شبح ابتسامة على قسمات وجهه وقال:

- سبحان الله.

- على إيه؟

- أصلي كنت بفكر فيه من حبة، الواد كويس وأنا بحبه.

مازالت تنظر للفتى وهي تفكر في جملتها التالية حتى تمتمت:

- (عزيزة) كبرت وماشاء الله بقت عروسة.

- عندك عريس ليها؟

قالها بخبث فالتفتت له بخجل ورأت في عينيه شيئًا ما يدل على أنه يعلم ما يدور بخلدها، انحنى يلتقط مبسم الشيشة من على الأرض وينظفه وهو يقول:

- انتي رأيك إيه في (فايق)؟

- مش عارفة.. عيبه الوحيد إن ملوش أهل.

سحب أنفاس الدخان ويداه تداعبان الأطفال وقال كأنه يفكر:

- يمكن عيب وميزة، لو لقى أهل يحبوه هايفديهم بروحه.. قوليلي يا بت، انتي عديتي على (عزيزة) قبل ما تجيلي.

- وحياة ربنا أبدًا، أنا جيتلك إنت الأول.

- جيتي ليه؟

لم يأتِ ببالها ما تقوله فهزت رأسها بلا معنى وهي تقول:

- جه في بالي أكلمك في موضوع بس نسيته.

- موضوع جواز؟

احمر وجهها لكنه أكمل:

- عارفة يا بت.. أنا مجاش في مخي قبل دلوقت حكاية جوازة (عزيزة)، وافتكرت كمان من شوية لما جابتلي الأكل وقلت إن (فايق) في مقام أخو (عزيزة).. أنا كنت غلطان.

بخجل سألت:

- هو (فايق) لمح على جواز؟

- لا.. بس أنا حسيت في عينه حاجة، كأنه رايد (عزيزة).

- حسيت من إمتى؟

ضحكَ وقال:

- من شوية.. بصي يا بت، اطلعي على البيت واتكلمي مع (عزيزة) شوفي هي ميالة لفايق ولّا لأ وعدي عليا بلغيني.

ابتسمت براحة وسألته:

- طب ولو هي موافقة، هاتعمل إيه مع (فايق)؟

- هاتيلي انتي موافقتها وأنا هاتصرف.

أمسكت هي بعلي من طرف جلبابه قبل أن يحرق نفسه بفحم الشيشة وحملت (مروة) لتغادر حين سمعت أباها يقول متمتمًا كأنه يحدّث نفسه: "سبحان الله، (عزيزة) دي فيها شيء لله".

ابتسمت وهي تغادر الطاحونة.

***

(2)

أين نحن الآن؟؟ في حارة (الخرونفش) بالقاهرة القديمة، أو الفاطمية، أو أي وصف تحبه لها، وأي عصر هذا؟؟ دعونا نتأمل الحارة.. هؤلاء الجالسين على هذا المقهى البلدي القديم يتناولون الينسون والقهوة في تلك الأقداح الصغيرة ويدخنون البيبة والشيشة يتحدثون عن مشاكل البلد، هذا لا يكفي لمعرفة الوقت، فالمصري منذ آلاف السنين يتحدث عن مشاكل البلد وهو يحتسي مشروبًا ما.

لنقترب أكثر ونتأمل ملابسهم، جلاليب وعباءات ملوّنة وعمائم متباينة، يتكلمون عن حاكم مفترٍ وظالم، ما زلنا لم نصل لحل، آه.. أتسمع ما يقول أحدهم؟؟ يتكلم عن (مراد) بك وكيف أنه يأكل خيرات (مصر) بالاشتراك مع (إبراهيم) بك.. آه الآن عرفنا، نحن في عصر المماليك البكوات، في فترة ما بين (1790) و(1798) ميلاديًا.. أي إننا اقتربنا من الاحتلال الفرنسي لمصر وهو عصر كأي عصر في (مصر) يتعرض فيه أهلها لأبشع أنواع التعذيب إلا من رحم ربي، ولا يملك فيه الناس إلا العبارة السحرية التي رددناها طول العمر وكانت السبب في أننا لم نمت قهرًا، عبارة "بكرة تروق وتحلى"، حضارة 7 آلاف عام من "بكرة تروق وتحلى".. رحم الله المصريين في كل وقت.

لا شيء ذو بال يقوله رواد المقهى البسيط إلا أن الشيخ (نوح الناسخ) سينتقل من منزله، آه إذًا هذا سبب وقوف عربة الكارو التي يجرها الحمار _أو يقودها فلا فارق_ وبجانبها يقف السائق ذو

الشارب العملاق المنكوش والنظرات الخبيرة التي يرسمها على وجهه البائس يرقب الحمالين وهم يخرجون من المنزل حاملين المرتبة والمخدات وبعض الأواني ويرصونها على العربة والسائق يبصق على الأرض ويعيد تثبيت القطع ولفها بالحبال وهو ينادي صارخًا كأنه يقوم بإعلان هام:

- عشانا عليك يا رب.

خرج من الدار شاب في أواخر العشرينيات من عمره، نحيل البدن طويل القامة، على جبهته علامة السجود، وسيم الملامح بفم عريض وعينين ناعستين، بشرته بين اللون الأبيض واللون القمحي الذي يميز نصف المصريين تقريبًا، عمامته بيضاء وجلبابه أزرق بخطوط طولية عليه عباءة سوداء، هذا هو (نوح بن نور الدين بن هاشم الناسخ)، أعرفه جيدًا، يمتهن مهنة والده وجده.. نسخ الكتب وتعليم اللغة العربية في الكتاتيب.

مهنة النسخ ما زالت مربحة في ذلك العصر حتى إن ممتهنيها يعلقون حقيبة جلدية مميزة في طرف حزامهم تحوي المحبرة والمنشفة، وبعض الأقلام من البوص تخرج من الحقيبة ليدللوا على مهنتهم. قبل دخول المطابع الحديثة، كان امتلاك نسخة من كتاب يسير بنسق مختلف؛ عليك أن تستعيره من ديوان محدد أو مكتبة مقابل مبلغ مالي وضامن، ثم تذهب للناسخ الموثوق به تسلمه الكتاب وتطلب نسخة بالخط الذي تريده وبالألوان التي تشتهيها، وعلى حسب حجم الكتاب وأهميته كان الناسخ يأخذ وقتًا من عشرة أيام إلى شهر.. ثم تدفع حق الكتاب للناسخ وتعيد النسخة الأصلية

للمكتبة أو الديوان، ومن الممكن أن تتولى المكتبة نفسها هذه المهمة مقابل أخذ نسبة من تكاليف النسخ.

و(نوح) كان مشتهرًا كناسخ أمين مثل أبيه وجدّه، لا يغير في نص الكتب التي ينسخها إلا سهوًا، غير أنه تعلم اللغة العثمانلية والفارسية من أحد نساخ ديوان الإنشاء فأصبح من القلائل في (القاهرة) المحروسة الذين يستطيعون نقل الكتب بهاتين اللغتين، لكنه لم يستغل كل هذا.

والسبب أنه رجل متقلب الأحوال، بين الفرحة والحزن والهم والنشاط وافتح قوسًا وضف كل ما تحب وتكره من صفات، ورث عن والده حبه للقراءة وأرض زراعية في (إمبابة)، وتفرّد هو بجنونه وحبه للتصوف، تصوّف لا رأس له من قدم، فلم ينضم لإحدى الطرق ويبايع شيخًا ولا حتى هاجمهم أو نفر منهم، يحافظ على الصلوات الأساسية في أقرب مسجد أو زاوية يسكن بقربها ومعها صلوات السنة، لكن فجأة يتبدل حاله فلا يخرج من داره حتى للصلاة.. ربما يومًا أو عشرة ويخبر الجميع أنه يطلب الخلوة إلى الله، يخرج بعد الانقطاع وقد تجدّد حاله وانقشعت شحب الهم وأشرقت شمس التفاؤل.

لا يشتهي أطايب الطعام ولا يرفضها بل يذوق منها القليل، اشتهى النساء لكنه امتنع عنهن وقد أخبر من يستفسر عن ذلك أن شهوة النساء كالطعام والزينة وهو يكافح كي لا تقوده شهواته بل يحاول السيطرة عليها.. إذًا هل سيمتنع عن الزواج؟ يرد بالنفي لكنه لن يفعل إلا عندما يتقين من وصول روحه لحالة تتخلى فيها عن كل

ما يقيدها في الدنيا.. يهز الناس رؤوسهم بفهم كاذب وهم يرددون كالمجاذيب "الله الله.. كلامك حكم"، لكن مع هذا فالجميع يحبه أو على الأقل لا يكرهه.

ولد بإمبابة في دار والده الذي مات عندما بلغ (نوح) أعتاب المراهقة، وماتت أمه بطريقة سهلة، اشتكت من ألمٍ في رأسها ليومين، ثم لم تصحو في صباح اليوم الثالث، أكمل هو تعليمه حتى ظهرت مشكلة بعد سنوات، أحد أمراء المماليك بناحية (إمبابة) فرض إتاوة مضاعفة على الكثير من الأراضي ومنها أرضه التي يؤجرها لأحد الفلاحين منذ أيام أبيه، لم يسكت (نوح) وتكلم في كل مجلس عن بطش هذا الأمير وظلمه ومصيره الأسود الذي ينتظره عند موته مما يأكله من أقوات الناس في بطنه الضخم، بل واعترض موكب الأمير في الشارع وكال له الألفاظ حتى تجمع عليه مماليكه وأشبعوه ضربًا.

بعدها بيومين قرّر أن يترك كلّ شيء وأوصى الذي يؤجر له أرضه بأن يرسل له الإيجار إن تبقى منه شيء بعد زيادة الإتاوة في عنوانه الجديد الذي سيرسله له، جاء إلى حارة (الخرونفش) واستأجر منزلًا صغيرًا وقد ارتاح من مشاكل المماليك بعدما تأكد أن للحارات نظامًا مختلفًا، أبلغ الدواوين والمكتبات بعنوانه الجديد حتى يأتي له من يطلب نسخ الكتب.. أحبه الناس لطيبته وبشاشته وأطلقوا عليه لفظ الشيخ لورعه وتقواه وتصوّفه العجيب، الذي لا يشمل زيارة الأولياء وآل البيت.

لكن بعد أسابيع اكتشف عالم الفتوّات الذي يحكم الحارات، الإتاوة

مازالت كما هي واستبدل الأمير المملوك بالفتوة، القهر والظلم كما هو مع بعض التحسينات السخيفة، ففتوة الحارة (صديق المزين) أعفاه من دفع الإتاوة؛ لأنه -وبحسب عبارته التي قالها لأهل الحارة- "راجل بتاع ربنا.. لا بيهش الدبانة ولا بيقتلها".

ورغم الإهانة المبطنة التي حملتها كلمات الفتوة إلا أنه التزم بوعده مع (نوح) لخمس سنوات كاملة، بل وقَبِلَ أكثر من مرّة توسّطه لديه ليؤجل دفع الإتاوة عن بعض غير القادرين من أهل الحارة، الحياة كانت جميلة ومريحة واستقرّ في الحارة وأصبح مِن أعلامها، الشيخ (نوح) ذو الأحوال والمقامات العجيبة، الزاهد في الملذات، الباحث عمّا وراء الدنيا، يستشيره أهل الحارات المجاورة في الأمور الدينية فيعتذر لهم بتواضُع لأنه ليس عالمًا دينيًا، ومع هذا يلحون عليه فيجيب بما يعلمه وينهي عبارته بـ "اسألوا أهل الذّكر".

مات (صديق المزين) فجأة، شرب كوب ماء على المقهى فسعل ثم وقع على جنبه ميتًا كالدجاجة، لعنه أهل الحي حتى أقام رجاله من الفتوات تحديًا في صحراء المماليك ليختاروا الأقوى بينهم الذي سيتولى الفتونة، مباريات تحطيب بالنبوت ومصارعة بالأيدي، شيء مثل بطولة مصارعة المحترفين wwe لكن بالجلاليب والملابس الداخلية.. بالطبع مع عدم وجود المعلق كابتن (ممدوح فرج).

في نهاية المصارعة ربح (خليل القرد) منصب الفتوة الجديد، وكان أول ما فعله هو فرض الإتاوة على (نوح الناسخ) لأنه يكرهه من أول مرّة لمحه فيها، وكما قال (القرد) بنفسه لوجهاء الحارة "اللي زي

(نوح) ده ديله نجس بس هو مخبيه".. وحين يقولون له "ده راجل بتاع ربنا" يرد عليهم بألفاظ بذيئة قذرة لا يمكن كتابتها.

وتحولت حياة (الناسخ) لسعير داخل حارته الصغيرة، أوصى (القرد) رجاله بالاحتكاك الدائم بنوح بسبب وبدون، مع قليل من الشتائم وبعض الدفعات من رجال الفتوة، ثم انتهى الحال بفرض ثلاثة أضعاف الإتاوة عليه، وكما صرّح السيد (القرد) أن الإتاوة زادت على (نوح) لأنه بتاع ربنا.

وشاهد أهل الحارة (نوح) وهو يتعارك مع رجال (القرد) لفظيًا وهذا الأخير يظهر من العدم وهو يرفع النبوت لأعلى ليهوي به إلا أن الناس تدخّلوا فجأة واستسمحوه فتوقف كالتمثال والنبوت ما زال مرفوعًا في الهواء وهو يقول:

- النبوت ده لو نزل على الفاضي تحرم عليّا مراتي، يا إما حكمي يتنفذ في التوّ والحين يا إما أنزله على نافوخه يفلقه نصين.

وكما يلاحظ الجميع فطريقة الكلام العجيبة هذه ما زالت مستمرة عند قِطَاع كبير من مدّعي الفتوة والقوة وعند بعض سائقي الميكروباص والتوك توك.. صرخ أحد الباعة من داخل الجمع:

- كلامك أوامر يا سيد الحارة.

- يبقى (نوح) النجس ده قُدّامه أسبوع يسيب فيه الحارة من غير رجوع، وما أشوفوش في ولا حارة من حارات المحروسة.

- أمرك نافذ يا كبيرنا.

كانت تلك المداهنة من أحد الواقفين وهو يساعد البقية على إبعاد

(نوح) عن هذا المشهد الكرتوني.. وفي النهاية أقنعوه بترك الحارة، ولأنه قرّر ألا يعود لإمبابة اقترح عليه أحدُ المداهنين ممن حوله بأن يستقر في قرية في جنوب أو شمال (مصر).

قفزت لذهن (نوح) اسم قريته التي أتى منها والده قبل أن يستقر في (إمبابة)، قرية (أبو الغيث) بالقليوبية، زاراها مع والده مرتين في طفولته وجلسوا في دارهم الصغيرة على أطراف القرية، ما يتذكره أن أهل القرية كانوا يحترمون والده ويبجلونه باعتباره أحد حفظة القرآن أو بتعبيرهم "حامل كتاب الله"، لكنه لا يتذكر أبعد من هذا.

لذا شد الرحال في صبيحة أحد الأيام حتى وصل لهناك، ولاحظ أن أهل القرية لا ينطقون اسمها كما عرفه من والده (أبو الغيث) بل يبدلون حرف الـ (ث) بالـ (ت) ثم يخففون الـ (ت) إلى (ط)، فأصبحت تنطق (أبو الغيط)، سأل عن دار عائلة (الناسخ).. الشباب لم يعلموا مكانها لكن الرجال علموا بل وتذكروه هو شخصيًا عندما أتى مع والده منذ زمن، تلقّى عشرات العزومات على الغداء وشرب الحلبة واليانسون من أهالي القرية والفلاحين في المزارع عندما اصطحبه أحد الرجال إلى موقع منزله على أطراف القرية.

أبلغه (نوح) بأنه سينتقل لهنا في الأيام القادمة، طبعًا أمطره الرجل بالأسئلة عن حياته وما فعله السنين السابقة ووالده وعائلته، وحكى له (نوح) باختصار كل شيء حتى إنه أخبره بعنوانه في حارة (الخرونفش).

في اليوم التالي أخبره سكان الحارة أن هناك الكثير من الرجال أتوا من قرية (أبو الغيط) وقالوا إنهم من عائلة (الصولي) إحدى

عائلات القرية، وعلموا بعودة (نوح) ويريدون السؤال عن أخلاقه وحياته وسبب رحيله من (الخرونفش)، طبعًا تطوّع الناس بإغراقهم في بحر من تفاصيل حياة (نوح).

طبعًا شيء متوقَّع؛ فأهل القرى أكثر انغلاقًا من أهل المدن.. يخشون الغرباء في البداية حتى يتأكدوا بأنهم سيندمجون معهم، حينها ينفتحون بأريحية مرعبة ويعتبرون الغرباء أفرادًا من عوائلهم.

و(نوح) لم يخشَ ذلك فشمعته الطيبة تسبقه لأي مكان؛ لذلك أكمل عملية انتقاله وهو لا يحمل همًا لهؤلاء الذين يستعلمون عنه، مرَّ على المكتبات والدواوين من جديد يبلغهم بعنوانه الجديد وفوجئ بأن هناك ثلاثة كتب في انتظاره لينسخهم عند إحدى المكتبات، فأخذهم ليبدأ فيهم عند انتقاله وأخذ دفعة مقدمة من ثمن نسخهم.

وها هو في اللحظات الأخيرة لمغادرة عالم الفتوات المرعب والذهاب إلى الأرض البكر.. (أبو الغيط).. تجمهر الناس حوله أمام منزله في (الخرونفش) يصافحونه باكين ويقبّلونه بنهم حتى غرق خديه في لعاب الجموع الحزينة.. "لا تنسانا يا مولانا".. "ادعي لينا يفك كربنا".. "هتوحشنا يا شيخ (نوح)"، هكذا ودّعه الجميع هاتفين وهو يركب بجانب السائق على العربة الكارو يلوح لهم.

سارت العربة وسط الحارات والناس يمطرونه بالتحيات حتى خرجوا من القاهرة، وساروا في الطرق لساعات إلى حين مروا بقرية (باسوس) ثم دخلوا قرية (أبو الغيط).

هنا لاحظ شيئًا غريبًا، القرية ليست على حالها الذي رآه في المرة السابقة، هناك مماليك يقفون على مدخل القرية، يرتدي كلُّ واحد

فيهم ملابسه الملونة المطرزة بالياقوت الأحمر والذهب، وعمامة من الحرير، وممنطق بسيف مقبضه مُرصّع بالأحجار الكريمة، وغدارة بارود (طبنجة أو مسدس) في كل جانب من جانبيه، ويحمل رمحًا طويلًا يتكئ عليه بتكاسل، وفي عين كلٍّ منهم تلك النظرة الناعسة اللامبالية.. ينظرون إليه بطرف عيونهم باشمئزاز.

لاحظ (نوح) ثلاثة.. أولًا يرتدون كامل حلتهم وتجهيزاتهم القتالية وكأنهم يتجهزون لتشريفة أو استعراض عسكري، وثانيًا ملابسهم نظيفة ولامعة لا أتربة عليها وهذا دليل على أنهم لم يسافروا على الجياد إلى قرية (أبو الغيط)، كأنهم يقيمون فيها!!!.

ثالثًا يشعر أنهم وبشكل ما كانوا ينتظرون وصوله القرية لسببٍ ما، جال بباله المثل المصري القديم الذي يقول "قليل البخت يلاقي العضم في الكرشة".. هذا غير أن العربجي بجانبه تمتم برعب: "يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف".

***

مبروك، تكللت قصة الحب الصامتة بالارتباط الرسمي، (عزيزة) و(فايق) الذي أخذه (جاد) والدها من يده بعد أيام من لقائه بجوهرة، خرج به من الطاحونة واتجها إلى المسجد ليصليا فيه، وبعد انتهاء الصلاة جلسا في زاوية صغيرة منه ودار حديث هامس بين الاثنين:

- عارف يا (فايق) إني باعتبرك زي ابني ولّا لأ؟

- طبعًا يا عم (جاد).. وانت زي أبويا تمام

- طب مش ناوي تتجوز وتفرح أبوك؟

فيهم ملابسه الملونة المطرزة بالياقوت الأحمر والذهب، وعمامة من الحرير، وممنطق بسيف مقبضه مُرصّع بالأحجار الكريمة، وغدارة بارود (طبنجة أو مسدس) في كل جانب من جانبيه، ويحمل رمحًا طويلًا يتكئ عليه بتكاسل، وفي عين كلٍّ منهم تلك النظرة الناعسة اللامبالية.. ينظرون إليه بطرف عيونهم باشمئزاز.

لاحظ (نوح) ثلاثة.. أولًا يرتدون كامل حلتهم وتجهيزاتهم القتالية وكأنهم يتجهزون لتشريفة أو استعراض عسكري، وثانيًا ملابسهم نظيفة ولامعة لا أتربة عليها وهذا دليل على أنهم لم يسافروا على الجياد إلى قرية (أبو الغيط)، كأنهم يقيمون فيها!!!.

ثالثًا يشعر أنهم وبشكل ما كانوا ينتظرون وصوله القرية لسببٍ ما، جال بباله المثل المصري القديم الذي يقول "قليل البخت يلاقي العضم في الكرشة".. هذا غير أن العربجي بجانبه تمتم برعب: "يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف".

***

مبروك، تكللت قصة الحب الصامتة بالارتباط الرسمي، (عزيزة) و(فايق) الذي أخذه (جاد) والدها من يده بعد أيام من لقائه بجوهرة، خرج به من الطاحونة واتجها إلى المسجد ليصليا فيه، وبعد انتهاء الصلاة جلسا في زاوية صغيرة منه ودار حديث هامس بين الاثنين:

- عارف يا (فايق) إني باعتبرك زي ابني ولّا لأ؟

- طبعًا يا عم (جاد).. وانت زي أبويا تمام

- طب مش ناوي تتجوز وتفرح أبوك؟

تلوّن وجهُ الفتى بكل ألوان الطيف، وتحركت معدته رعبًا كأنه قابلَ أسدًا يرتدي ملابس داخلية وفي يده اليمنى سيجارة وبيده الأخرى مطواة قرن غزال.

- إن شاء الله كله بأوانه، لما ربنا يكرمني وأقدر أحوش وأجيب بيت أبقى..

قاطعه (جاد):

- اختار إنت أي واحدة وأنا متكفل بجوازك كله، دا حقك عليّا.

تلعثم الفتى وهو يردّد كلامًا غيرَ مترابط عن النصيب والوقت ومواعيد لعب البط في الترعة.. حتى أنقذه (جاد) وهو يسأله بهدوء:

- يعني مفيش بت في البلد عينك منها؟

هزّ (فايق) رأسه نفيًا وعيناه تركزان على حصير المسجد كي لا يفضح كدبه.

- خلاص أنا اللي هاخترلك عروستك.. أنا اخترتلك بنتي (عزيزة).. إيه رأيك؟

رفع الفتى رأسه بملامح تنم عن الهبل والشك وقليل من العته ونظر لجاد الذي أكمل بنفس الهدوء:

- ماسمعتش ردك!!!

- بس أنا.. أنا.. أنا أجيب فلوس منين علشان المهر.

- آخر سنتين كنت بحجز من يوميتك اللي بدهالك كل يوم مبلغ علشان أحوشهولك، إنت ليك دلوقت في ذمتي 340 جنيه هايبقوا

المهر اللي هاتدفعه وتجيب منه الدهب وتعمل ليلتك كمان.

- أيوه بس ازاي؟؟

- متتعبش قلبي معاك يا ابني، موافق على اختياري ولّا تحب تختار بنت تانية وتاخد فلوسك تتجوز بيها؟

- ومين يرفض (عزيزة) يا عم (جاد) بس أنا ما أقبلش أتجوز بفلوس مش فلوسي.

- إنت اتجننت، هو أنا هاكدب عليك في فلوسك، حكاية الفلوس دي متفتحهاش تاني، بس ادعي ربنا في الخطوة الجاية لأن دي حاجة ما أضمنهاش.

- خير؟

- هاخد رأي (عزيزة)، يا إما البت تقبل يا ترفض، ولو مش عايزاك يبقى هادورلك على عروسة تانية.

أحداث جميلة تصلح لفيلم مصري إنتاج 1950م، لكن العجيبة أنها حقيقية، بالطبع وافقت (عزيزة) وكادت أن تفضح نفسها أمام والدها حين زغردت وقفزت من مكانها فرحة وهو لا يقدر على إمساك سعادته بها والتي قفزت على وجهه.

ولأن (جاد) رجل حكيم فقد استطاع أن يُطلق إشاعة تلفّ قرية (أبو الغيط) مفادها أن (فايق) كان يدخر المال طوال السنوات السابقة من كل مكان عملَ به حتى إنه شارك به في بعض الصفقات التجارية البسيطة خارج القرية وربحَ منها جيدًا، بل لقد شارك بجزءٍ من هذا المال منذ عامٍ في شراء بعض المعدات للطاحونة لتطويرها.

صدّق الناس تلك الأقاويل حتى إن عمال الطاحونة نفسهم ربطوا بين الإشاعة، وبين معاملة (جاد) الخاصة للفتى.. طبعًا ظهرت بعض النصائح على استحياء تطالب الرجل بالتمهل في مسألة زواج ابنته؛ لأن الفتى ليس له أهل، لكن (جاد) كان يرد تلك النصائح باللين ويكمل خطته.

موعد الزواج بعد شهرين، العروسان سيقيمان معه في منزله، غرفة النوم تصنع خصيصًا عند نجار في (شبرا الخيمة) على الطراز الحديث، شوار العروس _أي تجهيزاتها التي يدفع أهلها ثمنها_ ستأتي من أفضل الأماكن، ومع المفاجأة الكبرى.. سيأتي للعروس ثلاجة لحفظ الأطعمة تتضمن مجمّدًا يمكنه صنع الثلج، وتلفزيون 14 بوصة، وطبعًا سيقوم بالتقديم في شركة الكهرباء لإدخالها في المنزل.

ستموت (عزيزة) من الفرحة لهذه الأخبار وتتراقص (جوهرة) وأطفالها وزوجها، سيمكنهم الحضور ليلًا لمنزل العائلة لمشاهدة التلفزيون وشرب المياه الباردة مع قطع الثلج المجانية، طبعًا مصانع الثلج كانت موجودة لكن شراء ألواح الثلج الضخمة ونقلها لداخل القرية ثم تكسيرها بالمطرقة لقطع صغيرة سرعان ما تسيح كانت عملية مرهِقة.. الآن العائلة ارتفعت طبقةً، لتقترب من عائلات (أبو الغيط) الغنية وربما في القريب يشتري (جاد) بوتاجاز بفرن ويستعمل أنابيب الغاز.. المستقبل مليء بالأحلام فعلًا.

لنترك كل هذه الرومانسية الدافئة ونعود لأرض الواقع بعدما مرّ أكثر من شهر مع أهالي القرية الذين أصيبوا باللوثة العقلية من

البهرجة الزائدة هذا العام في ليلة الستر الخاصة بنوح المذبوح أو كما يلقبونه "سيدي نوح"، الليلة يبدأ الاحتفال بعد صلاة العصر، الزينة معلّقة في الهواء في كل شوارع القرية ومعها المصابيح الملونة تضيء حتى قبل اختفاء الشمس، كل أبناء عائلة (الصولي) يرتدون الجلاليب السوداء والعمائم الخضراء، يقف شبابهم أمام مقام (نوح المذبوح) يحملون متعلقاته التي استخدمها في حياته كما يقولون، محبرة وأقلام من البوص مزخرفة وخنجر وسيف وملابس وكتب مغلقة وأوعية ماء وطعام، والكثير من الأشياء القديمة وكل منها موضوع على وسادة خضراء ويحملها أحد الشباب، يتقدمهم منشد ديني وبعض الراقصين بالتنورة وعشرة من العازفين على الناي والربابة، سار الموكب حتى وصل لأول القرية والأهالي يتجمعون عليه من كل مكان مندهشين من هذا التغيير الغريب في المراسم.. المنشد يمسك بمكبر صوت يشدو منه بمديح آل البيت ولا تسألني عن علاقة (نوح) بهم.

ثم يتوقف المنشد فجأةً ويتكلم بعبارات مسجوعة عن (نوح) وحياته في القرية، وعن جنوده من الجن الذين ساعدوه في الخفاء، وعن جنوده من البشر الأوفياء من عائلة (الصولي) وقائدهم (رجب) كبير العائلة الذي أخذ العهد على يد الشيخ (نوح) بمناصرته حتى الموت، ويرغي ويزبد عن الظلم وكيف ضحّت عائلة (الصولي) بشبابها ليرفعوه عن أهلهم.

ثم يعود المنشد لمدح النبي وآل بيته، ويظل هكذا بين مدح الأكرمين ونفاق الظالمين والأهالي يحيطون به في مسيرته يحاولون لمس متعلقات (نوح) للتبرك بها.. يكمل الموكب المسير من

بداية القرية إلى كل شوارعها وحاراتها والنساء يقفن أمام البيوت يزغردن ويلوحن للموكب بجانب بعض الرجال المتحمسين من العائلات الكبرى الذين أخرجوا بنادقهم وأطلقوا الرصاصات في الهواء تحيةً للموكب.

توقف الموكب عند قصر الحاج (زهير) الخنزير البري الذي ذكرته سابقًا، فخرجَ الحاج يرتدي جلبابًا أبيض فأصبح يشبه الثلاجة ذات البابين، وعلى رأسه عمامة خضراء وبيده اليمنى عصا مزخرفة يخبطها في الأرض، وحوله كبار رجال العائلة وكلهم يرتدون الملابس السوداء فأصبح هو الوحيد المميّز فيهم، على يمينه (هلال) ابنه الأكبر وعلى يساره (جمال) المشرف على هذه الليلة، انفتحت بوابة القصر على مصراعيها وخرج (زهير) وسط الرجال يمشي الهوينى والمنشد في الموكب يعود للنفاق عن عائلة (الصولي) وهو يتقدم ناحية (زهير) ويعطيه مكبر الصوت فيأخذه هذا الأخير ويوجّه كلامه للجموع:

- صلاة الله سلام الله على الهادي رسول الله.. بعد صلاة الفجر النهارده رجعت بيتي ونمت على سريري، كنت لوحدي والضوء لسّه ما فتحش السما، شوفت نور على هيئة إنسان، وسمعته بينادي عليا ويقولي "يا (زهير)، يا خادم يا ابن الخادم، اعمل موكب يلف البلد، وسيدك المدبوح هايكون معاكوا، يلف على بيت بيت، يحط بركته في تراب بخوره، واللي يصدقه ويمسح بيه على الوجع ينفخ ربنا في سيرته ويبعتله الشفا بإذن الله".

كبّر الناس وهللوا وأحد شباب عائلة (الصولي) يخرج من القصر

يحمل وسادة عليها طبق كبير من نحاس يمتلئ برماد البخور المحترق ويتقدم إلى (زهير) الذي أعطى مكبر الصوت لجمال وأمسك بطرف إصبعيه الإبهام والسبابة بعض الرماد ومسح به كفيه، ثم مسح بكفيه على رقبته، أخذ بعدها مكبر الصوت ثانية وقال بحماس:

- لله أولياء في الخفاء، قلوبهم مع العرش، يعلمون عن السماء أكثر مما يعلمون عن الدنيا.

فجأة انفجرت الدموع من عينه، وأكمل بصوت متهدج مرتعش:

- سأل (موسى) ربه أين أجدك؟ فأجابه الله عزّ وجلّ: أنا جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني يا (موسى)، أنا عند المنكسرة قلوبهم.. إحنا المنكسرين، وربنا بعتلنا سيدنا علشان ينجدنا.

ثم ثبّت عينيه وسط الموكب وكأنه ينظر للا شيء والدموع ما زالت تنهمر على خديه لكنه ابتسم وصاح:

- والله أنا شايف النور ما بينكم، سيدنا (نوح) معانا، الله أكبر.. الله أكبر.

ثار الجمع وتمايلوا من النشوة والبعض يبكي وينهنه، أعاد (زهير) مكبر الصوت للمنشد وانضم ومن معه للموكب الذي أكمل مسيرته وحامل رماد البخور ينثر منه على أهالي القرية الملهوفين والمنشد ينشد "احذر يا صاح وكن وقرا، وخذ الميثاق على الفقرا، واسلك يا صاح بمنهجهم، وبحضرتهم خيرًا سترى" ثم تغيرت نغمة كلماته وهو

يقول "أنا المذبوح فسل عني وعن مددي.. وإن لم ترَني فانظر إلى خدمي.. وسر إلي في جوف الليل ألقاك.. لا خوف من ظالم فكل قدر باللوح والقلم".

أعتقد أن المنشد يؤلف الكلمات قبل أن يقولها بثوانٍ، وإلا فما سبب عدم ترابط آخر بيتين، لكن على كل فالناس مخمورة بالموسيقى ومتيمة بالحب فلن تجد شاكيًا أو ناقدًا.

الموكب اقتربَ من أحد المنازل، منزل (جاد) وفي داخله (فايق) الذي كان يساعد (جاد) في تشغيل التلفزيون الصغير، و(عزيزة) تحضر لهم كلّ خمس دقائق الشاي أو الماء لتختلس النظرات لخطيبها وحبيبها.

لم يبقَ على موعد الزواج إلا أقل من أسبوعين، وانتهى تجهيز المنزل إلا من بعض الرتوش، دخلت الكهرباء للدار وتجارب تشغيل التلفزيون وضبط الهوائي الخاص به تسير على قدمٍ وساق، الحدثُ جلل لاستقبال القناة الأولى ومشاهدة المسلسلات والمسرحيات والبرامج.

والعروسان غارقان في النظرات والابتسامات و (جاد) كما يقول المصريون (عامل نفسه من بنها)، يمثل أنه لا يلاحظ، فقد كان مثلهم عندما تزوج في شبابه ويعلم مقدار الحب والاشتياق، لكنه من وقتٍ لآخر يلسعهم بسياط الواقع كي لا يتماديا في الهمسات.

نظر (جاد) بتمعن للتلفزيون ماركة (نصر) ورفع عينيه للهوائي الخاص به، والذي يخرج من التلفزيون بنظرة فاحصة كأنه مهندس إلكترونيات وقال:

- شكل الواد (مسعد) هايبقى عنده حق وهنحتاج نشتري إريال نحطه على السطح.. ولّا إيه رأيك يا (فايق)؟

الفتى يقف وراءه ممسكًا بكوب الشاي ينظر بطرف عينه لعزيزة التي تجلس بعيدًا على الأريكة الجديدة تبادله النظرات.

- ولا يا (فايق).

صرخ بها (جاد) فانتبه له الفتى وردّد بشكل آلي:

- أيوه، عندك حق يا عم (جاد).

التفت له (جاد) وكاد أن يعلّق ساخرًا عليه لكن أذنه التقطت صوت أنغام الموكب وتبعه في ذلك (فايق) الذي وضع كوب الشاي جانبًا وفتح باب المنزل و(جاد) يقف بجانبه ومن خلفهما (عزيزة) تقف على أطراف أصابعها لترى ما يحدث في الخارج.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. هي الناس هاتفضل في الجهل ده لحد إمتى.

قالها (جاد) فردّ (فايق) كالتائه:

- أول مرّة يعملوا كده في ليلة الستر.

- بيقلدوا مواكب الصوفية يا ابني، غباوة بعيد عنك.

- هاستأذنك يا عم الحاج، أنا عايز أروح معاهم.

قالها كالمنوّم مغناطيسيًا وهو يتقدم بخطوات ناحية الموكب، نادت عليه (عزيزة) فالتفت إليها وهي تقول:

- هاتسيبنا يا (فايق)؟؟؟ خليك معانا.

بنوع من الرجاء أجابها:

- هاروح معاهم وأزور سيدي (نوح)، عمري ما فوّتّ ليلة من وأنا عيل.

لم ينتظر إجابتها وهو يهرول ناحية الموكب بينما (جاد) يمسك ذراع ابنته وهو يهمس لها:

- بالراحة على الواد، زيه زي بقية البلد، اتولد وميعرفش حاجة غير مقام (نوح).

دخل (فايق) الموكب وسار معهم يتمايل مع كلمات المنشد والرجال يزيدون الموكب عرضًا وطولًا كل دقيقة أزيد من الأخرى، تحركوا كالمظاهرة يطوفون حتى أذّن المؤذن لصلاة المغرب في مسجد (رجب) الكبير وسط القرية، كانوا توقفوا عند المقام فحدّثهم (زهير) بأن الصلاة قد وجبت وبعد الصلاة تبدأ ليلة الستر، اقترب الشباب حاملو أدوات (نوح) من (زهير) الذي قبّل كل أداة بفمه ثم رفعها على رأسه، وكل أداة يفعل بها ذلك يدخل حاملها إلى المقام ليعيدها لمكانها والأهالي يتفرقون ببطءٍ حتى انتهى هذا السيرك وتوجه كبار عائلة (الصولي) للمسجد يتبعهم بقية الأهالي في حين وقف (فايق) أمام المقام هو وبعض الرجال يرفعون أيديهم وفاتحة الكتاب تخرج من بين شفاههم المرتعشة، دعا (فايق) الله بأن يكون على قدر المسؤولية أمام عائلة (عزيزة).. وأن يظل في قلبها إلى الأبد.

اتجه بعدها لزاوية قريبة للصلاة ثم ذهبَ بدافع الفضول للصوان الضخم الذي يحتل بضعة شوارع وداخله نصبت خيام النفحة والتي هي طعام تقدّمه عائلة (الصولي) يتكون من الكثير من اللحم والخضار والأرز، دخل إحدى الخيام فوجد الوسائد فُرشَت على الأرض وعليها جلس الأهالي من الرجال وأمام كل منهم تنزل صينية عليها ما لذ وطاب، ويمكن لأي منهم طلب المزيد من اللحم أو الخضر أو الأرز.. وفوق كل هذا فينتظر كل واحد منهم لفة من اللحم النيء ليأخذها لبيته ثم يعود لإكمال الليلة.

بسبب شعور الفتى منذ صغره باليتم كانت نفسه تعافى أن يتناول الطعام في الموالد والليالي الاحتفالية.. شيء ما في عقله صور له أن الجميع سينظر له كمتسول يعيش على الطعام المجاني، لكنه كان يفرح من تلك الأجواء وخاصة ليلة الستر التي تختلف عن ليلة المولد النبوي تمامًا.

سمع الرجال خارج الخيام يتهامسون بأن الريس (حفني أحمد حسن) أتى للقرية وبعد ساعتين سيحضر لهم هنا في الخيام، أحد الرجال قال بأنه سيفتتح الليلة بموال (شفيقة ومتولي) الشهير وأنه سيروي تفاصيل جديدة في تلك السيرة لم يقلها في الإذاعة المصرية، كاد يطير من السعادة وهو يمنّي نفسه بليلة في رحاب الريس (حفني) ومواويله.

- (فايق).. (فايق).

سمع اسمه فالتفت لمصدر الصوت ليجدها (عزيزة) تقف بعيدًا، جرى عليها مبتسمًا فعاتبته بلطف:

- ’نت قلت هاتزور المقام وهاترجعلنا، إيه اللي جابك هنا؟

وكأي شابٍّ مِصريٍّ مقبل على الزواج تلجلج أمام زوجته المستقبلية كأن أمه هي التي تخاطبه، فابتسمت له بحنان وقالت:

- تعالى نرجع البيت.

نظر للأجواء الجميلة من حوله كالطفل الذي يودع مدينة الملاهي حين تحين ساعة المغادرة وسار بجانبها بدون أن ينطق بكلمة، حين عادا لمنزل (جاد) وجدهم في استقباله في صالة الدار مبتسمًا ويقول بنوع من الحرج:

- والله يا ابني مش أنا اللي قُلتلها تروحلك، هي اللي دماغها ناشفة زي جدتها الله يرحمها.

- (عزيزة) تعمل اللي هي عايزاه يا عمي.

كانت تتقدمه بفخر كأنها فازت بمسابقة رمي الجلة، دخلت للمطبخ وهي تقول بحماس الأطفال:

- هاعملكوا العشا.

دعا (جاد) الفتى للجلوس بجانبه وسأله بفضول:

- مكنتش أعرف إنك من مريدين الشيخ (نوح).

- أنا بحبه زي أي حد، بس متخيلتش إنكم بتكرهوه.

- لا خالص مين قال كده، أنا مربي بناتي على حبه، بس مش بالطريقة اللي ولاد (الصولي) عايزينا نحبه بيها

- عيلة (الصولي) مقالوليش أحبه إزاي.

- ولا أنا هاقولك يا ابني، قولي إنت بتحبه ليه؟

فكر الفتى قليلًا وقال بتردد كأن الكلمات لا تسعفه:

- مش عارف أقول سبب بعينه، أوّل ما وعيت عيني على الدنيا سمعت حكايته من خالي.. حبيته قبل حتى ما أزور مقامه، كفاية إنه عاش هنا في نفس البلد وعمل اللي عمله علشانا، كأنه جدي الكبير وأنا من ضهره وبافتخر بيه وسط الناس.

- وإنت مصدق إنه لسّه عايش؟

- الله أعلم.

- يعني رسول الله نَفسه مات، وعايز واحد عادي يفضل حي.

- ربنا بيقول "إنّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيئًا أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونْ"، مفيش حاجة بعيدة عنه.

- بس العقل اللي ربنا إدهاولنا بيقول منصدقش عيلة (الصولي) وحكايتهم، يمكن الشيخ (نوح) عاش فعلًا ويجوز ليه كرامات، لكن أكيد نهايته كانت الموت، وحسابه عند ربه.

من المطبخ أتت (عزيزة) التي كانت تسترق السمع لهما وقد تجهم وجهها وهي تقول:

- محدش من عيلتنا يوم زار المقام اللي بيقولوا عليه، ولا دعينا عنده، ولا عملنا التخاريف اللي بيعملها الناس، وإنت كمان لازم تكون زينا.

صرخ بها (جاد) في نوبة غضب نادرًا ما تظهر:

- اخرسي يا بت، هو انتي هاتجبري الراجل اللي هايبقى جوزك يشغل دماغه ازاي؟؟!!!! (فايق) راجل يعمل اللي هو عايزه.

- أسيبه في الجهل.

أخرج (جاد) من فمه خوارًا كالثور وعينيه تركز على (عزيزة) التي نظرت للأرض تحاول أن تكبت غضبها.. لحظات قليلة مرت كالدهر والجميع في حالة من الخرس حتى كسر (جاد) هذه الحالة قائلًا:

- سامحني يابني، واضح إني دلعت بنتي زيادة شوية، هي عمرها ما هتضايقك تاني، توكل إنت على الله وروح على ليلة الستر انبسط وأشوفك بكرة في الطاحونة.

لا ننسى أن (عزيزة) مصنّفة كطفلة بعد كل شيء، احمر وجهها وبدت كأنها تكافح خروج الدموع من عينيها، بدّل (فايق) نظراته بينها وبين (جاد) وقال:

- أنا هاروح على البيت وأنام، مقدرش أزعّل (عزيزة).

لم يتغير وجه (عزيزة) ولا (جاد) كأنهما يدعوانه للمغادرة بأسرع ما يمكن وهذا ما فعله فعلًا وغادر بسرعة.. انفجرت الدموع من عيني (عزيزة) وأخذت في البكاء و(جاد) يضمها لصدره ويقبّل رأسها.

- إنت بتصغرني قدام خطيبي يابا.

- دا أنا بكبرك يا بت، لما تغلطي لازم أعرّفك غلطك، لو معملتش كده

أبقى عايز بيتك اللي لسّه بنبنيه يتخرب.

- أنا مش غلطانة.

بصوت حنون أخبرها:

- عارفة وانتي بنت ست سنين كنتي بتخرجي تلعبي مع عيال (شفيق) جارنا، خرجت أدور عليكي قالولي إنكم رحتم تلعبوا قُدّام مقام الشيخ (نوح).. رحت لقيتك جوه المقام لوحدك ومش عايزة ترجعي معايا.

توقفت عن البكاء وقالت بغيظ:

- مش فاكرة اللي بتقوله!!!!!

ابتسم هو وأكمل:

- أنا بقى فاكر.. قعدتيني جنبك ساعة بحالها جوه المقام تلعبي وتضحكي لحد ما رحتي في النوم وشيلتك رجعتك البيت.

- والله ما فاكرة إني دخلت المقام قبل كده، ولو ده حصل فأنا كنت عيلة.

- أنا باحكيلك علشان تفهمي.. خدي (فايق) بحنية، زي ما أنا عملت وانتي صغيرة، فهمتك سنة ورا سنة لحد ما عملتي كل حاجة زيك زي أختك وأمك.. واوعي في مرّة تحكيله حاجة إلا لما هو بنفسه يكون مستعد يفهم.

- يعني إمتى أحكيله؟

ضحك ثانية وقال:

- الوقت هايجي بس لما انتي تكبري وتعقلي شوية.

***

(3)

(السلطنة) هي سيدة الموقف، ولا أقصد بتلك الكلمة معنى نظام الحكم السلطاني لا، فنحن كمصريين منذ الأزل نستخدم تلك الكلمة كتعبير عن حالة النشوة التي تتملكك وأنت تمارس عملًا ما لدرجة أنك تنسى كل همومك ومشاكلك وتشعر بأنك قد أصبحت سلطانًا على الدنيا ومن فيها.

وهذا هو ما وجد الأهالي أنفسهم فيه منذ ما يقرب من نصف ساعة عندما بدأ الريس (حفني أحمد حسن) في الصعود على المنصة الخشبية داخل الصوان هو وفرقته من حملة المزامير والطبول والربابة.. استهل الليلة بمواله الشهير "كان ليا صاحب فاكره ونسانا" كنوع من الإحماء، ثم موال جديد لم يصدر في الإذاعة بعد لم يكن له تأثير قوي، لأن الناس أخذت تصيح في شبق (شفيقة ومتولي) عشرات المرات.

ضحك الريس (حفني) وهذا نادر الحدوث وقال بأنه سيفاجئهم في موال (شفيقة ومتولي) الليلة، فتقافز الناس من مجلسهم على الأرض ورجّت أصوات فرحتهم القرية كلها، ولم ينتبهوا إلى خارج الفراشة حيث وقف (زهير) و(هلال) ابنه بجانب (جمال) في موضع غير مرئي تقريبًا.

- دماغك حلوة يا ياد يا (جمال)، السنين الجاية ليلة الستر دي بتاعتك.

- أوامرك يا حاج.

- بس الريس (محمد طه) اتأخر ليه عن مجلس الكبارات.

- ولا يكون في بالك، هاتلاقيه داخل على المجلس كمان شوية.

أهل القرية يتغنون مع الموسيقى "يا متولي يا جرجاوي يا متولي" والريس (حفني) يمسك الميكروفون ويغني:

"يا جرجاوي يا متولي يا جرجاوي

جاى تاية أدور على متولي

وشعوري للعم.. تولى

وأديني هتكلم على متولي

كلام يشبة سلاح ماضي

من مؤلف على الورق ماضي

ودي حادثة في العهد الماضي"

صدقني حفلات (bts) الكورية لا تحمل كلّ هذا الجنون والحيوية، حتى إن (زهير) كان يدق الأرض بعصاه مع نهاية كل جملة من الموال حتى ظهر شيخ الخفر (زيدان) من خلف الحاج ومال على أذنه ببعض الكلمات، لم يغير (زهير) من ابتسامته ولم يظهر على وجهه أي رد فعل على ما سمع حتى إنه طلب من (جمال) أن يكمل إشراف على الليلة لأنه سيغيب قليلًا، غادر بعدها في خطوات سريعة بينما (زيدان) و(هلال) يهرولان بجانبه حتى وصلا للقصر ودخلاه.

في غرفة الصالون جلس (زهير) على أكبر المقاعد الذي صنع

خصيصًا ليناسب حجم هيبته ومؤخرته الضخمة وأخرج سيجارة من علبة سجائره وأشعها وهو يقول:

- (هلال) لف على أهل البيت وحرم عليهم الخروج من أوضهم، ولو فيه خدامين اقفل عليهم باب المطبخ بالمفتاح.

تحرك (هلال) للتنفيذ بينما جلس (زيدان) على مقعد قريب وهو يقول بغضب:

- قلتلك يا حاج (حمامة) ده مش مريحني.

- إنت هتشوقني ولا تدوقني، ما إنت لسّه قايلي بره (حمامة) عمل مصيبة وإني لازم أرجع البيت، خش في الموضوع.

- واحد من الحراسة على القصر جالي وقاللي إن (حمامة) عايز يدخل القصر ويستناك ضروري، جيتله جري ولاقيته سايق عربية كارو بحمار وواقف على البوابة بيتخانق مع رجالتي وعايز يدخل بالعربية الكارو جوه جنينة القصر.

- العربية كانت محملة حاجة؟

- كان فيها شوالين وكل شوال فيه راجل.. كلمة منّي على كلمة منه شدينا مع بعض، ولا عايز يسمع كلامي ولا عايز يقولي مين دول إلا لما تحضر بنفسك.

- هو فين دلوقت؟

- خليته يركن قريب من القصر في حتة ضلمة وسط الغيط القبلي.

- ابعتله يجي.

- والشوالين؟؟

- خليه يجيبهم.

تحرك (زيدان) للتنفيذ و(زهير) يفكر في تلك العلاقة الشائكة بين (حمامة) و(زيدان) الذي عامله الفترة السابقة بتعالٍ وقلة احترام مما جعل (حمامة) متمردًا يتحرك من تلقاء نفسه في أغلب الأوقات.

دخل (هلال) ليقطع حبل أفكاره فنظر له وقال بتثاقل:

- (زيدان) خايف من (حمامة).

- ليه يابا؟

- الغبي فاكر إنه ممكن ياخد مكانه، بيعامله وحش ويسخّني عليه.

سحب (هلال) منضدة صغيرة ووضع عليها مطفأة سجائر وقرّبها من والده ثم جلس على أقرب مقعد له وهو يقول:

- واللي يحل ليك المشكلة دي.

- لو عندك حل قول.

- (حمامة) بيرتاح في التعامل معايا، خليه يشتغل تحت إيدي وأنا هاكون تحت إيد (زيدان) في اللي يخص (حمامة).

- عايز تبقى مدير أعمال (حمامة) بيه.

ضحك (هلال) وقال بأدب:

- عايز أحل المشكل، (حمامة) ليه طريقة معينة في التعامل، هو محتاج اللي يحسسه إنه واحد من عيلتنا ومهم وليه رأي.

سحب (زهير) نفسًا طويلًا من السيجارة وشردَ ببصره وهو يقول:

- وفي نفس الوقت لازم يفضل حاسس إنه أقل مننا علشان يثبت إنه يستحق مكانه في العيلة طول عمره.

- أنا عارف ده يابا متشغلش بالك.

التفت له (زهير) بوجه جامد بلا تعبيرات كوجه المقامر حتى إن (هلال) شعر بعد فترة التحديق هذه بأن أباه يقرأ عقله الآن.. أنقذه من هذا الشعور دخول (زيدان) إلى القاعة وخلفه اثنان من رجاله يحملان البنادق على أكتافهما وخلفهما (حمامة) يخفي نصف وجهه بلثامه ويجر على الأرض بكل يد جوالًا من الخيش بحجم الإنسان.. بعد دخوله مباشرة أغلق الرجال باب القاعة ونزع (حمامة) اللثام عن وجهه ووقف بارد القسمات ينظر لزهير بينما (زيدان) يجلس وهو يشعل سيجارة في قلق.

- كل سنة وحضرتك طيب يا حاج ويعود عليك ليلة الستر بالخير.

تكلف (زهير) في جلسته وادعى الاسترخاء وهو يقول:

- وإنت طيب، اتكلم.

- بلغني إمبارح من عين ليا على ولاد (خفاجى) في (باسوس) إنهم ناويين على حاجة يعملوها يبوظوا بيها ليلة سيدي (المدبوح)، دورت ومعرفتش ناويين على إيه، لكن عرفت إنهم دفعوا فلوس لاتنين من (شلقان)، وقلت احتياطي أجيبهم قبل ما يلحقوا يعملوا حاجة.

أنهى جملته وبكل بساطة فك الجوال الأول فظهر من داخله شاب

في نهاية العشرينيات مشعث الرأس وجهه يمتلئ بالكدمات والدماء متجلطة على رأسه، محشور بفمه قطعة قماش ويداه وقدماه مكبلتان خلفه بحبل غليظ.

فك الجوال الآخر فظهر شاب بنفس التفاصيل تقريبًا إلا أن عينه اليسرى كانت منتفخة من أثر الضرب لدرجة أنها مغلقة، بحث (حمامة) في أحد الجوالين حتى أخرج من أحدهما كيسًا عريضًا من المشمع مطويًا على نفسه أكثر من مرة، قام بفضه وفرشه على الأرض بالقرب من (زهير) ثم عاد ليقف ويشير للرجال المكبلة:

- ده (حسني) وده أخوه (عبد الباري)، متسجلين خطر في مديرية أمن (القناطر) وليهم سابقتين سرقة، اختار واحد فيهم يا حاج علشان أدبحه قدامك والتاني هايتكلم على طول بدل ما يحصل أخوه.

انتفض الشقيقان وحاولا الصراخ فخرجت أصواتهما كخوار البقرة المريضة، كان (زيدان) قد اتسعت عيناه من المفاجأة و(زهير) يطفئ سيجارته ويسند رأسه على يديه وكأنه يستمع إلى إحدى قنوات الأطفال التلفزيونية التي تعرض فيلمًا وثائقيًا عن دورة حياة سمكة البلطي.

تجمد المشهد على هذا الوضع اللهم إلا من صوت خوار المقيدين حتى قال (زهير) بعد فترة:

- إنت شايف إن استخدام العنف حل مثالي مع الاتنين دول؟

- آه.

- والدم مش هايطرطش ويبهدل الصالون؟؟

- أنا فارش المشمع علشان كده، أنا هانحر رقبته بسرعة لحد ما أفصلها عن الجتة وأقفل على الرقبة بالمشمع بسرعة لحد ما الدم يتصفى، عملتها كتير قبل كده.

رفع (زهير) يده اليمنى وأشار بالسبابة ناحية الشقيقين وهو يحرك الإصبع بينهما ويقول:

- حادي بادي كرنب زبادي شالوا حطوا وكله على دي.. يا كتكوت روح السوق خدلك بيضة من الصندوق إوعى تاكلها تطق.. تموت.

ووقف إصبعه عند أحد الرجلين الذي حاول فك وثاقه برعب حقيقي ومثانته تخونه وتغرق ملابسه بالبول و(حمامة) يمسك به من ملابسه ويجره إلى المشمع وهو يحكمه حوله، ثم أخرج من بين طيات ملابسه خنجرًا قصيرًا، قال (زهير):

- قبل ما تدبحه فك بُقّه علشان أسمعه بينطق الشهادة.

أخرج المنديل المحشور في فمه فصرخ الرجل قائلًا وسط سعاله:

- هقول.. هقول كل حاجة والنبي ما تموّتنيش.

- استنى يا (حمامة) متدبحش دلوقت، كنت عايز تقول إيه يا ابني؟

وسط سعال الرجل وبكائه أخبره بأنه أخذ 100 جنيه هو وشقيقه من أحد الرجال مقابل أن يحرقا حظائر المواشي الخاصة بأولاد (الصولي) في أول القرية والأراضي الزراعية في مدخل القرية وإن

أمكن بعض المنازل القليلة التي لن يهتم بها أحد.. وكل هذا أثناء انشغال أهل القرية بليلة (نوح المذبوح).

- متعرفش مين اللي إدالك الفلوس؟

- لا والله، والفلوس جوه البوك بتاعي في الصديري زي ما هي، خدها يا كبير، إحنا مش عايزيين حاجة، اعفي عنا ونعيش خدامينكم.

أشعل (زهير) سيجارة وهو يفكر ثم قال:

- أنا هاعفي عنكم.. وهاسيبكم ترجعوا لأهلكم، بس هاتنفذوا اللي هقول عليه.

- اللي تقوله يمشي على رقابنا.

- بعد يوم ولّا اتنين هايجيلكم نفس الراجل اللي إداكم الفلوس علشان يسأل ليه منفذتوش الاتفاق.. عايزكم تقتلوه وتسيبوا جثته على مدخل (باسوس) قبل الفجر.

كأن الرجل لم يصدق ما يسمعه فهو لم يجرب القتل من قبل، والمصيبة أنه سيقتل رجلًا من عائلة ربما كانت ذات شأن في (باسوس) ويصبح مطاردًا منهم.

- ها يابني متعطلنيش ورايا ليلة.

- حاضر يا كبير .

- عارفين مين ده؟

وأشار إلى (حمامة) فنظر له الرجل خائفًا وهو يهز رأسه نفيًا فقال

(زهير):

- ده اللي هايراقبكم اليومين دول لحد ما تنفذوا المطلوب، ومش محتاج أقول هايعمل فيكم إيه انتوا وأهاليكم لو اللي قُلته متنفذش.

هزَّ الرجل رأسه بالإيجاب وهو يقول:

- هاننفذ يا كبير ولو كانت آخر حاجة نعملها في حياتنا.

نظر (زهير) لزيدان وقال:

- الاتنين دول تاخدوهم يستحموا في حتة أمان وتدوهم هدوم جديدة، وتاخدوهم على الصوان علشان ياخدوا النفحة وياكلوا وينبسطوا ويسمعوا الريس (حفني) وبعديها يروحوا على بيتهم.

سحب الحراس الاثنين سحبًا لخارج القاعة و(حمامة) يعيد الخنجر لداخل ملابسه حتى أخليت القاعة وظل (زيدان) جالسًا و(هلال) بجانبه، أشعل (زهير) سيجارة جديدة وقال بطبقة صوت أعلى من الطبيعي وأشرس من اللازم:

- إنت اتصرفت من دماغك ومن غير ما ترجع لزيدان زي ما أمرتك قبل سابق.. مظبوط؟

- مظبوط.

- أنا كنت مكبرك ومخلي السكة مفتوحة بينك وبين شيخ الغفر، لكن من اليوم إنت هتكون تحت إيد (هلال) ابني اللي هيكون هو كمان تحت إيد (زيدان).

- العفو يا حاج (هلال) ده ابني.

- الغلط كان عندي وهاتحمله أنا وابني، اسمع يا (حمامة).. مش هاتخطي خطوة إلا بإذن من (هلال).

ثم نظر لهلال وقال:

- وإنت يالا، كل اللي هايخص (حمامة) هتاخد أوامرك فيه من عمك (زيدان) وإنت المسؤول والعقاب هايقع عليك لو حصلت غلطة واحدة.

ثم نظر لزيدان وأكمل:

- (زيدان)، ابني لو غلط وهو تحت إيدك وإنت اتهاونت معاه أنا مش هارحمك، هيكون هو همزة الوصل بينك وبين (حمامة) لحد ما نشوف (حمامة) آخرته إيه.

- أمرك يا حاج.

- دلوقت يا (هلال) قوم اقف جنب (حمامة).

نهض (هلال) ينفذ الأمر و(زهير) يمد يده داخل جلبابه ويُخرج مسدسه الشخصي وهو يقول:

- توكل على الله إنت يا (زيدان) اسبقني على قعدة كبارات البلد عقبال ما أخلص حاجة كده.

تعلقت عينا (زيدان) بالمسدس قلقًا وهو يغادر القاعة ويغلق بابها خلفه، وضع (زهير) المسدس بجانبه على المنضدة وأطفأ السيجارة وهو يقول:

- طبعًا إنت قُلت تعمل العملية بتاعة الليلة دي من غير ما تقول

لزيدان علشان مايأخدش هو فضلها وينسبها لنفسه، مش كده برضو؟؟

ببساطة هز (حمامة) رأسه بالإيجاب فأكمل (زهير) كلامه بنبرة هادئة:

- أنا بحب فيك صراحتك.. واللي أنا عارف في نفس الوقت إنها ثقة وعدم خوف من حد.. حتى مني أنا، وده كويس، أنا مش عايزك تخاف مني، بس لو كان حد غيرك عمل كده وصغّر حد من عيلتي قدامي مكنتش هارحمه، بس أنا مش عايزك خدام عندنا، أنا عايزك من عيلتي، علشان كده سلمتك لهلال ونفسي متصغروش قدامي لأني كده هازعل منك بجد ومش هاشوفك أكتر من خدام وغلط.. وأنا بعرف أتخلص من الخدامين كويس.. متفقين يا بني؟؟

- متفقين.

ردّ (حمامة) بالكلمة بهدوء فقال (هلال):

- تسمحلي آخد (حمامة) شوية علشان عاوزه في موضوع ومش هاتأخر على قعدة الكبارات يابا.

- روح يابني ربنا يعينكوا.

وضع (هلال) يده على كتف (حمامة) بنوع من الود وهو يوجهه ناحية باب القاعة، إلا أن (زهير) سأل فجأة:

- (حمامة)، إنت كنت بتخوف العيلين دول علشان يتكلموا ولّا كنت هاتدبح واحد فيهم بجد؟

- كنت هادبح طبعًا.

لم يستطع (زهير) منع نفسه من الابتسام له بإعجاب و(هلال) يصطحبه للخارج حتى خرجا من بوابة القصر ثم غادرا البوابة الضخمة التي تحيط بالحديقة واتجها إلى أرض زراعية وراء القصر تغرق في الظلام حتى توقفا عند شجرة عجوز بجوار مجرى مائي رفيع وجلس (هلال) وهو يقول:

- تعالى نريح دماغنا من الدوشة بتاعة ليلة الستر.

جلس (حمامة) بجانبه فأخرج (هلال) من جيبه سيجارة حشيش ضخمة وأشعلها ثم أعطاها لحمامة الذي قال بأدب:

- مليش في الدخان.

- دي مش سجاير دي حشيش، إيه عمرك ما شربته؟

- لا.

- طب جرب نَفَسين وادعيلي.

- متشكر يا ابن عمي.

أصر (هلال) كحبيبتك أو زوجتك حين تنوي تفتيش هاتفك المحمول في لحظة صفاء.. أخذ (حمامة) السيجارة وسحب نفسًا سعل بسببه، تبعه بنَفَس آخر زاد سعاله، حتى وصل للنَفَس الثالث امتصت رئته الدخان، أشعل (هلال) سيجارة أخرى وسحب أنفاسها وهو يقول:

- عجبتني الحركة اللي عملتها الليلة دي، أبويا كمان استجدعك

عليها، بس هو مبيحبش يبين اللي جواه، متعرفش هو بيحبك ولّا بيكرهك، ناويلك على خير ولّا شر، بس أنا ابنه وعارفه، هو حبّك خلاص علشان كده خلاك تبقى معايا.

بعين ثاقبة نظر له (حمامة) كأنه لا يصدق فابتسم ثغر (هلال) وقال بأريحية:

- والله يا ابني، أبويا مكنش عايز عم (زيدان) يحاول يلعب معاك أو حتى يخلص عليك، علشان كده حطني بينكم، لو (زيدان) حاول يعمل حاجة يبقى بيهز صورتي في العيلة وده أبويا مش هايسامح فيه بجد.

ثم نظر للأراضي الزراعية المظلمة وقال:

- أصل أنا اللي هدير العيلة بعد وفاته بعد عمر طويل إن شاء الله، بص أنا نفسي أبويا ما يموتش وأنا عايش، لأن ساعتها عيلتنا هاتاكل في بعض لحد ما يتسلطن واحد منها، والمفروض أكون أنا.. بس محدش هايرضى بده.

نظر لحمامة وسأل فجأة:

- إلا إنت منين؟

- من (باسوس).

- غريبة، أمّال ما سمعتش عنك قبل كده ازاي؟

كانت أعصاب (حمامة) قد أخذت في الارتخاء وهو ينوي الإجابة على السؤال لكن (هلال) قال فجأة بحماسة:

- نسيت أقولك.. أبويا خلاص جهزلك بيتك في الحوض الشرقي من أرضنا اللي في (عزبة إبراهيم)، هي بَره أبو الغيط شوية لكن حتة أمان، اصبر عليا أسبوع واحد وهادخلك فيها الكهربا.. دا بيت مبني طوب أحمر. ومتأسسله كهربا وصرف صحي، أنا هاركبلك قاعدة حمام أفرنجي بسافون وشطاف، هاتنبسط أوي.

شدّ (هلال) أنفاسًا جديدة من سيجارة الحشيش وقال:

- إنت كنت قُلتلي إنك من (باسوس)؟

- آه.

- اتولدت فيها؟؟

- آه.. أبويا مات بعد ما اتولدت بكام يوم، وأمي ماتت غرقانة في الترعة وهي بتغسل المواعين.

- الله يرحمها.

أسند (حمامة) ظهره للشجرة وشرد بنظره بعيدًا وهو يقول:

- كان ليا أخ أكبر مني، عبيط.. العيال بيزفوه وهو ماشي، بس هو اشتغل تملي في أرض ولاد (الزهراوي)، يخلوه يعمل أي حاجة في أي وقت ومقابل ده خلونا عايشيين في بيت 3 متر في 3 متر من الخوص من غير سقف، وكل يوم لينا أكلة واحدة.

- كنتوا بتاكلوا إيه؟

- جبنة قديمة وعيش.. ولو كان ربنا بيحبنا يبقى جبنة قديمة وعيش وخيار وخس.

ابتسم (حمامة) وكأن وجهه يتشقق وتتغير ملامحه وعينيه تنظر للامكان يتخيل تناول الطعام.

- إيه نفسك الأيام دي ترجع؟

- آه.

- كان اسمه إيه أخوك؟

- (حسن).

- هو فين دلوقت؟

- اتقتل.

قالها بنفس الابتسامة على وجهه و(هلال) يلقي بعقب السيجارة بعيدًا ووجهه يتحفز وهو يسأله:

- مين اللي عمل كده؟

- مش عارف.. أنا كان عندي 7 سنين، و(حسن) كان عنده يجي 16 سنة أو 18، انضرب بشومة على راسه لحد ما عضم دماغه اتكسر، وبقت راسه زي الورقة المتكرمشة.. ولا حد عرف مين قتله ولا حد دوّر، وولاد (الزهراوي) طردوني من الأرض علشان سني صغير وما أقدرش على الشغل، وسرحت على أرض الله أشحت الأكل.

- رحت فين؟

- رحت مطرح ما رجلي ودتني، (شبرا) (إمبابة) (السيدة زينب) أي حتة أنام على الأرض وأدور على الأكل، لحد ما جه واحد أخدني ورباني وعلمني النشل.

- أمّال إيه اللي دخلك في سكة القتل؟

ألقى (حمامة) عقب السيجارة الذي انطفأ من تلقاء نفسه منذ قليل وحافظ على ابتسامته وهو يجيب:

- كلها سكك بتدخل على بعضها.

- طب رجعت (باسوس) ليه؟

- بلدي.. والشغل فيها حلو، والفلوس كتيرة.

- مين علّمك ضرب النار؟

اختفت الابتسامة من وجه (حمامة) وهو يقول بتثاقل:

- إنت مش المفروض تروح للحاج دلوقت؟

كانت هذه العبارة بمثابة النهاية الرسمية للمحادثة ومحاولة جمع المعلومات من قبل (هلال) الذي نهض وقال بنفس التثاقل:

- تعالى الأول نروح ناكل حاجة من النفحة، أنا جعت وتلاقيك زيي، وبعديها نسمع شوية مواويل من الريس (حفني) وندخل نسمع الريس (محمد طه).

اعتذر (حمامة) لكن (هلال) جذبه بعشم ليتجها إلى صوان أهل البلد وهو يقول:

- يلّا يا جدع علشان تاخد بركة سيدك (نوح المدبوح) في ليلة ستره.

***

(4)

لعنة الله على المماليك، هكذا صرخ (نوح) داخل عقله وهو يركب بجانب العربجي على العربة الكارو، المماليك يقفون على جانبي الطريق على امتداد البصر، حتى الحمار الذي يجر العربة شعر بالقلق وأخذ في النهيق معربًا عن رفضه لدخول هذه القرية.

حين كان (نوح) يشير للعربجي بأن يدخل يمينًا أو يسارًا ليتجه لداره التي حفظها بالتقريب كان يجد المماليك يتراصون على هذه الطرق، غبي من يعتقدها صدفة، في أحد الطرق لم يجد المماليك فاستراح قلبه، لكنه وجد رجالًا يرتدون الجلباب المصري وملامحهم هي أقرب إلى ملامحه يقفون بنفس طريقة المماليك على جانبي الطريق صانعين ممرًا له وكل منهم يستند على نبوت_عصا غليظة_ وملابسه أقرب للفقر والبهدلة، رفع (نوح) يده وابتسم وهو يلقي عليهم السلام فلم يردوا عليه وظلت وجوههم كالحجر، كانوا باختصار النسخة الهاي كوبي من المماليك لكن بصناعة محلية.

ظلّ الحال هكذا حتى وصل العربجي إلى دار (نوح) والذي وقف عندها الرجال بالجلابيب والنبابيت وبجانبهم مماليك على صهوة أحصنتهم المزينة ينتظرون وصوله تقريبًا.

نزل صاحبنا خائفًا ناهيك عن العربجي الذي مات رعبًا بالتأكيد، وتقدّم إلى باب منزله حين اعترضه أحد الرجال الذي كان طويل الجسد كعمود الإنارة، عريض الكتفين كالثور، بوجه قبيح وعين يسرى عليها سحابة بيضاء، هذا الشيء كان في الأربعينيات من العمر لكن صحته كصحة عشرة شباب في العشرين، قال بجفاء:

- إنت (نوح النساخ)؟

- آه، بس أنا لقبي ناسخ مش نساخ.

- إنت هتستظرف يا روح أمك.

نعم هذه الشتائم وتلك اللهجة كانت موجودة في هذا الوقت، و(نوح) لم يبتلع تلك الإهانة بل تقلب وجهه وهو يتجه ناحية الرجل كأنه سيهاجمه إلا أن صوتًا أتى من ناحية باب الدار الذي انفتح وقال:

- إنت إزاي يا حيوان يا بجم تشتم الشيخ (نوح).

كان القائل رجلًا في نهاية الثلاثين من عمره متوسط الطول قوي الجسد له عين حادة بارزة ووجه جميل القسمات بلحية قصيرة مهذبة بلون الحناء، إنه الأمير (أيوب الأمرد) بملابسه الشبه ملكية وعمامة رأسه المزدانة بالأحجار الكريمة والألماس وحلي الذهب، قال عبارته بعد أن فتح باب المنزل وخرج لهم فابتعد الرجال والمماليك مفسحين له الطريق، بينما الحيوان الذي أهان (نوح) نكس رأسه في الأرض وردّد بخوف حقيقي:

- السماح يا مولانا، عبدك وغلط.

- اطلب السماح من السيد (نوح) والأمر بين إيديه، يأدّبك أو يعفي عنك.

كان يتكلم بلهجة مصرية صحيحة وهذا ليس جديدًا على كثير من المماليك المختلطين بعوام المصريين أو الذين امتهنوا حرفًا غير

الحرب، لكن هؤلاء المماليك لم يصعدوا ليكونوا أمراء وخاصة في هذا العصر.

هجم الرجل على يد (نوح) يقبلها وهذا الأخير يسحبها غاضبًا حين اقترب (أيوب) أكثر ووضع يده على رأس الرجل وهو يقول:

- ده (رجب) من عيلة (الصولي)، واحد من رجالتنا هنا في البلد، لو إنت مش عايز تسامحه على اللي قاله يموت هنا حالًا.

ثم نظر لأحد المماليك على الجياد، وكلّمه بلغة غريبة على مسامع المصريين لكن (نوح) ميّز أنها إحدى اللهجات العثمانلي والتقط منها كلمة (استعد) وكلمة (اقتله)، نزل المملوك من على صهوة جواده فصرخ (نوح) كالمجنون:

- سامحته سامحته لا داعي للقتل.

أشار (أيوب) للمملوك بيده ليتوقف ونظر لنوح وقال بالعثمانلية:

- أرى أنك تفهم اللغات التركية.

ردّ عليه (نوح) باللهجة المصرية وهو يبتلع ريقه:

- أنا فاهم كام كلمة من اللهجة العثمانية اللي إنت بتتكلم بيها، لكن أنا باقرأ وأنسخ باللغة العثمانلي الرسمية بتاعت الدواوين والكتابة، يعني مش كويس في الكلام بيها أو في لهجاتها.

ابتسم وردّ عليه باللهجة المصرية:

- وماله، دي حاجة تفرح، أهلًا بيك في بلدنا (أبو الغيط)، أنا الأمير (أيوب الأمرد).. أمير إقطاع وأهوار مولانا الأمير المعظم (إسماعيل)

بك (السكران).

علم (نوح) أن تلك الألقاب شرفية لا أكثر لأنها كانت للأمراء حول سلاطين المماليك القدامى، أما الآن فألقاب الأمراء أصبحت كما نقول في مصر (سمك لبن تمر هندي)، أي إن كل أمير يطلق على نفسه ما يشاء.

- مين الأمير (إسماعيل) بك ده؟

- ده اللي معاه إقطاع (أبو الغيط) ونواحيها وقرى (العرب) ونواحيها، يعني كبير الناحية والسيد الأجل هنا.. مفهوم يا شيخ (نوح)؟

بتفهم هزّ رأسه وهو يرد:

- مفهوم يا (أيوب) بك.

ابتسم (أيوب) وقال وهو يتراجع ناحية فرس بلا قائد:

- سمعنا عنك كتير من الأمير (بركن الأعز)، تعرفه طبعًا.

- طبعًا، كان معاه إقطاع أراضي في (إمبابة)، وأرضي كانت فيهم.

- أنار الله قلبك.. قال عليك إنك طيب.. ومش بتاع مشاكل، وهاتفضل في حالك، وكمان باعتلك السلام وبيقولك متخافش على أرضك.

وقعت على (نوح) تلك العبارة كالنار على الخشب، أشعلت قلبه من التهديد والمهانة وتذكيره بأرضه التي تركها للأمير (بركن)، راقب (أيوب) يمتطي الجواد باحترافية ويعطيه نظرة أخيرة يقول بعدها:

- أهلًا بيك تاني في بلدنا.

نكز حصانه بكعبه فتهادى الجواد وهو يتمشى مبتعدًا وبقية فرسان المماليك يتبعوه و(رجب) يشير لبقية الرجال المصريين بتتبعه وهو يهرول ليلحق بالأحصنة في مشهد ذكر (نوح) بقطيع الخرفان الذي يجري محاولًا اللحاق بالراعي.

- دا إنت هايطلع عين اللي خلفوك.

نظر (نوح) خلفه ليتأكد ممن قال تلك العبارة فوجده العربجي ذو الأعين المتسعة والذي تنحنح وسعل وقال بسرعة محرجًا:

- لا مؤاخذة.. أقصد هايطلع عين اللي خلفوا حضرتك يا مولانا، أنا مفهمتش حاجة بس اللي اسمه الأمير (أيوب الأقرع) ده هـ...

- (أيوب الأمرد).

- أيوه (أيوب الأمرد) ده ناويلك على نية سودا.

***

انفتحت بوابة القصر بواسطة المماليك الحرس ودخل إليها (أيوب) على جواده يتبعه بقية المماليك والذين توقفوا عند حدودهم المسموح بها في حدائق القصر بينما أكمل (أيوب) بجواده حتى نزل من عليه وربطه في حلقة معدنية بأحد الأعمدة ودخل من باب القصر الداخلي.

خارج القصر كانت مبانيه لا تدل على ما داخله من تحف وقناديل ملونة ونجف من النحاس صنعت الواحدة منها في عام كامل

على يد أمهر الصناع بشارع النحاسين، الفخامة والذوق وتوزيع الألوان سيبهر حتمًا أيّ رجل من العامة مثلي أو مثلكم، إن لم يصبنا بالجنون، كأنك دخلت لمتحف تاريخي جمعت فيه كل ما صنعه فن الأرابيسك والصدف والنحاس بمصر في هذا العصر.. حتى رائحة البخور لا تنقطع عن قاعات القصر.

خطا (أيوب) خطوات واسعة وصعد درجات السلم الداخلي والحراس من الداخل ينتصبون عند مروره وهم ينادون على اسمه بنوعٍ من التبجيل، الطابق الأعلى كان الحرملك؛ أي المناطق التي يُحرّم على الزائر الوصول لها وتخصص لأهل المنزل، طبعًا (أيوب) مسموح له التجول بحرية، صعد إلى الطابق الثاني الخالي من الحراسة ودخل لإحدى القاعات التي زينت بالتحف والأسلحة النارية والخناجر والسيوف، وفي وسطها مكتب جلس خلفه رجل في الخمسين بشارب مبالغ فيه ولحية طويلة مهذبة ومصبوغة بالأسود، عيون الرجل ناعسة وبشرته بيضاء مشربة بحمرة دائمة كأنه يعاني من خطبٍ ما في ضغط دمه، جسده متناسق إلا بطنه الضخمة التي لا تناسب هيئته وكأنها ظهرت فجأة كالدمل.

توقف (أيوب) أمامه وخاطبه بلغة غير العربية أو التركية، كانت لغة ريفية لإحدى القبائل الجرمانية المنعزلة، ولأن الاثنين كانا من نفس القبيلة فقد كانت تلك هي لغتهما الخاصة التي يتحدثان بها بعيد عن البقية:

- كلُّ ما اتفقنا عليه تم يا (إسماعيل) بك.

(إسماعيل) المشغول بالأوراق أمامه يراجع حساباتها رفع رأسه

ببطءٍ وقال:

- فيه تلاعب في حسابات أراضي قرية (عرب شركس)، ابعت جاويش يحقق معاهم هناك

جلس (أيوب) بأريحية على المقعد أمام المكتب وخلع عمامته وهو يقول:

- هاروح بنفسي علشان أراجع.

- قولي، (نوح) خاف منك؟

- هو كان خايف بس بيحاول يخبي.

- تفتكر كفاية زيارتك ليه؟ ولّا نجيبه هنا في السجن يتربى كام يوم؟

- لا لا، حكايته سهلة، إحنا ممكن نستفيد منه ويبقى شيخ الجامع بتاعك ونعمل كتاب باسمك ونشغله فيه.

بابتسامة ساخرة قال (إسماعيل):

- أتحداك إن (نوح) هايبقى مشكلة.

- رؤيتنا مختلفة لكن مصلحتنا واحدة.

- اللي زي (نوح) ده روحه قلقانة، تايه زي المركب في العاصفة، بيدور على بر، ولو لقى البر ورسي عليه.

لم يكمل (إسماعيل) كلامه وشرد بعينيه وهو يخرج البيبة (عصا التدخين) من تحت مكتبه وتبغها مشتعل مما يدل على أنه كان

يدخنها منذ قليل، سحب نفسًا طويلًا أشعل حجر البيبة التي تشبه البايب لكن بعصا أزيد من المتر تقريبًا وزينت بزخارف ماء الذهب ورصعت بالأحجار النفيسة.

- يا (إسماعيل) إنت عارف إني واثق في حكمك، لكني واثق برضو إنك بتثق في حكمي، وأنا هاريحك دلوقت.

قالها ونهض يرتدي عمامته، خرج من باب القاعة ونزل السلم حتى قابل أوّل حارس في طريقه فخاطبه بصوت هامس، هزّ الحارس رأسه بأدبٍ وجرى خارج القصر حتى مرّ على الحديقة وفتحت له البوابات الخارجية، هناك بعد القصر ببضعة أمتار جلس (رجب) على أحجار وضعت هناك خصيصًا له هو وعائلته.

التعب والإرهاق على وجوههم والعرق يغمر أجسادهم بعد الهرولة الطويلة التي قاموا بها منذ قليل، اقترب الحارس منهم فنادى أُحد الرجال:

- إيه ده، ده (قاسم الحوفي).. والنبي شوية ميه يا خشداش.

توقف الحارس ونظر للشاب الذي طلب المياه ثم ضحك وهو يقول:

- لو البِك سمعك بتندهلي كده كان فصل راسك عن جتتك.

ضحك (رجب) وهو يقول:

- فيها إيه يا (قاسم) لما يقولك يا خشداش، ما كلنا اخوات من (آدم) و(حوا).

مشي (قاسم) حتى وقف أمام (رجب) وقال:

- ماتهزروش تاني بالكلمة دي، خشداش ده لما يكون أنا وإنت اتربينا تحت إيد أستاذ واحد، وساعتها نفدي بعض بحياتنا، دي حاجة أهم من صلة الدم عندكم.

- بس إحنا عارفين دمنا وأصلنا وبلدنا.

فهم الحارس أن (رجب) يلمح إلى أن أصل المماليك غير معروف النسب فقال وهو يضحك:

- وإحنا المماليك عارفين مستقبلنا في بلدكم، أسياد عليكم

- والنبي إنت لا مملوك ولا حاجة، إنت بتكلم بلدي أحسن مننا كُلّنا، إلا إنت اسمك (الحوفي) ليه؟

قالها (رجب) محاولًا تخفيف حدة التوتر التي كادت أن تبدأ، لكن (قاسم) حافظ على ابتسامته وهو يرد:

- دا اسم التاجر اللي اشتراني، ساعات بينسبونا ليه، ما إنت عارف يا ريس (رجب)، ملناش نسب عندكم.

- طب والله يا (قاسم) لو أستاذك (إسماعيل) بك يرضى أنا أجوّزك بنتي.

- هاتجوز بنتك لمملوك، وسعت منك شوية.

- هاتلي موافقة (إسماعيل) بك وأبقى حُرمة بضفاير لو مجوزتهالكش.

كان (قاسم) من المماليك القلائل في القرية الذي يتحدث باللهجة

المصرية بطلاقة، وفوق هذا كان من القلة التي تتباسط مع (رجب) وعائلته فكان هذا الأخير يحاول دائمًا مدّ أواصر الود مع هؤلاء حتى ولو كانوا مازالوا مماليك بلا لحية كقاسم، أي إن أستاذه لم يعتقه بعد ويكلفه بأعمال مهمة.

- (أيوب) بك بيقولك تراقب من النهارده (نوح) في كل مكان من غير ما يدرى بيكم، وكل أسبوع تبلغه شخصيًا بنتيجة المراقبة.

- إنت تؤمر يا (قاسم).

- لا يا (رجب)، أنا عبد مأمور زيك تمام، لحد ما أشوف المستقبل مخبي إيه.

انصرف لكنه صاح بعدما ابتعد قليلًا قائلًا "هاخلي الخشداشية اللي بجد يجيبولكم ميه كمان شوية"

بعدما ابتعد قال أحد رجال (الصولي):

- مملوك من غير أصل.

التفت له (رجب) وبصق عليه ثم قال بغضب:

- بتشتمه من ضهره يا عويل.. الواد بيعاملنا كويس، يبقى أكيد أصله طيب.

ربت أحد الشباب على كتف (رجب) والذي كان (سليم) شقيقه الأصغر وجلس بجانبه قائلًا:

- إيه حكاية (نوح) ده كمان؟

- علمي علمك، أدينا هنراقب ونشوف، دي شغلانتك من دلوقت،

اختار 5 رجالة تانيين وبدلوا عليه في كل مكان وبليل بلغني باللي شفتوه.

- حاجة كده في قلبي يا أخي مش مخلياني أتقبل الراجل ده.

- وغلاوتك ولا أنا، شكله راجل (........)

سأحذف أنا تلك السبّة منه لأن (رجب) هذا مجرد (........).

***

انتهى (نوح) أخيرًا من نقل كافة صناديقه وأثاثه إلى داخل المنزل بمساعدة العربجي المتشائم، كان يحرك الأثاث ويفرشه وهو يردد بصوت عالٍ:

- سيف المعز وذهبه.. المماليك بيهددوني.

رددها كثيرًا وعقله يجبره على إعادة الأحداث التي خاضها منذ قليل، فكّر في أنه كالمستجير من الرمضاء بالنار، حاكم يحكم القرية التي هرب إليها اتقاءً لشر فتوة مجنون، فيكون الحاكم من أمراء المماليك الذي هرب منهم أيام معيشته في (إمبابة).

ابتسم لخاطر خطر له، يهرب من قدره إلى قدره، ربما كان قدره بجوار الظلم، طرقات على باب داره جعلته يرتعد لثانية قبل أن يستعيد ثقته وهو يسأل عن الطارق.

- افتح يا شيخ (نوح)، أنا (حمزة).

خاطب (نوح) نفسه بصوت خافت قائلًا:

- يعني (حمزة بن عبد المطلب) رضي الله عنه يا خي، ما تقول إنت

مين؟

فتح الباب فرأى رجلًا في نهاية الثلاثينيات من العمر أو بداية الأربعين على أقصى تقدير، يرتدي جلبابًا أخضر وعباءة زرقاء وكأنه ليس من أهل القرية الذين يستغنون عن العباءة والحزام معظم الوقت، الأغرب أنه يحمل على رأسه صينية دائرية كبيرة من النحاس عليها أطباق طعام ومغطاه بملاءة بيضاء.

- نوّرت بلدك وبلد جدودك يا شيخ (نوح).

ابتسم وهو يفسح له الطريق ليدخل ويضع الصينية على الأرض قائلًا:

- دي حاجة كده من فضلة خيرك مؤقتًا علشان أكيد مش هاتلحق تجهز أكل.

كشف (حمزة) الملاءة عن أطباق من الأرز وطاجنين من الخضر وفي كلٍّ منهما قطعتان من اللحم ونصف فرخة محمر في السمن داخل طبق والكثير من أرغفة خبز البتاو المصري، شهق (نوح) وقال خجلًا:

- دي وليمة، لمين الأكل ده كله؟

- ليك يا (شيخ) ولو اتبقى حاجة حوشها للعشا، بألف هنا وشفا على قلبك.

مدّ (نوح) يده لحمزة مصافحًا فالتقطها هذا الأخير بسرعة:

- أنا أخوك (نوح الناسخ).

- وأنا (حمزة بن عبد الفضيل السباك)، من البلد هنا وعندي مسبك صغير في (الخرقانية).

في هذا العصر كانت مهنة السباك هي التخصص في سبك المعادن وصبها على أشكال محددة ولم تكن تتعلق بالصرف الصحي مثل هذه الأيام.. بالمناسبة حلمت في طفولتي أن أصير سباكًا لكني لم أفلح.

- تقصد القرية اللي جنبينا واسمها (الخاقانية).

- أيوة يا شيخ، أنا كمان شغال في بنا البيوت وعندي رجالة شغالة تحت إيدي بنرمي أساس البيت اللي بالطوب الصخري ونرفع حيطان ونرمي السقف كمان.

- ماشاء الله ربنا يزيد ويبارك.

- ما هو كله من خيرك وخير أبوك.

- العفو يا سيدنا، انت بتجامل كده ليه بس.

- دي الحقيقة، الكرم اللي ربنا من عليا بيه ده من خير والدك عليا.

- أخشى إني مش فاهم.

- كل إنت بس وارتاح وأجيلك يوم تاني ونحكي.

- أنا مش هاكل ده كله لوحدي، جاورني الزاد واحكيلي.

فكر (حمزة) قليلًا ثم وافق فجلس الاثنان على الأرض حول الصينية و(حمزة) يقطع الخبز ويناوله لنوح الذي سأله:

- احكي يا سيد (حمزة) أنا سامعك.

تناول (حمزة) لقيمات الطعام وبدأ يحكي عن والد (نوح) الشيخ (نور الدين) والذي كان يزور القرية من وقت لآخر ليصل الود والرحم بأهلها، وعن صداقته الوطيدة بوالد (حمزة) الذي مات بهجمة من هجمات الطاعون وترك وراءه (حمزة) وفتاتين وأرملة لا تعلم كيف تجد قوت عيالها، فتكفل هو بهم، يرسل لهم مبلغًا من النقود كل شهر يكفيهم الحوجة مقابل تعليم أولادها القرآن كاملًا ومبادئ الكتابة والحساب، ثم ألحق (حمزة) نفسه بإحدى معلمين السباكة ليتدرب تحت يديه بالقرب من قرية (عرب شلقان)، واستمرت الشهرية تأتيهم على يد رسول حتى بعد أن شبّ (حمزة) واستطاع الاستقلال بدكان صغير وافتتحه ليباشر عمله الخاص.

إلا أن النقود انقطعت فجأة فاعتقد (حمزة) أن الشيخ (نور الدين) وقع في ضائقة مالية، حاول البحث عنه ليعرض مساعدته لكنه فشل لأن عنوانه غير معروف لأهل القرية، بعد سنوات علم بموته وبعنوانه أخيرًا في (إمبابة) لكن عند زيارته لم يجد لنوح أثرًا وعجزَ عن الاستدلال على عنوانه الجديد.

- وربنا كرم من وسع وجوزت أخواتي واتجوزت بعدهم وفضل جميل والدك ربنا يجمعنا بيه على خير في رقبتي ورقبتي عيالي.

شعر (نوح) بالقشعريرة تغزو جسده فرحًا طوال حديث (حمزة) عن والده، كأنه يراه الآن أمامه، توقف عن تناول الطعام ورفع رأسه للأعلى قائلًا:

- الفاتحة لروحه.

رفع (حمزة) يديه الملوثتين بالطعام وقرأ الفاتحة معه، ثم تذكّر شيئًا فقال بسرعة:

- قولي يا شيخ (نوح) انت بتجيب الميه منين.

- هو مش فيه سقا بيعدي يبيع الميه هنا؟؟

ابتسم (حمزة) وهو يمسح يديه من بقايا الطعام في الملاءة:

- لا يا شيخ ده مش هنا في الفلاحين، إحنا بنملا الميه من البحر على طول أو نحفر بير صغير جوه البيت، بس أنا هاعملك حاجة هنا هاتعجبك أوي، هادق جوه بيتك ماسورة في الأرض ونسحب الميه من جوف التربة لفوق.

طبعًا البحر هو نهر النيل في القرى المصرية، حتى أنا كنت أستخدم هذا التعبير في طفولتي.. فكر (نوح) قليلًا وهو يمسح يده من الطعام ويقول:

- وهاتسحب المية طبعًا بالمضخة.

- ما إنت عارف كل حاجة أهو يا مولانا، أنا باعمل المضخات في دكانتي وكنت بَبيعها للمماليك، بكرة بالمشيئة أجي أدقهالك، هاعملك واحدة بقى شغل المعلم لابنه.

- بس بشرط واحد، أدفع تمنها.

انفعل (حمزة) واحمر وجهه حتى كاد الدم ينفجر من عينيه وهو يصيح:

- والله ما هايحصل، على رقبتي، إنت عايز تمنعني أعمل حاجة

بسيطة للعزيز ابن العزيز اللي أنا عايش من خيره.. حرااااام.

فوجئ (نوح) بهذا الاهتياج الغريب فربّت على كتف (حمزة) بلطف وهو يهدئه:

- خلاص خلاص اللي تشوفه، بس دي هاتفضل جميلة فوق راسي.

- إنت بتقول إيه يا شيخ.. دا انـــ...

عادت العصبية تضرب (حمزة) فقاطعه (نوح) ليبتعد عن هذه النقطة الشائكة:

- كنت عايز أسألك عن حاجة.

تبدّل حال (حمزة) وانخفضت نبرة صوته وهو يتساءل بلهفة:

- أؤمر.

- إيه حكاية المماليك اللي عايشين وسطكم هنا؟

تبدل وجه (حمزة) للجدية وربّع قدميه تحته وقال بنبرات تميل بين الحزن والجد:

- آه فهمت، أهل البلد كلها عِلموا بالتشريفة اللي عملها المماليك علشان يخوفوك، بس متقلقش معظم المماليك اللي شُفتهم النهارده مش عايشين هنا دول حراسات في القرى اللي جنبنا، (إسماعيل) بك جابهم بس النهارده استعراض، (أيوب بك الأمرد) هو اللي قابلك.. صح؟

- آه.

- (أبو الغيط) ونواحيها وكام بلد جنبنا كلهم إقطاعية لإسماعيل بك السكران وطبعًا هاتسألني هو سكران فعلًا ولّا لأ.

ابتسم (نوح) وردّ عليه:

- لا، أنا عارف إن المماليك ساعات بيْطلِقوا على بعض أسماء وصفات بغرض الإهانة وهما شباب حتى لو كانت الصفات دي مش فيهم، ولما المملوك يبقى أمير ساعات الاسم بيلزق فيه ويبقى كنيته، في الغالب (إسماعيل) ده ما بيسكرش، المهم كمل كلامك.

- (إسماعيل) بك بيدفع لإبراهيم بك شيخ البلد كل سنة الضرايب عن القرى دي، وبيقولوا إنه بيدفع ساعات لمراد بك هو كمان ضرايب لوحده، وهو بقى يجمعها مننا أضعاف، هنا في (أبو الغيط) كل حاجة عليها ضريبة، الزرع.. البيوت.. خروج البضايع ودخولها.. استخدام الترعة.. حتى لما نملى ميه من البحر بندفع ضريبة.. ومن غير حاجة فيه فردة على كل واحد يدفعها عن نفسه كل سنة، يعني ضريبة على إنك عايش.

- يا نهار إسود، دي إتاوة الفتوات أرحم من جهنم دي، طب إيه اللي مسكتكم؟

لم يرد (حمزة) في البداية وتجهم وجهه لكنه قال بعد طول صمت وكأن هناك غصة في حلقه:

- الخوف من الموت.

لم يتخيل (نوح) أن يأتيه الرد بهذا الصدق، ابتلع ريقه وقال:

- طب ما تسيب هنا وتروح أي مكان تاني.

- كلها كده، هنا زي هناك يا مولانا، ولّا يعني هنا موت وفي حتة تانية هانلاقي عسل وطحينة، (إسماعيل) بك موجود في كل حتة.

عم الصمت أرجاء الدار لزمن حتى قطعه (نوح) محاولًا العودة لمسار الحكاية:

- ما قلتليش مين (أيوب الأمرد) ده كمان.

خفض (حمزة) صوته للحد الأدنى المسموع:

- ده دراع (إسماعيل) بك اليمين، كانوا الاتنين متربيين عند أمير مملوكي برغم إن (إسماعيل) بك أكبر من (أيوب) وسبقه في المناصب.

- إنت موطي صوتك ليه؟

أكمل بنفس نبرته وبقليل من الحذر:

- إنت يا مولانا تعرف طبعًا إن لقب (الأمرد) ده معناه إن ملوش لحية ولا شنب.

- أيوه بس دا أكيد لقب أخده وهو صغير قبل ما يطلعله..

قاطعه (حمزة):

- لا يا مولانا، أصل (أيوب) ده ديله نجس.

- نعم؟

- يعني لا مؤاخذة أستغفر الله العظيم فيه علاقة بينه وبين (إسماعيل)، علشان كده لقبه (الأمرد).

كان قد سمع بهذه الحكايات كثيرًا في كل ربوع مصر عن علاقات من هذا النوع بين رجال المماليك، لكنه لم يتأكد من أيٍّ منها من قبل.

- عافانا الله وإياكم.

- أكيد المماليك قلقانين منك في حاجة علشان كده حبوا يخوفوك، بس متخافش، اصبر على جارك السو... يا يرحل يا تيجي مصيبة تاخده.

سمعا دقات على باب الدار فانتفض (حمزة) وهو يستعيذ بالله من المماليك و(نوح) ينادي سائلًا عن الطارق:

- أنا (حمودة) جارك يا شيخ (نوح).

هدأ بال (حمزة) وهو ينهض جريًا قائلًا:

- الحمد لله، ده (حمودة) ابن (رفاعي)، بيتهم قريب منك أوي.

فتح الباب فظهر شاب في أوائل العشرينيات يحمل على رأسه صينية طعام، ألقى السلام على (حمزة) ودخل الدار بأريحية وهو يقول:

- كده يا عم (حمزة) تسبقنا في الأصول.

أنزل الصينية على الأرض وكشف عن أصناف أخرى من الطعام، صافح (نوح) واحتضنه وهو يمطره بعبارات التحية المبالغة و(حمزة) يغلق الباب ويقول:

- أنا قلبي وقع في رجلي لما خبطت، افتكرتك واحد من اللي ميتسموش.

- أكيد كنتوا بترغوا على المماليك.

- كنت باحكي لمولانا عن (أيوب).

- (أيوب) النجس، يا جدع افتكرلنا حاجة تانية.

- سامحوني يا رجالة مش عارف أضايفكم لسه.

قالها (نوح) بثغره المبتسم وهو يفكر كيف أن أهل القرية يتعاملون معه بالكثير من العشم كأنه أقرب أقربائهم عكس أهل المدن الذين تعود على عاداتهم طوال حياته.

- تضايف مين دا إحنا أهلك وعزوتك يا مولانا.

قالها (حمزة) فجلس (حمودة) متربعًا على الأرض قائلًا بنوع من الخبث:

- وأنا جاي على هنا لقيت الولا (مندور) ابن (شاهين) بيتمشى وهو بيبص على بيت مولانا.

شهق (حمزة) وضحك وهو يقول:

- إلحق يا مولانا، دا إنت هتتراقب من أول يوم ليك في البلد.

- فهموني بدل ما أنا طور لاه في برسيم.

قال (حمودة) بسرعة:

- أصل الولا (مندور) ده من ولاد (الصولي).

رن اسم العائلة في عقل (نوح) فلم يفت الوقت لينسى، قال لهما:

- أنا لاقيت رجالة لابسة لبس ولاد البلد مع المماليك، وواحد فيهم

حاول يتعارك معايا.. اسمه (رجب الصولي).

ألقى (حمودة) سبة بذيئة، قال (حمزة) بسرعة:

- متزعلش من (حمودة) بس هو لسانه زِفِر كده، أنا هارسيك على الدور، عيلة (الصولي) دول خدامين المماليك، هما من ولاد البلد بس أوسخ من المماليك وحياتك، بيعملوا كل حاجة يقولها المماليك، يعني هما اللي بيجمعوا الضرايب مننا ولو حد مننا حب يخبي حاجة علشان عياله يفتشوا بيته ويجرسوه، بيبلطجوا على الناس عمال على بطال.

- مقابل إيه كل ده؟

- مقابل الأكل والكسوة عيلة (الصولي) مستعدين يدبحونا، هما زي جماعات المنسر و(رجب) ده شيخ المنسر، ده كبيرهم اللي بيسمعوا كلامه من غير تفكير.

شرد (نوح) ببصره وهو يقول:

- كلاب الراعي.

- إيه كلاب المراعي دي؟

سأل (حمودة) بجدية فردّ (حمزة) وهو يضحك:

- ياض الشيخ يقصد كلاب الراعي بتاع الخرفان، الكلب اللي بيحاوط على الخرفان علشان متخرجش من القطيع.

هزّ (حمودة) رأسه نفيًا وقال:

- لا لا لا.. دول مش كلاب الراعي، دول كلاب بس، وكلاب نجسة

كمان.

ابتسم (نوح) لهما وقال:

- والله انتوا هونتوا عليا الغربة.

- إلا إنت يا شيخ شغال إيه؟

سأل (حمودة) سؤاله فانتقلت دفة الحوار بعيدًا عن الكلاب النجسة.

***

عند منتصف الليل تقريبًا شق فارس مملوكي على ظهر حصانه صمت القرية المطبق، الظلام يحيط بالأرض والقمر غائب والفارس مرتبك وقد فقدَ الاتجاهات، أبطأ من حركة حصانه وعينه تمسح الأراضي الزراعية ومواقع المنازل ليتذكر الطريق.. لكنه لم يقع في تلك الحيرة كثيرًا، حيث تحركت المزروعات في إحدى الأراضي القريبه منه.. تحسس غدارته في جانبه حين رأى عشرة رجال من عائلة (الصولي) يخرجون من بين الزرع يحملون العصي الغليظة ووجوهم ملثمة.

- إنت مين؟؟

نادى بها أحد الرجال فرد الفارس بخيلاء:

- فين سراي سيدك الأمير (إسماعيل) بك.

- إحنا رجالته، عايز منه إيه؟

- أنا باشمستحفظان (عثمان الكلاري) يا حيوان.

- خليك معانا لحد ما نبلّغ البيك وهو اللي يقبل أو يرفض يقابلك.

بصق عليهم الفارس وانطلق بحصانه للأمام لكنه سمع أحد الرجال من خلفه ينادي بصوت جهور بكلمة "دخيل" أكثر من مرّة، لم يبالِ وأكمل طريقه لكنه سمع كلمة "دخيل" تتردد من أمامه ومن خلفه ويعلو صداها في كل مكان، ما جعله يوقف حصانه عن الحركة هو رؤيته لشعلات نار تظهر على امتداد بصراه في نقاط متعددة.

هو مملوك ويعلم ما يراه، لو تقدّم أكثر سيقع في كمائن لا يعلم خطورتها؛ لذا عاد أدراجه للخلف حيث يقف الرجال وهو يصرخ فيهم:

- بلغوا سيدكم بسرعة مفيش وقت.

جرى أحدهم بسرعة وغاب في الحقول، مرت دقائق ظهر بعدها (رجب) يمتطي صهوة جواد بلدي ويقترب من (عثمان) وهو يقول:

- اتفضل معايا (أيوب) بك في انتظارك.

بعد قليل كانا أمام القصر فنزل (رجب) من على حصانه وهو يقول:

- الأوامر تسيب حصانك وسلاحك مع الحراس.

نزل (عثمان) من على حصانه ونظر شزرًا إلى (رجب) ثم توجه لأحد الحراس يعطيه لجام حصانه وغدارته وسيفه وخنجره، انفتح الباب الكبير ودخل (عثمان) ليقابل حارس آخر أخذه للداخل وتركه في قاعة استقبال من قاعات السلاملك.

لم تمر ثوانٍ حتى دخل (أيوب) بك بملابس منزلية كانت عبارة عن جلباب مزخرف وطاقية نوم على رأسه وواضح طبعًا أنه نهض من النوم حالًا وإن كانت ملامحه لا يظهر عليها القلق، دخل خلفه شاب يحمل صينية عليها كوب شربات مشمش، بلغة تركية مختلطة بمصطلحات مصرية قال (عثمان):

- آسف على الحضور في الوقت المتأخر ده.

ردّ عليه بنفس لغته المختلطة:

- مفيش أسف يا (عثمان) بك.. أهلًا بيك في كل وقت.

تناول (عثمان) الكوب ورشف منه رشفة ثم جلس على الأريكة و(أيوب) يجلس على الطرف الآخر منها وهو يقول:

- خير إن شاء الله.

- أفضّل أحكي قدام (إسماعيل) بك علشان ناخد كلنا القرار.

- البك هاينزلك حالًا، هي الحكاية تخص إيه؟

- سمعت عن الأمير (رضوان الفحل)؟

- مش ده اللي كان من مماليك (صالح) بك؟ هو لسّه عايش؟

- يعني تعرفه شخصيًا؟

- لا.. أسمع عنه بس.

دخل (إسماعيل) بك في كامل حلته العسكرية وقد علق غدارة ضخمة في حزامه، نهض الاثنان لتبجيله فأشار لهما بالجلوس،

وجلس على مقعد وثير بالقرب منهما.

- خير إن شاء الله.

- تعرف (رضوان) بك (الفحل)؟

سأله (أيوب) فردّ (إسماعيل) باستغراب:

- اتعاملت معاه كام مرّة زمان، إيه مات؟

ردّ هنا (عثمان) بسرعة:

- لا يا بك، الأمور في المحروسة بتتغير تاني، (رضوان) رجع للأحداث تاني بعد ما كان مغضوب عليه من أيام (علي بك الكبير)، (إبراهيم) بك شيخ البلد قرر يستعين بيه علشان جمع الضرائب.

باستنكار قال (إسماعيل):

- الضرائب اتجمعت من 3 شهور خلاص.

- هو أقنع (إبراهيم) بك إن فيه كتير من المديريات دفعوا ضرايب أقل من المستحقة، وهو هايلف عليهم على رأس تجريدة حربية من الفرسان علشان يجبر الكل على الدفع.

وقف (إسماعيل) يتحسس غدارته بحركة لا إرادية وهو يصيح:

- شيخ البلد اتجنن.. هو عايز يقلب أمراء المماليك على بعضهم تاني، إحنا مش كنا اتفقنا وهدينا.

- إهدا يا بك، أنا جاي أبلغك بأخبار وصلتلي من ساعات، التجريدة هاتتحرك قبل صلاة الفجر وهاتبدأ بقرية (باسوس) اللي قبلكم،

والدور عليكم بعديها.

بعض ألفاظ السباب خرجت من فم (إسماعيل) في حين قال (أيوب) بهدوء:

- رأيك إيه يا (عثمان) بك؟

- أنا رأيي إنكم تهاودوا الأمير (رضوان).

- غلط.

قالها (إسماعيل) وأكمل:

- لو اديناله خردة زيادة هايجي كمان شهرين ويطلب تاني.

بنفس الهدوء والبرود قال (أيوب):

- وأنا عندي نفس الرأي، شيخ البلد باعت (رضوان) يعمل محاولة يا صابت فتيجي فلوس، يا خابت وساعتها يغور (رضوان)، احنا هانرفض وندافع عن نفسنا.

أضاف (إسماعيل):

- وراس (رضوان) هاتكون هدية لشيخ البلد لو هاجمنا.

بيأس قال (عثمان):

- بلاش تستهينوا برضوان.

- هو اللي مستهين بينا.

نهض (عثمان) وهزَّ رأسه بتراخٍ بلا معنى وهو يقول بالعربية:

- اللهم بلغت اللهم فاشهد.

قال (أيوب) بسرعة:

- مش هننسى مخاطرتك بنفسك علشان تلحق تبلغنا، اقبل مننا هدية بسيطة توصلك على بيتك في المحروسة من غير ما حد يدرى يوم الجمعة إن شاء الله.

شكرهما (عثمان) وغادر القاعة مع أحد الحرس بينما فكر (إسماعيل) قليلًا وقال:

- تفتكر الأمير (عثمان) جه يبلغنا من نفسه؟

أغلق (أيوب) باب القاعة ووقف أمامه يرد عليه:

- فيه احتمال بسيط إن (رضوان) بك نفسه هو اللي باعته علشان يخوفنا، ولو صح الاحتمال ده فإحنا أعلنا الحرب عليه، بس أنا شايف إنه احتمال بعيد.

- (أيوب) قبل صلاة الفجر تبعت لكل مماليكي في النواحي والبلاد القريبة علشان يحضروا ويكون مع كل واحد فيهم الفرس بتاعه والبندقية السلافية وغدارته والدرع..

قاطعه (أيوب):

- هاعمل أكتر من اللي إنت عايزه، النهار هايطلع علينا و(أبو الغيط) فيها جيش مماليك جاهز.

- وافتح السلاحليك وإدّي لكل مملوك ربع رطل بارود و100 رصاصة.

- اطلع إنت ارتاح وأنا بنفسي هاشرف على كل حاجة.

- أنا هاطلع أصلي لحد ما تديني التمام.

لو كنت معهم لصرخت في أذن (إسماعيل) قائلًا "اللهم قوي إيمانك يا إبن الـ......"

***

على صوت المؤذن اهتدى (نوح) لزاوية الصلاة، والتي كانت قريبة منه، لم تكن إلا قاعة صغيرة جدًا كغرفة نومك مبنية بالطوب اللبن وبلا منبر أو قبة بل إن سقفها مغطى بألواح خشبية متهدمة وبعض جريد النخل، وداخلها لا شيء يدل على أنها زاوية صلاة إلا رسم بدائي جدًا على أحد جدرانها لقبلة صلاة وفوقه كتب بخط طفولي "قبلة الصلاة" في حال إنك متخلف عقليًا.

على الأرض حصير خشن منتفخ من تأثير الرطوبة وقطرات الندى التي تمر من خصاص جريد النخل والأخشاب لتختلط مع الأتربة فتصنع عجينة رمادية على الحصير ويصبح من العسير تنظيفه.

خارج الزاوية وضع زير ماء على مصطبة بكوب فخار أعلاه مربوط بحبل، أمسك (نوح) الكوب وملأه بالماء ليتوضأ لكن المسألة كانت صعبة أكثر مما تخيل في البداية، ظهر من العدم رجل بجانبه وهو يقول:

- هات يا مولانا أنا هادلقلك الميه وإنت اتوضى.

شكره (نوح) ودعا له والرجل يصب له الماء ويقول:

- إنت الشيخ (نوح) اللي جيت البلد امبارح.

- أيوه.

- نورتنا.

أكمل له صب الماء حتى انتهى من الوضوء وشكره، سبقه الرجل إلى الداخل ودخل (نوح) وهو يعدل من وضع جلبابه ويعيد ارتداء عمامته، كان المصلون في حالة يعلمها جيدًا بين النوم واليقظة، حتى الإمام كان جالسًا نصف مغمض العينين ويده تداعب مسبحة صغيرة.

صلى (نوح) الركعتين وانتظر مع النائمين حتى أذّن الإمام وأقام الصلاة، فانضم بين الصفوف، بعد أن انتهى وفي نهاية التسليمة الثانية قفز رجل من بين المصلين، وقال للإمام شيئًا ما في أذنه، فنهض الإمام واقفًا وهو يقول:

- كلٌّ في مكانه، أخوكم (سلامة الصولي) عايز يبلغكم ببيان من البك الكبير.

تخشب الجميع في موضعه وانقطعت الأنفاس، لاحظ (نوح) أن (سلامة) هذا هو نفس الرجل الذي قابله في الخارج بجوار زير الماء وصب له ليتوضأ، والغريب أن (سلامة) ركز عينيه على (نوح) برهة من الوقت ثم أخذ يحرّكها بين الموجودين مع الوقت وهو يقول:

- (إسماعيل) بك بيبلغكم السلام والتحية، وبينبه على كل واحد فيكم إنه ميغادرش بيته النهارده من أول ما النهار يشقشق لحد ما يمشي في البلد منادي يبلغكم بالأمان والخروج.

اعترض المصلون وتعالت أصواتهم يستنكرون، كيف سيتركون أراضيهم، وكيف ستمنع النساء من إحضار الماء من نهر (النيل)، رفع (سلامة) نبرة صوته أكثر وصارت ممتلئة بالتهديد والوعيد وهو يقول:

- الحاضر يعلم الغايب، مفيش خروج لأي سبب كان، واللي هايخرج هايعرّض نفسه للتهلكة وملوش أمان، لما تسمعوا المنادي اعملوا ما بدا لكم.

بمجرد انتهاء عبارته مرّ وسط المصلين الذين ما زالوا في حالة من الاعتراض والرفض، نهض (نوح) وخرج بعدما سحب نعليه وارتداهما في الخارج وأخذ طريق العودة لمنزله.

ظلمة الفجر قاربت على الانقشاع ومن بين الحقول رأى فرسان المماليك على الجياد يهرولون في اتجاهات مختلفة، أزياؤهم متباينة الألوان لكن على رؤوسهم بدلًا من العمامة خوذة الحرب!!، أكمل طريقه لبيته وهو يقول بنبرة ضعيفة كأنه يحادث نفسه: "كلفة الظلم أغلى من كم كلفة العدل".

دخل لداره وفتح إحدى النوافذ لتسمح بدخول ضوء الصباح الذي أشرق على داره، سحب الصندوق الصغير الذي أودع فيه الكتب التي استلمها من إحدى المكتبات لينسخها.

أوّل كتاب كان ضخمًا غلافه مدبوغ بجلد أسود، فتح أول صفحة يبحث عن الطيارة والتي هي ورقة ملاحظة تتركها المكتبة له، قرأ المكتوب فيها بصوت مسموع:

- كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، ملك خاص لمكتبة (أبو الفضل الأزهرية)، مطلوب نسخة واحدة بالرسومات والألوان، المدة المطلوبة لعمل الكتاب حتى ثلاثة أشهر، مطلوب من قبل السيد الأجل (حسين بن عفيف الدفتردار) لمكتبته الخاصة.

شعر بالراحة لأنه قام بنسخ هذا الكتاب من قبل مرتين ويجيد الآن رسم رسوماته وحواشيه المعقدة، وضعه جانبًا وقد قدّر أنه سيأخذ منه شهرًا على الأكثر في حالة التركيز الكامل، سحب الكتاب الثاني وكان متوسط الحجم مجلّدًا حديثًا، سحب الطيارة وقرأ فيها:

- كتاب (شروحات على عمدة المصلي للإمام النابلسي)، مِلك خاص لمكتبة (أبو الفضل الأزهرية)، مطلوب نسخة واحدة، المدة المطلوبة لعمل الكتاب نصف شهر، مطلوب من قبل المجاور (عبد الصمد ابن عبد المتجلي) للدراسة الفقهية.

إذن فنسخة الكتاب ستذهب لطالب في الأزهر الشريف، قال لنفسه بأنه يجب أن يبدأ به ويتقنه ويسلمه قبل الموعد إن أمكن، وربما قام بتنفيذ عملية النسخ بأقل مبلغ ممكن.. ترك الكتاب جانبًا وسحب الكتاب الثالث والذي كان أقرب للمتوسط أو أقل بقليل، مجلد بطريقة فاخرة بجلد مشدود على قائم خشبي، فتحه فوجد الطيارة وعليها الآتي: (مخطوط "كشف غطاء البصر عمن حضر" لكاتب مجهول، ملك خاص للسيد الأجل صاحب الفضل والاحترام الأمير (عمر الطوبجي)، مطلوب نسخة واحدة بكافة الألوان والرسومات مع ترجمة أي لغة داخله للعربية بعد نسخ النص الأصلي، المدة المطلوبة لعمل الكتاب شهر واحد ووجب الالتزام بها تبدأ من اليوم

السابع في هذا الشهر الهجري، مطلوب عمله لنفس مالك الكتاب، تحذير: دقة النقل واجبة ولا تهاون فيها وثمن النسخ سيكون أزيد بأربعة أضعاف).

تفجّر الفضول داخله ففتح الكتاب والذي كانت أوراقه قديمة فعلًا لا يقل عمرها عن مائة عام، مكتوب بالعربية الفصحى باستخدام خط الرقعة الموصلي وهذا الخط نادرًا ما وُجد كتابٌ مكتوبٌ به، الرسومات قليلة لكنها مخيفة، بعضها يمثل عفريتًا مكبّلًا من الرأس ويجره عفريت آخر، أو كائنًا مخيفًا يرتدي ملابس بشرية ويقف وسط الناس، هذه الطريقة في الرسم يعرفها (نوح) وتذكرها بسهولة، إنها رسومات كان يُكتب على هامشها (محمد سياه قلم)، شاهدها في مخطوطات فارسية وبعض المخطوطات العربية، ولكن ما الذي أتى بها لهذا الكتاب.

قرأ عبارات متفرقة من صفحات الكتاب، تتحدث عن عالم الجان والسحر، وفقرات كاملة مكتوبة باللغة الفارسية وسط الكتابة العربية، قرأ متفرقات بتلك الفقرات ففهم، الأجزاء الفارسية تتحدث عن ملوك الجن باستفاضة وكيفية التواصل مع مندوبيهم.

- أستغفر الله العظيم، إيه القرف ده!

كان (نوح) يعرف جيدًا هذه النوعيات من كتب السحر القديمة، الوجهاء والأمراء في مصر تعجبهم فكرة امتلاك مخطوطات سحرية في مكتباتهم الخاصة التي لا يقرأون منها صفحة واحدة، بل يستخدمون هذه الكتب للتباهي بها وسط أقرانهم، حتى إنه طُلب منه من قبل أكثر من مرّة نسخ تلك الكتب لكنه رفض، وهذا ما

سيفعله.

بشكل ما صار هذا الكتاب أثقل من اللازم، أعاده للصندوق ثانية لكنه فزعَ عندما سمع هذا الصوت.. صوت انفجار ضخم سمعه في طفولته مرة، كان الصوت يأتي من بعيد لكنه مخيف بشكل كافٍ، إنه صوت طلقة مدفع.

***

(5)

مِمَّ تتكون السعادة؟؟ إجابتي أنا هي الحلبسة وماء المخلل الأحمر تشربها في كوب، لكن الخبراء الذين يكرهون ارتفاع الضغط يرجحون أن السعادة هي مراحل في حياة كل منا ولكل مرحلة مفهومها الخاص بالسعادة، وشطارة كل شخص هي الحفاظ والاستمتاع بكل مرحلة قدر ما استطاع، وبرغم أن (عزيزة) صغيرة السن إلا أنها بشكل ما استطاعت أن تدرك تلك الحقيقة وأصرت على الاستمتاع بتلك المرحلة.

تزوجت (فايق) بفرح كبير حضره الكثير من عائلات القرية وسط فخر أبيها بأداء آخر مهماته الحياتية بتزويج ابنته الثانية، حتى إن (هلال) ابن كبير عائلة (الصولي) حضر بنفسه ودفع مبلغًا كبيرًا كنقوط للعروسين وهذا شيء طبيعي برغم أن (جاد) يدفع إتاوة شهرية في شكل ضريبة على الطاحونة لعائلة (الصولي)، لكن هذا الحضور هو نوع من المباركة والرضا من تلك العائلة على عائلة (جاد)، سهر أهالي البلد وأكلوا وشربوا وتراضى الجميع.

أما (جاد) فعلى عهده ظلّ ذكيًا لأنه ترك منزله الخاص للعروسين طوال أسبوع وأقام مع (جوهرة) ابنته الكبرى، برغم أن (فايق) أصرَّ على الحضور في اليوم الرابع لمباشرة عمله في الطاحونة إلا أنه استأذن في الانصراف سريعًا.. فلم يعارض (جاد) الذي تذكّر شبابه وابتسم.

بعد انتهاء الأسبوع عاد (جاد) للمنزل ليجد أن الهواء نفسه مشبعٌ بالفرحة والسعادة والتي صارت كالمرض اللذيذ يصيب من يدخل

الدار.

النظرات بين العروسين مازالت تحمل الحب والاشتياق وكأنهما لم يتزوجا بعد، الهمسات بينهما والضحكات لم تنقطع حتى عندما تتجمع العائلة بعد صلاة العشاء لمشاهدة التمثيلية التلفزيونية المريبة في التلفزيون والتي تصرخ فيها الممثلة (نجمة إبراهيم) ويدخل في المشهد (عبد الغني قمر) بشارب أكثر ريبة ليتكلم بخبث ثم يبكي.

في تلك الليالي تجلس (جوهرة) وزوجها وأطفالها و(جاد) في ناحية، و(عزيزة) و(فايق) في ركنهما الخاص على الأريكة لا ينفكان عن النظر لبعضهما البعض باشتياق بين لحظة وأخرى، تنتهي التمثيلية ويأتي إعلان لبن الأطفال ثم إعلان سجائر (نفرتيتي) وجبنة (نستو)، حينها يعلن الأب بأن التلفزيون سيتوقف بعد قليل عن البث وعلى الجميع الذهاب للنوم، تعترض (جوهرة) وتصر أن موعد انتهاء البث لن يكون قبل ثلاث ساعات فيسحبها زوجها من يدها وهو يلقي عبارة ما عن ترك العرسان ليناموا مبكرًا، تحمر وجنة (عزيزة) خجلًا ويغادر الجميع ثم يدخل (جاد) غرفته لينام ليترك الدار للعروسين يفعلان ما يريدان بها.

خمسة أشهر على تلك الحال حتى أتى الخبر السعيد، (عزيزة) حامل، تتجدد السعادة ثانية في الدار ويعيشون أيامًا من البهجة والاحتفال بينما (فايق) يغادر الطاحونة في أحد الأيام ويتجه لمقام (نوح المذبوح) ليقرأ الفاتحة ويشكر الله على عطياته ونعمه.

لم يحمل (فايق) أي هم في حياته الجديدة إلا تساؤلًا ضئيلًا ظلّ

يتضخم في عقله بلا إجابات شافية، ما سرُّ تلك الغرفة الخالية في الدار ولما تدخل إليها (عزيزة) من وقتٍ لآخر تقرأ الفاتحة وأحيانًا تتحدث لنفسها كالمجانين وهي داخل الغرفة وحيدة، حتى (جوهرة) في أكثر من مرّة تفعل نفس الشيء، وحين سأل كانت الإجابة من (عزيزة) "جدي الكبير الله يرحمه كانت خلوته في الأوضة دي، وأنا ساعات بحس إني بحب أكلمه كأنه عايش، ووالله ساعات باحس إنه بيرد عليا.. روحه معايا".

منع نفسه من لومها على أنها تكره ذهابه لمقام (نوح) لقراءة الفاتحة وتسمح لنفسها بفعل نفس الشيء فيما يتعلق بجدها، لكنه كأي زوج محترف وتجنبًا للنكد ابتلع أفكاره مع كوب الشاي الذي يشربه عند استيقاظه، لكنه طبعًا كأي قط فضولي استغل زيارة زوجته لشقيقتها وعاد مبكرًا للمنزل الخالي، فتح باب الغرفة الخالية المظلمة ودلف لداخلها.

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

خرجت من حنجرته متحشرجة، فعلًا هذه الغرفة لها رهبة عجيبة، أم هي رهبة الحكاية التي سمعها من (عزيزة)؟؟؟، تنفس بقوة ليمنح نفسه شعورًا بالقوة وقال:

- حد هنا؟

المرعب فعلًا أنه أحس بانقباض بقلبه لم يشعر بمثله قط، تراجع بظهره للوراء حتى خرج من الغرفة وأغلق بابها بحذر، جلس على الأرض بجانب الأريكة وعلامات الذنب كلها تتجلى على وجهه كأنه اخترق حرمًا ما، فكر في أن روح جد (عزيزة) لو وُجدت فعلًا فلن

يتضايق منه.. لا يعلم كم مرّ عليه وهو جالس هكذا إلا أنه قرّر أن حاجته لكوب شاي زادت، لكنه لا يعرف كيف يشعل الباجور، إذن الوجهة ستكون لقهوة (عوني) ليتناول كوب الشاي ويعود للدار قبل عودة (عزيزة).

نهض متثاقلًا كأنه يصحو من النوم وكاد أن يخطو بقدمه إلا أن باب الدار انفتح ودخلت (عزيزة) وهي تبحث بعينيها عنه، وقعت عيناها على (فايق) فقالت بجدية:

- إنت دخلت الأوضة الفاضية من شوية وسألت قُلت حد هنا؟؟

إذن فربة المنزل أمسكت القط الفضولي.. تسمر مكانه وشخصت عينه، أغلقت هي باب المنزل واقتربت منه كوكيل النيابة تعيد عليه السؤال، استطاع الرد بصعوبة:

- عرفتي منين؟؟؟؟!!!!!!!!!!!!!!!!

- حسيت.

- بسم الله الرحمن الرحيم.. إنتي مخاوية يا بت ولّا إيه؟

شعرت أنها تخيفه فلانَ وجهها وابتسمت وهي تقول بنوع من الدلال:

- لا يا عيني.. أنا باحس بيك علشان بحبك.

لم يزده دلالها إلا خوفًا ورعبًا وهو يرد:

- بجد عرفتي منين؟

خلعت طرحتها السوداء وجلست على الأريكة وهي تشير بيدها

ليجلس بجانبها وقالت:

- وأنا عند (جوهرة) جيت في بالي وشفتك كأنك بتدخل الأوضة وبترمي السلام وتتكلم، أنا قُلت أجي أتأكد إحساسي صح ولّا غلط.

جلس بجانبها فربتت على ظهره بحنان وأمسكت يده التي وجدتها باردة فقبلتها، لا ينكر أنه هدأ قليلًا لكنه قال:

- دا شغل عفاريت ده.

***

على شاطئ (النيل) بقرية (باسوس) وفي وسط ظلمة الليل توقف قارب خشبي صغير يقوده (حمامة) الذي دارى نصف وجهه كعادته، اختار بقعة خالية من قوارب الصيد الأخرى والتي ترسو في شكل تجمعات كل بضعة كيلومترات تقريبًا، أوقف قاربه وسحب المجاديف لداخلها.. قفز إلى البَر وسحبَ حبلًا من القارب ثبّته في الأرض بوتد.

أظهر وجهه كي لا يثير الشبهة أثناء السير وعلى كل فالشريط المطل على نهر النيل في (باسوس) نادرًا ما يسير عليه أي شخص في هذا التوقيت إلا إن كان مجنونًا أو أحد أبناء الليل.

مسح بعينيه جيدًا كل المنازل ذات الطابق الواحد المظلمة، أوقف عينيه عند منزل فخم، بيت كبير عائلة (الزهراوي)، هدفه بعد هذا المنزل بنصف كيلو على شاطئ النيل مباشرة، تحرك بخفة وهو يثني ركبتيه ويسير على مشط قدميه كما تعلّم في مراهقته من (عطوة) القاتل المأجور الذي عملَ معه، لا صوت لقدميه تقريبًا، اقترب من هدفه والذي كان غرفة صغيرة بالطوب الأحمر ولها سقف وباب

خشبي قوي، تطل الغرفة على النيل مباشرة، من داخلها صوت غناء أم كلثوم لأغنية (أقولك إيه عن الشوق).. طبعًا لن تذيع الإذاعة المصرية هذه الأغنية في هذا الوقت المتأخر ناهيك عن أنها تسجيل لحفة خاصة من مسرح حديقة الأزبكية.

وقف (حمامة) بجانب الغرفة التي كان يستخدمها (هاني الزهراوي) ابن كبير العائلة في جلساته الخاصة، تجمد في مكانه وعينه تتأكد من خلو مدى البصر من أي شيء غريب كشخص يكمن وسط المنازل أو ضوء سيجارة مشتعلة أو أي شيء يدل على وجود مراقب أو كمين منصوب.

حين شعر بالأمان وقف على باب الغرفة وطرق بابها بتناغم متَّفَق عليه، فتح الباب (هاني) الذي كان يرتدي قميصًا أخضر وسروالًا من الجينز والذي كان يأتي مُهرّبًا من (بورسعيد)، وفي قدميه شبشب جلد، (هاني) الذي قاربَ على الأربعين لكنه يصبغ شعره بالأسود ويعيش حياة الترف المشوهة من مال عائلته والذي يدير جزءًا كبيرًا من تجارتها.

- اتأخرت يا (حمامة) تعالى تعالى.

ترك الباب مفتوحًا ودخل للغرفة التي امتلأت بمقاعد وثيرة ومنضدة متوسطة عليها لفة طعام مغلقة وجوزة مع بضعة أحجار شيشة ممتلئة بالمعسل المحشو بكسرات الحشيش، ومنضدة صغيرة عليها جهاز تشغيل الأسطوانات المحمول (بيك أب) الذي كان موضة هذا العصر ويخرج صوت أم كلثوم يلعلع قائلًا:

"أقولك إيه وإيه يوصف هوايا

وأنا ف قلبي كلام مالوش نهاية

دي أجمل كلمة في الدنيا حبيبي

بقولها لك وبرضو مش كفاية"

نظر (حمامة) وراءه للمرة الأخيرة للشارع قبل أن يدخل ويغلق الباب وهو يقول:

- أنا قُلتلك هاجي ليلة الخميس بعد نُص الليل بس محددتش إمتى.

فتح (هاني) لفة الطعام فظهر الكباب وعلب الطحينة الورقية وأرغفة العيش.

- الأكل بِرِد يا جدع، أنا كنت هموت من الجوع

سحب (حمامة) مقعدًا ليقترب من المنضدة وانتظر حتى نظر له (هاني) وضحك بطريقة نابية وهو يمسك قطعة من اللحم قائلًا:

- إنت لسّه بتخاف تاكل حاجة إلا لما اللي قدامك ياكل منها.

عاد للغرق في الضحك ثم أدخل قطعة اللحم كلها في فمه وهو يمضغها باستمتاع مفتعل ثم حشر قطعة أخرى لفمه وهو يقول والطعام يتناثر من حوله:

- عيب يا (حمامة) الحركات دي، دا أنا ابن عمك يا جدع.

ابتسم (حمامة) وهو يسحب قطعة من الكباب ويضعها في قطعة خبز ثم يلتهمها وهو يقول:

- الطبع غلاب، أخبار عمي إيه؟

- تعبان.. السكر بينهش في مفاصله.

- وهو السكر يعمل كده؟

- وأكتر، ربنا يشفيه، ها أخبار (زهير الصولي) إيه؟

- متجنن من حكاية (صبحي) اللي كان بيمده بالحشيش ومبقاش عايز يديه تاني، مش مصدق إن مفيش حشيش في البلد.

- إنت أول ما جبتلي اسمه ومكانه وأنا بعث رجالتي اتفقوا معاه على سعر أكتر من اللي كان بيدفعه (زهير) وأخدت منه كل الكمية.

- كانت كام؟

- 3 طن حشيش ونص طن أفيون، وقالّي إن فيه 2 طن جايين كمان 3 شهور إن شاء الله ودفعتله عربونهم كمان، المهم إنك تجبلي بقية التجار اللي بيتعامل معاهم وخصوصًا في الأفيون علشان ناخد تجارته كلها مرّة واحدة.. وإوعى حد فيهم يوعى إنك تبعي من الأول.

أنهى (حمامة) لقمة الكباب ومسح يده في ورق الطعام واعتدل في كرسيه وهو يقول بفخر:

- النهارده جبتلك المطلوب مني كله وكده خلاص مهمتي انتهت.

توقف (هاني) عن تناول الطعام كالبقرة وتهللت أساريره.

- بجد!!!!!

- أيوه، كل حاجة تخص عيلة (الصولي) هاتبقى في عبك.

أخرج من داخل الصديري الذي يرتديه تحت الجلباب ورقة مطوية أعطاها لهاني الذي تناولها بيده اليسرى غير الملوثة بالطعام وفضها.

- في الورقة دي كتبتلك أسماء وعناوين آخر 3 تجار بيمونوه بالحشيش والأفيون، و2 تجار في (أسيوط) بيشتري منهم السلاح بالجملة ويبيعه قطاعي، وعناوين 8 مخازن للحشيش والسلاح عنده في (أبو الغيط).

نهض (هاني) وجرى على (حمامة) يحتضنه وهو يصرخ:

- عفارم عليك يا ابن عمي، راجل من ضهر راجل بصحيح.

انتقلت الفرحة لوجه (حمامة) وهو يقول:

- جهزلي شهادة ميلادي بقى زي ما اتفقنا، هاعدي عليك بكرة آخدها.

- وهاتعمل إيه بعديها؟؟

- أنا ونصيبي بقى، هاطلّع بطاقة وجواز سفر ويمكن أسافر، المهم إني أبعد عن كل حاجة وأبدأ على نضافة

تجمدت الفرحة على وجه (هاني) وهو يعود ليجلس على مقعده وتحول وجهه للجدية وهو يقول:

- بس أنا لسّه محتاجك.

- في إيه؟

- تكمل مع ولاد (الصولي) زي ما إنت، أنا مضمنهمش.

انتقلت عدوى الجدية لوجه (حمامة) الذي اعتدل في جلسته وهو يضغط على حروف كلماته حين قال:

- (هاني).. فاكر لما جبتني هنا من أكتر من سنة، وطلبت أشتغل مع الناس في (باسوس) ضد (أبو الغيط)، قلتلي بعد شوية هاتزرعني عند عيلة (الصولي) لحد ما أجيبلك تفاصيل شغلهم في المخدرات والسلاح، فاكر كل ده كان قصاد إيه؟

لم يرد (هاني) ولم يرفع عينيه لحمامة الذي أكمل:

- قصاد شهادة ميلادي، مش إنت قلتلي إني ابن (صلاح) أخو أبوك وإنه اتجوز أمي في السر ومعملش شهادة ميلاد لأخويا الكبير لكن عملي واحدة.. مش ده كلامك؟؟؟؟

- (حمامة) إنت ابن عمي والله وقلتلك قبل سابق أبويا مكنش راضي عن الجوازة و...

قاطعه بغضب:

- (حمامة) ده الاسم اللي كنتوا بتنادوني بيه وأنا عيل، أنا مش فاكر اسمي الحقيقي، وإنت شرطت عليا أعرف كل حاجة لما أنفذ المطلوب مني.

- بعدين هاجبلك شهادة ميلادك.

- إنت فاكرني عايز أورث منكم زي ما أبوك كان فاكر، أنا عايز اسمي علشان أغور من وشكم.

- أنا عارف بس الحكاية مش سهلة زي ما إنت فاكر، إنت حتى متقدرش تطلع نسخة منها من الحكومة، أبويا عرف يلغي وجودها.

- وإنت جاي تقولي ده دلوقت!

- إنت صعبت عليا لما سمعت عنك من ولاد الليل، مكنتش مصدق إنك (حمامة) اللي اتربى معانا هو وأخوه يبقى كده.

- تقصد اللي اتربى في عشة خدام هو وأخوه يبقى كده.. جيتلي ليه؟ علشان أعملك شغل وساخة وسرقة وقتل؟ كنت كلفني بيه زي أي حد وتديني فلوسي؟!

- إنت مش زي أي حد، إنت ابن عمي.

احمر وجه (حمامة) ومسح بيديه على وجهه وفمه ينفخ الهواء بحقد، قال فجأة وقد تغيرت حالته المزاجية إلى الهدوء:

- إنت فاكرني محتاج شهادة ميلادي ليه؟

- علشان تعمل ورقك.

أخرج (حمامة) من ملابسه بطاقة هوية ورفعها في الهواء ليراها محدثه وهو يقول:

- أنا عملت تسنين من زمان وطلعت بطاقة باسم (عبد الله أبو بكر) اسم فشنك.. يعني أقدر أطلّع أي أوراق أحتاجها حتى الباسبور.

أعاد البطاقة لجيبه واسترخى قائلًا:

- يبقى تفتكر ليه أنا عايز حتة شهادة ميلاد مش معترف بيها عند الحكومة حتى؟

- مش عارف.

- ولا أنا أعرف، (هاني) أنا هاسألك سؤال عايز إجابته بصراحة وبسرعة.. مين اللي قتل (حسن) أخويا وقتله ليه؟

- حقيقي ما أعرفش، (حسن) كان بتاع ربنا وعمره ما زعل حد.

- يعني مش أبوك اللي عمل كده لما (حسن) طالب بورثنا بتاع أبونا؟

- ده كلام ميخشش عقل عيل، طب ما أخوك عاش سنين ومطلبش حاجة.

نظر له (حمامة) بصمت لفترة و(أم كلثوم) مازالت تلعلع:

((وأقول لك إيه شوية إني أقولك يا حبيبي

يا ريت فيه كلمة أكتر من حبيبي

هواك هو اللي خلى العمر غالي

وبالثانية أحسبه مش بالليالي))

- وأنا عيل لما كنت لسّه في (باسوس) كان كل الناس بتقولي يا (حمامة)، حتى (حسن)، يمكن علشان بجري بسرعة، أو بهرب بسرعة، لكن فيه اسم سمعته كام مرّة حد بيناديني بيه.. حاسس إنه كان (محمد) أو (حامد)، أنا وأخويا كنا عايشين زي البهايم في أرضكم، جعانين دايمًا وبنستنى ناكل، ولما ناكل مانشبعش، كنت عايز أعرف اسمي علشان أحس إني بني آدم.. كان نفسي أتأكد إني من عيلة كبيرة زي عيلتكم علشان أنسى حكاية إني ابن حرام أنا

وأخويا.. بس خلاص، أنا مش عايز حاجة.

- إديني يومين وهاجيبلك شهادة الـ...

لم يكمل (هاني) عبارته، لأن (حمامة) نهض فجأة وأزاح المنضدة جانبًا وبحركة سريعة نزع الشال الذي يلف به عمامته ولكمَ (هاني) في وجهه فوقع أرضًا، جثم (حمامة) فوقه وهو يحرك جسد (هاني) لينام على بطنه وهذا الأخير يقاوم لكن (حمامة) كان أسرع وهو يثبته أرضًا ويلف الشال حول رقبته ويخنقه ببرود.

حاول (هاني) الصراخ لكن صوته المتحشرج خرج خافتًا وأقل من صوت ست الكل (أم كلثوم) التي أخفت صوتَهُ تقريبًا.. بعد دقيقتين كان جثة هامدة، سحب (حمامة) الشال وأعاد لفه على طاقية رأسه، أخذ الورقة التي سقطت من يد الجثة ودسها في جيبه ثم جذب المقعد لموضع المنضدة الجديد وجلس ليتناول قطع الكباب المغموسة في الطحينة و(أم كلثوم) تشدو:

"هواك نسّى الزمان طبعه

وخد منه الأمان لينا

وداري عننا دمعه

وخلاه ما دري بينا

ونور للأمل شمعة

وطمن بيه ليالينا"

***

بعد يومين وفي الصباح الباكر خرج (فايق) من داره ليذهب إلى الطاحونة، منذ ما يزيد عن شهر تغيّر روتين عمله فصار يسبق حماه إلى الطاحونة كل يوم ويديرها ويشرف على كل ما فيها حتى يأتي (جاد) قبل الظهر بقليل، كان هذا نوعًا من الترقية لفايق ليكون هو المدير الحقيقي للمكان؛ لذلك حرص على ألا يخذل حماه فضاعف من عمله واهتمامه ليثبت جدارته، حتى إن يوميته كان يعطيها لعزيزة ويأخذ منها فقط حق كوبين من الشاي يوميًا يشربهما في القهوة.

رأى ثلاثة شباب يهرولون باتجاه شاطئ النيل فلم يعِرهم اهتمامًا، لكن شابًا آخر كان يعرفه رآه يجري في نفس الاتجاه فنادى عليه ليسأله، أخبره بأن هناك جثة غريبة أخرجوها من النيل، لم يتمالك نفسه فاتجه إلى الناحية التي يتجه إليها الجميع ليشبع القليل من الفضول الذي تملّكه، مدّ خطاه حتى وصل لجانب من الشاطئ تجمّع حوله العشرات من أهالي القرية، اخترق الناس حتى وصل إلى الجثة ورآها، كانت لرجل يرتدي قميصًا وسروالًا وحافي القدمين، منتفخة قليلًا، بجانبها يقف شاب في بداية العشرينيات من العمر يرتدي جلبابًا وبلا عمامة، لم يتعرف على هيئته لكن عندما ناداه أحدهم باسم الريس (عزت) ربط بين الاسم والشخصية والجثة، إنه الريس (عزت كشك) صياد سمك من (باسوس) يحبه الجميع ويتشاءمون منه في نفس الوقت بسبب شهرته.

يلقبونه بصياد الجثث، لأنه يتطوع بالبحث عن جثث الغرقى في نهر النيل سواء من (باسوس) أو (أبو الغيط)، لا يأخذ مالًا أو هدايا، كل ما يطلبه هو الدعاء له، يذهب إليه من فقدوا أحِبّاءهم في المياه،

أو يشكون بأن ذوييهم غرقوا، وهو يأخذ المواصفات وموقع الغرق التقريبي ويبدأ البحث بحرفية لا يعلمها سواه، يعرف جيدًا مناطق الدوامات والأجزاء غير العميقة من النهر.. وأماكن الأشجار على الشاطئ التي تمتد أغصانها لأعماق المياه فتتعلق بها الجثث، يظل طوال الليل يجدف بقاربه حتى يعثر على الجثة ثم يخرجها لأقرب شاطئ لأنه يكون قد هلك من البحث، يبلغ الشرطة في أحيان كثيرة قبل أهل المتوفي إن شعر بأن على الجثة علامات غريبة، وهذه إحدى مميزاته فهو على دراية بكثير من العلامات التي تدل على الاعتداء أو القتل ودفع المتوفي للمياه قهرًا وهو حي.

كان (عزت) يقف بجانب الجثة يتحدث مع أحد رجال عائلة (الحوفي) ويقول بنفاد صبر:

- مش هابلغ المركز لا، دا ابن كبير عيلة (الزهراوي) وأنا مش عايز مشاكل.

- أيوه بس لازم المركز يثبت حالة وياخد شهادتك.

- هو أنا هاخاف من الحكومة، لو اتعملت قضية أنا هاشهد إن التيار سحبه من (باسوس) لحد هنا، دا بقاله يومين في الميه.

- هو مات إزاي؟

- فيه علامة خنق على رقبته.

نظر الرجل للجثة وقال:

- مش باين حاجة.

- اسمع مني، ده اتخنق ومات قبل ما تترمي جثته في البحر، حد منكم والنبي يتصل بالرقم ده ويسأل على (عباس) ويقوله إني لقيت الجثة ويوصفله مكاني، أنا مش هاقدر أجدف تاني إلا لما أريح كام ساعة.

كان يعطي الرجل ورقة أخرجها من جيبه بها رقم الهاتف، اكتفى (فايق) من مشاهدة هذا المشهد وإن كان شعر بقليل من التشاؤم حين لمح الجثة، سمع أحد الأهالي يقول بتعجب "(عزت) ده الوحيد اللي بيفلت من (شق البحر) كأنه مخاوي جن".

عاد أدراجه لطريق الطاحونة حتى وصلها ففتحها وبدأ تشغيل أول مطحنة ليختبر سرعتها في انتظار العمال.

انقبض قلبه فجأة وهو يشعر بعزيزة، كأنه يشم رائحتها ويشعر بلمستها، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وأكمل اختبار المطحنة الثانية فأحس بأنه يسمع صوتها في عقله، لا ليس صوتها بل صراخها.

دخل اثنان من العمال للمطحنة يلقيان عليه تحية الصباح فلم يرد عليهم وانزوى على نفسه في أحد أركان الطاحونة لدقائق يحاول إبعاد تلك المشاعر عنه، أهو التشاؤم من رؤية جثة الغريق!!! لم يقدر على التحمل فغادر الطاحونة عائدًا للدار.

قبل أن يرى المنزل على مرمى البصر سمع صويتًا وعويلًا وحركة غير طبيعية من نساء ورجال، ركض بأسرع ما يمكن حتى وصل للمنزل المزدحم فأبعد الناس حتى وجد (مسعد) نسيبه بعيون دامعة يقف على باب غرفة (جاد) حماه، لم ينتظر ليسمح له وفتح الباب

ليجد (جوهرة) تفترش الأرض باكية مولولة تلطم على خديها.. وعلى الفراش (عزيزة) تحتضن جثة أبيها وهي ترتعش من هول اللحظة وفي حالة أقرب ما تكون إلى الجنون منها إلى البكاء.

جاءت عيناها في عينيه فعادت للعالم لثوانٍ تقول فيها بين ألمها:

- لقيته بيكلمني وأنا نايمة ويقولي مع السلامة يا حبيبتي، فتحت عيني ملقتهوش، جيت الأوضة أصحيه لقيته مات.

***

ظَلمَ الناسَ وسَبَّح

(1)

أشرق الصبح على قرية (أبو الغيط)، لكنه حمل الغم والهم لإسماعيل بك السكران، لم ينم ليلته بل قضاها في الصلاة، حتى زوجته حضرت لقاعة الحسابات التي بها مكتبه وحاولت إقناعه بالعودة معها لكنه رفض بأدب وشدد عليها بأن لا تغادر الحرملك لأي سبب حين تشرق الشمس، هي تعودت على هذه الأمور في حياة أمراء المماليك، ناهيك عن أنها هي نفسها كانت إحدى جواريه العذارى لكنه أعتقها ليتزوجها وتنجب له ابنتيه.

تركته لصلاته التي أداها لساعات حتى سمع أصوات حركة الجنود أمام بوابة القصر، فتح المشرفية (النافذة) في غرفته ليرى عشرات من مماليكه ومماليك (أيوب) يتجمعون في شكل صفوف كلٌ منهم يقف بجانب فرسه ويحمل عدة الحرب كاملة وهذا الأخير يمر عليهم بنفسه يدقق على كل شيء يخصهم ويتأكد من غدارة كل مملوك ومدى نظافتها وصلاحيتها لإطلاق الرصاص ومن البنادق والسيوف والرماح.

لم يزده كل هذا إلا قلقًا، جلس على مقعده خلف المكتب لبرهة حتى دخل عليه (أيوب) وهو يرتدي دروع الحرب والخوذة ويحمل غدارة في كل جانب من حزامه وكيس طلقات الرصاص معلق بحزامه بجانب جعبة البارود ذات الشكل المخروطي.

- كله تمام يا بك.

رفع (إسماعيل) رأسه ببطء وسأل:

- عدد الجنود كام؟

- 230 مملوك مجهزين بخيولهم وسلاحهم وتعيين الأكل والميه اللي يكفيهم يوم بحاله، وعينت على راس كل 40 مملوك مقدم من أمراء المعارك.. وعيلة (الصولي) هاتستنى في شكل كماين وسط الزرع ويستنوا أوامرنا باستخدام جرار الزيت بالنار.

- شكلها هاتبقى معركة حياة أو موت.

- إحنا بندافع عن إقطاعنا وده حق لينا، شيخ البلد وأتابك العسكر ميقدروش يلومونا.

فجأة سمعا صوت انفجار يأتي من بعيد فقفز (إسماعيل) من مقعده إلى المشرفية وتبعه (أيوب) الذي قال:

- دا صوت طلقة مدفع.

أشار (إسماعيل) بيديه في اتجاه ما وهو يقول:

- الصوت جاي من هنا.. يعني من قرية (باسوس).

- مش ممكن.. إزاي تجريدة (رضوان الفحل) معاها مدفع، التجريدة كلها خيالة في الأصل.

انطلق صوت انفجار جديد فنظر له (إسماعيل) وهو يقول:

- دول مدفعين مش واحد، مستحيل الطوبجية يضربوا طلقتين بنفس المدفع في الوقت القصير ده.

ظلّ (إسماعيل) ينظر بعيدًا في اتجاه قرية (باسوس) قبل أن يقول بيأس:

- خلي المماليك يقلعوا دروع الحرب ويخففوا تسليحهم للحالة الطبيعية.

- إنت بتقول إيه؟

قالها (أيوب) باستنكار فردّ عليه (إسماعيل) بنفس طبقة الصوت الميتة:

- الأمير (رضوان) مش جاي علشان يخوفنا، دا جاي يحارينا ومجهز نفسه.

- يبقى نخرج مدافعنا من السلاحليك.

- برضو هايغلبنا، هايدك قصرنا بمدفعيته وهو برة القرية.

- يعني هنسلم!!!

- آه.. اعمل اللي أمرتك بيه، وخلي عيلة (الصولي) مايظهروش النهاردة، مش عايز (رضوان) يقول عليا إني باستعين بأولاد البلد بدل المماليك.

بانكسار هز (أيوب) رأسه بالطاعة وكاد أن يغادر إلا أن (إسماعيل) قال بقهرة:

- وافتح الخزائن بتاعتنا واعملي حصر مبدئي باللي فيها علشان هاندفع النهارده كتير.

***

وقف الأمير (رضوان الفحل) ذو الستين عامًا وسط رجاله

يدخن البيبة وينظر إلى منطقة بقرب النيل وهو على مشارف قرية (باسوس) ويحدّث مرشدًا مصريًا بجواره باللهجة المصرية والتي كان يجيدها ويحب التحدث بها في كل وقت.

- في الاتجاه ده يا حضرة الأمير هتلاقي قبة ومقام سيدي (سيف الدين المغربي).

قالها المرشد وهو يشير بيديه للأمام"

- الناس هنا في (باسوس) بيحبوا سيدي (سيف)؟

- أومال.. بيحبوه أوي، دا كان من أتباع السيد (أحمد البدوي)

- شيء لله يا شيخ العرب يا بدوي.. وبينا وبين القبة قد إيه؟

- تقريبًا مسافة 250 ذراع.

- على بركة الله.

نظر (رضوان) إلى الطوبجية الذين نصبوا المدفعين وطلب من المجموعة الأولى منهم أن توجه المدفع بمقاييس محددة، فعلوا ما طلب، أمسك بمنظار مقرب من أحد الطوبجية ونظر بداخله وهو يقول:

- أنا تقريبًا شايف القبة اللي بتقول عليها.

وبيده التي تحمل عصا التدخين أعطى إشارة الإطلاق وهو ما زال ينظر في المنظار، أشعل الطوبجية الفتيل وانطلق المدفع، سقطت القذيفة محدثة دويًا هائلًا وتعالت الأتربة والغبار.

- للأسف القنبر نزل قبل القبة، جهزوا المدفع التاني.

قامت المجموعة الثانية بتنفيذ الأمر وأعطاهم إحداثيات جديدة ثم أمر بالإطلاق، سقطت القذيفة بقرب القبة بعشرة أمتار، لكن في تلك اللحظة صوت صراخ النساء وعويل الرجال غطى على الانفجار، طلائع الرجال تأتي من داخل القرية ملوثين بأتربة الانفجار وبعضهم يحمل النبوت والبعض يحمل سكينًا.

أمر (رضوان) بعض من حملة البنادق بالاصطفاف وتوجيه بنادقهم للأهالي للإطلاق، الرصاصات اخترقت أبدان الأبرياء فارتبكوا وتفرقوا لكن بعضهم صمم على التقدم.

إلا أن حدثًا ما أوقف المتقدمين عن الحركة حين سمعوا أمرًا يأتي من بعيد يقول:

- الأمير (علم الدين) يأمركم بالرجوع.

ظل المنادي ينادي بها فتوقفوا، ومن خلفهم أتى عشرون مملوكًا على الخيل يتقدمهم رجل في الخمسين من العمر يرفع يده اليمنى ويقول:

- أوقف الضرب يا أمير (رضوان)، أنا الأمير (علم الدين)

بأوامر من (رضوان) عاد الجند لوضعهم الأول وهذا الأخير يفتح ذراعيه على إتساعهما وبابتسامة عذبة قال بنبرة عالية:

- صديقي القديم (علم الدين)، لازم أجيلك الإقطاعية بتاعتك علشان أشوفك!!!

وقف (علم الدين) بحصانه أمام جنود (رضوان) ونزل وهو يمشي

بعصبية ويقول:

- إيه اللي بتعمله ده يا (رضوان)؟

سحبَ نفسًا من البيبة وأخرجه باستمتاع ثم قال:

- أصلي شفت مجرم هربان بيتمشى في (باسوس) قلت أضربه بالمدفعية علشان ما يسرقش الأهالي، تعرف كان هربان من إيه؟؟ دفع الضرايب المتأخرة.

- رسالتك وصلت يا أمير.

- رسالة إيه يا صديقي؟

- إيه المطلوب مني؟

- فيه شوية أخطاء حساب في مكاتبات الضرايب اللي قدمتها من 3 شهور.

- أنا ضرايبي مظبوطة.

- لا... عليك 400 كيس (دينار) و300 كيس (فضة)، و150 كيس (ليرة).

- إحنا ما بندفعش بالليرة العثمانلية.

- هاخد بقيمتهم دهب، أو بهايم وعلف وفروج.

- إنت طالب قد اللي دفعته من 3 شهور يا أمير، دا حرام.

لم ينتبه (رضوان) لكلماته وهو ينظر للرجال من أهالي (باسوس) الذين نجوا من طلقات الرصاص ويشير إليهم بالبيبة قائلًا:

- واجمعلي الكلاب دول هاخدهم معايا، عايز أعلّمهم الأدب في حضرة مبعوث شيخ البلد.

- إنت بتعتدي على صلاحياتي يا (رضوان)، (باسوس) اختصاصي ومش من حق حد يعاقب أهلها إلا أنا.

أمر (رضوان) رجاله بالقبض على رجال القرية بالقوة وبدأت اشتباكات بالسلاح بين المماليك والرجال و(رضوان) ينظر لعلم الدين ويقول بابتسامة صفراء:

- معلش يا صديقي مكنتش سامعك، قولي هاتدفع بنفسك ولّا أدخل البلد وأتصرف بطريقتي؟؟؟

***

على مدخل قرية (أبو الغيط) وقف (إسماعيل) و(أيوب) وعشرون مملوكًا على صهوة جيادهم وكل مملوك يحمل بين يديه صندوقًا صغيرًا مزخرفًا، شمس الظهيرة فوق رؤوسهم والملل يحاوطهم منذ خرجوا لاستقبال الأمير (رضوان) من ساعة.. أراد (إسماعيل) أن يستقبله بنفسه لأن عيونه في قرية (باسوس) وصلته منذ ساعتين وأخبرته بغدر (رضوان) بأهل القرية من خارجها.

لا شعوريا تحسس (أيوب) غدارته عندما رأى سحب الأتربة تعلوا في الأفق، ظهرت طلائع تجريدة (رضوان) وهو على رأسها يسير في خيلاء وبرغم سنه الكبير إلا أن عينيه توقفتا عند (إسماعيل) كأنه يراه جيدًا من مسافة بعيدة.

بمجرد اقتراب التجريدة التي ظهر وسطها رجال من قرية

(باسوس) مكبلين بالحبال وعلامات الضرب على وجوههم شنيعة، ملابسهم مقطعة وتغرق في الدماء، وبجانبهم عشرات الخراف والبهائم مربوطون بالحبال نفسها، أمر (رضوان) رجاله بالتوقف وتقدّم بحصانه حتى وصل إلى (إسماعيل) وقال بصوت عالٍ وفرحة عارمة:

- عاش من شافك يا أمير، واقف بنفسك في استقبالي!!! أكيد ربنا راضي عني.

- أهلًا يا (رضوان) بك، اسمح لي أقدملك هدية بسيطة لشخصك الكريم كنوع من الترحيب.

أشار (إسماعيل) لمماليكه ففتح كل واحد الصندوق الذي يحمله ليظهر من داخلهم مختلف أنواع المجوهرات والمشغولات الذهبية والأحجار الكريمة، صاح (رضوان) بسعادة:

- إنت المفروض تبقى شيخ بلد مصر.. مكنتش أتخيل إنك بالكرم والجود ده كله.

ثم مثّل بوجهه المتغضن معالم الحزن وهو يقول:

- كرمك وحبك ده كان عكس اللي عمله معايا الأمير (علم الدين) في (باسوس)، فهمني غلط، وزعلني، ومرضيش يدفع بالتي هي أحسن في الأول، طبعًا أنا أقنعته بطريقتي ودفع كل المتأخرات عليه بس بطريقة صعبة، الله يكون في عون مماليكه دلوقت.

حاول (إسماعيل) أن يتجلد وهو يسأله:

- مصير الأمير (علم الدين) إيه؟

- لسّه في (باسوس) معزز مكرم، لكن مماليكه اشتبكوا مع التجريدة، الله يرحمهم، أظنه هايحتاج يشتري جلبان جداد ويدربهم، تصدق بالله يا أمير إنه عرض عليا أفطر معاه وأنا رفضت، كنت واثق إني هاكل معاك النهارده.

قال (أيوب) بسرعة:

- البيت بيتك والخير خيرك يا بك.

- أكرمك الله يا (أيوب) بك، بالمناسبة إنتوا عرفتوا إني جاي إزاي؟

ردّ عليه (أيوب):

- وهل فيه أكرم من أخبارك تنتقل لينا من أول الصبح، صيتك يسبقك يا بك.

نظر (رضوان) لإسماعيل وقال بخبث:

- أنا علمت إن (عثمان) بك (الكلاري) زارك إمبارح زيارة ودية.

- (عثمان) بك صديق شخصي من زمان.

- الحمد لله إنك شفته إمبارح وودعته، أصلي سمعت إنه لما رجع المحروسة اتكعبل في الضلمة ووقع في النيل هو وحصانه قبل ما يوصل بيته، الله يرحمه، عظم الله أجرك.

تمالك (إسماعيل) نفسه واستطاع أخيرًا أن يبتسم وهو يقول:

- غفر الله ذنبك يا أمير، يالا بينا ناكل حاجة قليلة من خيرك.

- العفو.. الخير خيرك، بعد الأكل والقهوة نتكلم في متأخرات

الضرايب اللي على إقطاعك.

- مفيش بينا اختلاف يا أمير، ومماليكك تتفضل علشان تنورنا في قاعات الضيافة.

- لا.. أنا ومماليكي عايزين نتمشى شوية في (أبو الغيط)، اسبقنا إنت على قصرك العامر وإحنا لما ناخد وقتنا هانجيلك، وأتمنى تبلغ مماليكك تتجنبنا.. بعد إذنك طبعًا.

يريد (رضوان) بسط سيطرته على القرية حتى و(إسماعيل) يقدم له فروض الولاء والطاعة، الحكاية أشبه بالحيوان الذي يتبول في موقع ما ليضع علامته على السيطرة، و(رضوان) سيتبول في القرية كلها، برغم الإهانة الشديدة أشار بيده لداخل البلدة وهو يقول:

- البلد بلدك.

***

كان نائمًا لكنه استيقظ لسبب لا يعلمه، فتح (نوح) عينيه ودعكهما، خرج من غرفة نومه وفتح نوافذ ساحة الاستقبال، حين تأمل ضوء الشمس أدرك أن صلاة الظهر فاتته، بدل ملابسه وغادر داره في إتجاه زاوية الصلاة وهو يفكر في الوقت المناسب هذه الأيام ليعيد كتاب السحر المطلوب نُسخُه للمكتبة ويعتذر لهم.

فوجئ بمماليك على الجياد بملابس زرقاء، شك أنهم لا ينتمون لمماليك (إسماعيل) لأنهم يسيرون بلا هدى وكأنهم يبحثون عن شيءٍ ما، دقائق من السير ورأى رجلين من الفلاحين بجانب أرضهما يشتمون مملوكًا من مرتدي اللون الأزرق وهو يشتمهم بخليط من

اللهجة المصرية والعثمانلية.

أكمل طريقه ليتوقف عند ساقية ماء؛ لأن الواقف بجانبها كان شخصًا يعرفه، (حمودة) الذي أتى له بالطعام أمس، يقف بالصديري الأبيض والسروال الأبيض أي إنه كان يعمل في الأرض، وبجواره الجاموسة المربوطة في الساقية وتلف فتدور الساقية.

وأمامه ثلاثة مماليك زُرق يحاولون فك البهيمة وهو يمنعهم، أحدهم أخرَجَ كرباجًا قصيرًا من ملابسه، لماذا يحملون هذا الكرباج معهم، لقد كانوا نمطيين حتى في عصرهم، رفع المملوك الكرباج وأنزله على وجه (حمودة) فلم يصب وجهه، وعلى الفور انحنى هذا الأخير وأمسك بحفنة من التراب الجاف وألقاها في عيونهم.

دخل التراب في عيونهم بفعل الرياح إلا واحدًا منهم والذي هجم عليه (حمودة) وأسقطه أرضًا مشتبكًا معه بيأس، لكن المملوك أفلت منه وركله في وجهه واستطاع السيطرة عليه أرضًا.

أحد المماليك الباقين سحب من حزامه بوقًا صغيرًا ونفخ فيه فانطلقت نغمة طويلة مزعجة.. كل هذا و(نوح) يفكر هل يبتعد عن هذا الجنون أم ينتظر، ناهيك عن أنه لام (حمودة) قليلًا على مغادرة منزله اليوم خلافًا لتعليمات (إسماعيل) التي سمعها في المسجد ثم لامَ نفسه لأنه غادر هو الآخر.

من لا مكان ظهر أربعة مماليك بالملابس الزرقاء، إذًا فهذا البوق لاستدعاء أقرب المماليك، وفعلًا ظهر أكثر من مملوك بل وظهر أهالي القرية يشاهدون ما يحدث والمماليك حول (حمودة) المثبّت على الأرض يكيلون له الضربات وبعضهم يطلق أبواقًا يحملونها.

صعد الدم فجأة لرأس (نوح) وهو يصرخ بالتركية:

- شيلوا إيديكم عنه يا أغبياء.

توقف بعضهم ونظروا له، في نفس الوقت كان (رضوان) على ظهر جواده يأتي من بعيد يتفرج على المشهد وحوله مماليكه والذي أمرهم بأن يتوقفوا. تقدّم (نوح) إلى المماليك المحيطين بحمودة وسألهم بعصبية مفرطة:

- إنتوا مين وإيه اللي إداكم الحق تضربوا الراجل ده؟

تقدّم منه أحد المماليك ونظر لملابسه التي تشي بأنه ليس من القرية أو لا يمارس مهنة الفلاحة على الأقل، وقال بتكبّر وبالتركية بلهجة ريفية:

- إحنا تجريدة الأمير (رضوان)، إنت إزاي تتكلم معانا يا حيوان؟؟

- إنت اللي حيوان وجحش مش فاهم حاجة، اللي زيكم ملعون عند ربنا دنيا وآخرة.

ثم نطق (نوح) بالعربية:

- {ألا لعنة الله على الظالمين} {إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم}.

قال بعض الأهالي بصوت غير مسموع: "صدق الله العظيم"، وقد تحفزوا بعدما سمعوا آيات عن الظلم، أخرج أحد المماليك غدّارته ووجهها إلى رأس (نوح) الذي قال بغضب ممزوج بخوف:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

بشكل لا إرادي تقدّم الأهالي ناحية المماليك و(نوح) والمملوك يسحب مطرقة الغدارة للوراء ويضيف إليها القليل من البارود من جعبة صغيرة، ضغط على الزناد فلم تطلق الغدارة الرصاصة بعدما انحشرت المطرقة، فقلب المملوك الغدارة في يديه وضرب بها كالهراوة على رأس (نوح) لتشج رأسه وتتدفق الدماء منها، حاول (نوح) دفع أقرب المماليك إليه لكنه ضرب على رأسه مرّة ثانية فوقع أرضًا، فهرولت الأهالي ناحيته وهم ينطقون اسمه مصحوبًا بلقب شيخ، فجأة هدر صوت (رضوان) من بعيد يقول باللهجة المصرية:

- انتباه يا (برتشك)، كل واحد يرجع لأوله.

بحركة آلية لا يشتهر بها كثير من المماليك تراصوا كلهم بجانب بعضهم وتوقف المشهد والمماليك والأهالي يرتقبون الحركة القادمة التي سيأتي (رضوان) بها، وفعلًا نزل من على فرسه وخطا بثبات حتى وصل لنوح ومد يديه ليرفعه وهو يقول:

- تأسفي لك يا شيخ.. إنت من المعممين؟

كان يسأله هل هو من شيوخ الأزهر بسبب ملابسه وعمامته التي وقعت بعد الضربة الأولى، مسح (نوح) الدماء من على عينيه وقال مداريًا ألمه:

- لا، أنا ناسخ كتب وخوجة.. إنت مين؟

نظر (رضوان) للأهالي المترقبين وتأمل عيونهم وهو يقول:

- الفقير إلى الله (رضوان الفحل)، إنت من (أبو الغيط)؟

- أبويا وجدودي من هنا ولسّه راجع إمبارح لداري.

- يا مرحب بيك.

ثم نظر لأحد المماليك وسأله:

- إيه اللي حصل؟

اقترب منه المملوك والذي كان أحد الثلاثة الذين اشتبكوا مع (حمودة) ووضع فمه بالقرب من أذنه، وقال بضع عبارات ابتسم بعدها (رضوان) وهو ينظر لنوح ويقول:

- المسألة خطأ من مماليكي وسيتم تداركه، اتكلمت معاهم بالتركية يا شيخ (نوح) صح؟

- أيوه.

ظهر (أيوب) على فرسه يجري ومعه اثنان من حراسه، توقف يراقب المشهد و(نوح) يساعد (حمودة) على النهوض وتنظيف ملابسه، و(رضوان) يقول:

- أهل البلد بيحبوك رغم إنك لسّه راجع من يوم، إنت فيك حاجة لله، حتى الغدارة كدبت لما انضربت عليك، والغدارة لما تكدب يبقى ربنا مش قاسم موتك النهارده.

تبع عبارته بإخراج غدارته من حزامه وهو ينظر للناس من حوله ليرى ردود أفعالهم فوجد عيونهم تطق شررًا، ثم ذهب ببصره لحمودة وهو يقول:

- يا ترى صاحبك اللي دافعت عنه، الغدّارة هاتكدب معاه؟!

صمت طويل اللهم إلا من خوار الجاموسة التي ملّت مما لا تراه، أعاد (رضوان) الغدارة لحزامه وهو ينظر لمماليكه ويقول:

- المملوك اللي غدارته كدبت يتقدم خطوة.

تقدّم المملوك فأشار ناحيته بيده وقال:

- يتم القبض عليه ويتحبس أول ما نرجع المحروسة لشهرين علشان ما نضفش سلاحه قبل ما نتحرك.

أمسك به زملاؤه وهو يصرخ بينما عاد (رضوان) لفرسه وهو يقول:

- مع السلامة يا شيخ، أتمنى ما نتقابلش تاني إلا في الخير.

ركب الفرس وسار بجانب (أيوب) وابتعدا قليلًا قبل أن يقول:

- (إسماعيل) بك بعتك علشان تعرف اللي بيحصل مش كده؟

- أنا سمعت النفير وجيت من نفسي يا أمير، إيه الحكاية؟

- الحكاية إن أهل البلد شافوا الأمل في الشيخ ده، ولو كنت قتلته كانوا هايثوروا.

- إنت بتبالغ يا بك.

ابتسم (رضوان) وقال:

- أنا عجوز يا صديقي، شفت اضطرابات وثورات ولاد البلد، عيون أهل (أبو الغيط) بتقول إنهم جاهزين، ولو اتعاملتوا غلط مع (نوح) هاتشوفوا مقتلة كبيرة.

- وإيه التعامل المظبوط في رأيك؟

- لازم (نوح) يموت بس من غير ما الأهالي تشوف اللحظة دي.

***

كم يتوق إلى اخراج صوت آآآه لكنه يأبى، تقلب (نوح) في فرشته في الظلام الدامس، الضمادات التي وضعها حلاق القرية على رأسه تؤلمه، أهل البلد أوصلوه إلى داره بعدما اطمأنوا عليه، لكنه ظل صامتًا حتى والناس تحتفي بمواجهته المماليك المعتدين.

كرامته تمرغت في التراب، ألمها أكثر من ألم الجروح، اليوم اكتشف أن الحياة الحقيقية قاسية، ذكرى ضربه من المماليك في (إمبابة) عادت له وقد تناساها مع الأيام.. تناسى أنه ضعيف لا يملك إلا لسانًا غير مؤثر يستخدمه فيهان فيهرب تاركًا كل شيء.

هل يرحل الآن؟ لماذا لا يعيش كبقية من حوله في استسلام، لماذا يلعب دور البطل كل مرة، لا كذب بعد اليوم، إنه ضعيف، سمع صوت طلقة تنطلق بالقرب من داره فنهض من فرشته خائفًا.

المفترض أن مماليك (رضوان) رحلوا من بعد المغرب ونحن الآن في منتصف الليل، صوت عويل وصراخ نساء، لا يعلم ما نوع الغباء الذي جعله يغادر داره برغم رعبه لكنه أراد أن يقف في الخارج فقط ليتبين ما حدث لبرهة قبل أن يعود للداخل من جديد، وجد بعض الناس تسير في جوف الليل وأحدهم ينظر له ويشير باتجاه ما ويقول:

- الصوت جاي من هنا يا شيخ (نوح).

أحرجه هذا الرجل عندما رآه، فهرول بجانبه حتى انضم لهم بعض الأهالي ووصلوا لمجموعة بيوت بالطين اللِّبِن وحول أحد البيوت تجمّع عشرون نفرًا على جثة في الأرض خارج منزل، وامرأة تصرخ بحرقة وتعيد وتحكي في قصة، اقترب حتى وصل للجثة.. إنه (حمودة) بملابس النوم ووجهه مغطى بالضمادات ويداه وقدمه اليمنى، لكن في وسط صدره ثقب رصاصة تخرج منه الدماء وأحد الرجال يضغط عليه بمنديل.

الغريبة أن (حمودة) كان ما زال حيًا، أو لو شئنا الدقة كان في النزع الأخير، تتحرك عيناه في كل اتجاه بلا هدى وشفتاه ترتعشان كأنه يتحدث بسرعة لكن لا صوت يخرج منه.. امرأته تحكي أن أحد مماليك (إسماعيل) ومعه اثنان من عائلة (الصولي) أيقظوهم وأخرجوه من المنزل، أخبروه أنه تعامل بقلة أدب مع المماليك وهذا عقابه ثم أطلق المملوك عليه رصاصة وغادروا.

عين (حمودة) المضطربة توقفت عند (نوح) فصرخ أحد الأهالي الباكين:

- ده عايز يقولك حاجة يا شيخ (نوح)، لا حول ولا قوة إلا بالله.

أفسحوا له الطريق فهبط (نوح) على ركبتيه معتزمًا أن يخفف عن (حمودة) ويلقنه الشهادة، لكن هذا الأخير قام بأغرب شيء، ربت على يد (نوح) مطمئنًا وصوته يخرج متحشرجًا وهو يقول:

- أنا كويس.

خرجت حشرجة من فمه بعدها وقبض على يد (نوح) بضعف

وترغرغت عيناه بالدموع ثم همدت حركته ببطء.

***

ما زلنا أمام دار (حمودة) لكننا في اليوم التالي بعد صلاة المغرب، من كل مكان أحضر أهل البلد عشرات المقاعد مختلفة الأشكال والأحجام ورتبوها في صفوف طويلة ليبدأ العزاء.

أتى الرجال من كل البلدة تقريبًا، كبار.. شباب.. حتى الأطفال، والنساء تدخل الدار لمواساة الأرملة وأولادها، لا نبالغ إن قلنا إنه من أكبر تجمعات العزاء التي مرت على القرية، تطوع أحد الأهالي لتأجير قناديل الزيت لنصبها أمام الدار، وتطوع (حمزة) بشراء البن وتأجير الأكواب، وتطوع الشباب لتقديم القهوة وصبها.

طبعًا دخلت صواني الطعام لبيت حمودة وأجولة دقيق وعدس وشعير وبعض مستلزمات الطعام مقدمة من أهالي البلدة، وتلك العادة لم تختفِ تمامًا في القرى المصرية حتى الآن.

جلس أحد قراء القرآن المتطوعين على دكة المقرئ المرتفعة وأخذ في التلاوة بصوت متوسط الجودة، والناس تزداد حتى إن البعض ظل واقفًا بسبب انشغال المقاعد.

كانت الحالة العامة هي الاكتئاب.. تعذيبهم من قبل المماليك حالة استطاعوا تحملها وتقبلها نسبيًا، أما قتلهم فهذا يغير قواعد اللعبة.

جلس (نوح) مصدومًا بملابس غير متساوية وكأنه لا يهتم حتى بلف عمامته بطريقة عادية، لا بكاء لكن صمت وعيون في الأرض، من مرّ عليه من أهل البلد صافحه وعزاه وكأنه والد المقتول، لكنه لم

يرفع عينيه في عين أيٍّ منهم، هو نفسه لا يدرك ما الذي أصابه، عقله خاوٍ تمامًا، السواد يحيط به كأن خياله غرفة مظلمة يجلس فيها وحيدًا، لا أفكار، لا مشاعر، الصدمة هي الحالة التي لم يخرج منها.

انتهى المقرئ من قراءة ربع جزء من القرآن فنزل من على الدكة، وجلس على مقعد جانبي يريح صوته، أحد الجالسين بالقرب من (نوح) قال بتعشم:

- ما تقوم تقرالنا ربع يا شيخ (نوح) وتدعي لحمودة.

قال آخر:

- الله يرحمه كان بيحبك، عينه مشافتش حد قبل ما يموت إلا إنت.

وانتشرت العدوى بين الجميع، يطالبونه بالنهوض والجلوس على دكة المقرئ.. حتى إن (عنتر) الذي وقف من أول العزاء بجانب الصفوف حزينًا صرخ مع الناس قائلًا:

- قوم يا عم (نوح).

لا تعرف من هو (عنتر)؟؟ نسيت إخبارك، هو شاب في نهاية المراهقة أو ربما في العشرينيات من عمره، لا أحد يعلم لأنه أتى القرية طفلًا بلا ملابس وبجسده العديد من التقرحات والجروح، يعاني تخلفًا عقليًا وبعض المشاكل الإدراكية لكنه يتحدث بشكل جيد ويحفظ كل شيء، عطف عليه الأهالي وعالجوا جسده وألبسوه الملابس وأطلقوا عليه هذا الاسم، تطوعوا بإطعامه بالتناوب وفي البداية جعلوه يسكن منازلهم لكنه كان يثور ويسب ويبكي ويصرخ ويطالب بالخروج، فهموا مع الوقت أنه يريد حرية الحركة في القرية

والنوم مكان ما يشاء وإن كان يختار على الأغلب النوم داخل الزوايا والمساجد، ومع مرور السنين كبر (عنتر) وصار شابًا قويًا له ملامح وسيمة وما زال إدراكه متأخر كأنه طفلٌ في الخامسة.

لكنه كان مؤدبًا بشكل غريب ولا يضايق أحدًا بل وكثيرًا ما شعرت نساء القرية بالأمان في وجوده بقربهم حتى إن بعضهن يطلبن منه أن يرافقهن للسوق كأنه حارس خاص، كل رجال القرية بالنسبة له (عم فلان) وكل نساء القرية وحتى الفتيات يناديهن بـ (عمتي فلانة)، ينطلق طوال النهار في القرية يساعد من أراد مساعدته وأحيانًا يؤدي الصلاة في الزوايا والمساجد إلا مسجدًا واحدًا لا يدخله.

يتولى الأهالي تقديم الطعام بعد سؤاله عن الجوع أو الشبع، وكل يومين يأخذه أحد الرجال تطوعًا ليتحمم بقرب ساقية المياه المهجورة ويعطيه ملابس جديدة ليبدلها مع القديمة، باختصار هو ابن القرية حرفيًا ومسؤوليتها وبركتها على حسب تصور الأهالي الذين يفرحون بمجرد رؤيته بجانبهم.

فعل (نوح) مثلما طلبوا وكأنه منوم مغناطيسيًا، خلع نعليه وتربع على الدكة وعينه لا تغادر الأرض، كان المعتاد أن يقرأ من الجزء الذي انتهى منه المقرئ السابق، وبرغم أن (نوح) لم يقرأ القرآن في عزاء من قبل لكنه عرفَ الترتيب، لكن العجيب أنه تنحنح وقرأ من بداية آية محددة في سورة (البقرة):

- الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.

نادى أحد الناس من بعيد يطلب أن يعلو الصوت قليلًا، فأعاد (نوح) الآية بصوت أعلى وبتجويد محترف لا يعرف كيف تذكره من وقت تعلمه إياه في المراهقة.. صرخ أحد المعزيين "الللللللله"، فأعادها (نوح) ثم توقف، ارتعش جسده وبكى... أصبح للبكاء صوت مسموع وهو يعيد الآية القرآنية من جديد.

وكأن حركة الناس توقفت وهم يتأملونه ببعض الدهشة المختلطة بالرهبة، وهو يرفع عينه المغرقة بالدموع لأول مرّة منذ جاء العزاء ويتركها تلتقي بعيونهم وبكاؤه يتوقف.

صمت مقدس لم يستطع أن يكسره إلا (نوح) نفسه بعد زمن طويل وهو يقول باللغة العربية ولا يعلم لماذا وبنبرة سمعها الجميع:

- إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها. وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وقد دخل المماليك قريتنا، لكنهم ليسوا الملوك، بل العبيد البيض، ملكونا نحن الأحرار وأطعمونا الذل بدون ذنب.

ما زال الناس يحملقون فيه كالبلهاء وهو يكمل بثبات:

- (حمودة) دافع عن بهيمته ضد مماليك من خارج قريتنا فاعتدوا عليه، وبدلًا من أن يحميه (إسماعيل) ويكافئه قتله، والسبب لأنه دافع عن نفسه أمام مملوك غريب، ليحفظ هيبة المماليك حتى ولو لم يكونوا رجاله.

انسل المقرئ الذي كان يجلس بجانبه وغادر العزاء بسرعة، وتبعه بعض الرجال الذين انسحبوا بأسرع ما يمكنهم و(نوح) لا يتوقف.

- رجال (إسماعيل) قتلوا (حمودة)، أي إن (إسماعيل) هو المسؤول

عن قتله، وعلى أهله أن يختاروا بين دفع الدية، أو القصاص، والقصاص في موت (إسماعيل).

ظهرَ صوت بكاء شديد فنظر (نوح) ناحية الصوت ليجده (عنتر) يرتعش ودموعه تنهمر.

***

- قلتلك بلاش تقتل الفلاح ده.

قالها (أيوب) بغضب مكتوم لكن (إسماعيل) الذي كان يجلس على أريكة قاعة الحسابات ردّ ببرود:

- أمّال عايزني أثق في نصيحة (رضوان)، أقتل (نوح) في السر.

باستهزاء قال (أيوب):

- ودلوقت يا بك إيه العمل؟؟ (نوح) قلب البلد علينا في عزا الفلاح، ومينفعش تقتله في السر ولا العلن.

بنفس البرود قال (إسماعيل):

- أنا أقدر أقتله في أي حالة، لكن مش دلوقت.

- لو سمحت يا بك سيبلي من النهارده التعامل مع الأزمة.

- مفيش مانع، لكن تبلغني أول بأول بأفعالك، وإوعى تقتل (نوح) إلا لما أوافق.

لم يرد (أيوب) وخرج متعجلًا يجتاز طرقات القصر حتى خرج للحديقة يجمع الحراس ويخبرهم بأوامر محددة، أحد الحرس هو

(قاسم) الذي تلقى الأوامر بنوع من الدهشة خاصة أنه وحارس ثانٍ يدعى (خيري) يجيدان اللهجة المصرية كلفا بأمر خاص وعليهما بتنفيذه من الصباح الباكر.

عاد (أيوب) للقصر وخرج (خيري) و(قاسم) من البوابة الكبيرة إلى المصطبة التي يستخدمها (رجب) وعائلته وقد أشعلوا نارًا للتدفئة وعمل القهوة.

- أهلًا يا (قاسم)، وإنت يا (خيري) مشوفناكش من أول إمبارح.

كانت هذه من (رجب) الذي أمسك جوزة تدخين في يمينه ورفع يده اليسرى للأعلى للتحية، قال (قاسم) بجدية:

- (رجب) فيه أوامر جديدة ومهمة لازم تتنفذ.

- طبعًا أوامر بخصوص الشيخ الأهبل اللي اسمه (نوح)، إيه البكوات عايزينه يموت الليلة.

- لا، فيه أوامر هايخرج بيها المنادي بكرة يلف البلد، من بعد صلاة العشا لحد الصبح هاتخرج دوريات تفتيش وضبط وربط، أي واحد ماشي في البلد هايتقبض عليه ويتحاكم.

- يعني (نوح) مش هايموت!!!، والله إنتوا بتصغّروا نفسكم.

- بطل غلبة، (نوح) هايتمنع من الخروج من بيته، وممنوع الأكل والمية يدخلوله لحد ما الأوامر تقول عكس كدة، وأنا و(خيري) هانحرس بيته ليل ونهار وإنتوا هاتساعدونا.

***

(2)

تمر الأعوام بسرعة تكاد تصيبني بالجنون، حتى أنا لا أصدق أنني اشتريت في عام 2001م أنا وزملائي في المرحلة الإعدادي دجاجة مشوية ومشروبات ودفعنا 10 جنيهات، كأنه حدث بالأمس.

أترك تخيلاتي عن الطعام الآن ولنرى في أيِّ عصرٍ نحن، إنه العام 1974 في نهاية شهر (إبريل)، المكان هو مؤسسة (أخبار اليوم) الصحفية المملوكة للدولة، في الطابق الأرضي بوفيه صغير يخص العاملين في المؤسسة، لم يكن كالبوفيه الذي يخدم طوابق الصحفيين والمحررين وكتاب الرأي في الفخامة والإمكانيات حتى إنه يستطيع إعداد وجبات الطعام، ولم يكن كالبوفية الذي يخدم الإداريين والأرشيف، إنه بوفيه صغير جدًا يقدم الشاي والقهوة والكولا الساخنة ويبيع بسكوت محلّي الصنع يسمونه في مصر باسم (خشبكو) كتدليل للفظة خشب لأنه بلا طعم وصعب الكسر.

هذا البوفيه مخصّص للعاملين في التنظيف والأمن إلخ إلخ، يقف الشاب الصعيدي الذي يعاني من سوء تغذية بجانب الكاونتر يغلي الماء لمن يطلب الشاي وهو يحادث هذا الرجل الجالس على مقعد بلاستيكي قذر، الرجل لم يكن سوى (مؤنس محفوظ) الصحفي وكاتب الرأي في جريدة أخبار اليوم وصاحب الباع الطويل في إصدار مجموعة من الكتب والروايات والمجموعات القصصية والتي كانت تباع في لمح البصر لمحبيه وقرّائه على مستوى مصر والدول العربية الأخرى، وطبعًا ليس اسمه بالكامل هو (مؤنس محفوظ) بل هذا هو اختياره لاسم شهرته، اسمه + اسم جده لأن تلك الخلطة

جعلت اسمه أكثر جاذبية.

في الثانية والأربعين هو، أشيب الشعر قليلًا حليق الوجه دائمًا يرتدي نظارة طبية.. وسيم كنجوم السينما، يرتدي أفخر الملابس دائمًا، ولتكتمل الصورة النمطية التي تغيظني فهو يدخن السيجار الصغير.

كأنه رجل أعمال ثري في أفلام التسعينيات، ليلتك سوداء لو سألته عن هذا السيجار الغريب، سيصر على أن اسمه (سيجاريلو) وليس (سيجار) وسيلقي عليك محاضرة عن تاريخ السيجار في القرون الوسطى وكيف أنه بذل مجهودًا مضنيًا في شبابه للإقلاع عن السجائر العادية والاستقرار على السيجاريلو، ثم محاضرة أخرى عن جمال وعظمة السيجار كمفهوم للتدخين، وكيف أنك لا تدخله لرئتيك بل تكتفي بنفخه في الهواء والنيكوتين سيتجمع داخل حلقك من تلقاء نفسه.. طبعًا لن يحكي لك عن سرطانات الفم والتي اتخذها كمستقبل بديل لسرطان الرئة.

الجميع يعرف أنه يكسب جيدًا من مقالاته وكتبه ويصرف كل ما يأتيه على السفر للدول الأوربية والملابس والسيجاريلو الذي يدافع عنه كولده، لكنه فشلَ في الزواج، تزوج في شبابه وبعد ثلاثة أعوام حدثَ الطلاق، لم يخفِ عن المحيطين به سبب الفشل، لأنه لا يستطيع الإنجاب، ببساطة خير زوجته واختارت الانفصال وهي الآن زوجة وأم وتعيش كما حلمت، وهو أيضًا يعيش كما يحلم، يستمتع بكل قطرة في الحياة وساعده في ذلك عدم وجود أسرة يصرف عليها ما يكسبه، حتى أبوه لم يربِه تقريبًا وابتعد عنه حتى

مات وهو في التاسعة عشرة، وأمه ماتت بالفشل الكلوي وهو في العشرين من عمره وليس له أشقاء.

لكنه يواجه أزمة ككاتب في السنوات السابقة، فما يقدمه هو خليط من كل شيء، يكتب في السياسة والاقتصاد وينشر مسرحيات وروايات، وكلها تتميز بخفة اللغة وبساطتها مع صغر حجم المحتوى، منذ عشر سنوات تقريبًا قام بترجمة بعض القصص الخوارقية من كتب اشتراها من أوروبا، لم تكن كتبًا هامة في بلدانها، لكن مع صياغته لتلك القصص في شكل مقالات انتشرت بشكل واسع لدرجة أن مؤسسة أخبار اليوم طبعتها في شكل كتاب اكتسح المبيعات، اشترى مجموعة ثانية من تلك الكتب ودارت نفس الدائرة وحصد نجاحًا أكبر من المرة السابقة.

ووقع في الفخ، مقالاته وكتبه الأخرى ما زالت ناجحة لكن الجميع يطالبه بإكمال حكاياته عن الخوارق والظواهر الغريبة والمخيفة، الأشباح.. التخاطر.. قراءة الطالع.. الأطباق الطائرة.

أصدقاؤه الكتاب والصحفيون أنفسهم يطالبونه بالغوص أكثر في هذه العوالم، ناهيك عن معارفه من الممثلين والشخصيات العامة وحتى رجال السياسة، لم يصدق أن الرئيس (أنور السادات) يقرأ تلك المقالات بلهفة وطالبه منذ عامين بالإكثار منها في لقاء شخصي.

مرغمًا أكمل وأضاف لمكتبته عشرات الكتب من كل أنحاء العالم باللغة الإنجليزية والفرنسية اللتين يجيد قراءتهما ووجدَ نفسه مع الوقت يشعر بالألفة تجاه هذه الأشياء، أصبح كالخبير نظريًا فقط، كأنه رجل يحفظ وصفات الطبخ لكنه لم يجرب الدخول للمطبخ من

قبل، أو لنقل إنه دخل المطبخ وعبث ببعض الوصفات لكنه لم يفلح.

طبعًا صحفي بشهرته كان مدعوًا دائمًا في حفلات النخبة التي وجد بعضهم تسليته في أمورٍ تحضير الأرواح وقراءة الطالع، تعامل مع هؤلاء الذين ادعوا قدرتهم على التواصل مع العالم الآخر، وبدأت الحكاية بسؤال سأله لوسيط روحاني "أمي ماتت وأنا صغير، مكنش حد جنبيها إلا أنا، وقبل موتها على طول سألتها سؤال، تقدر تقولي إيه هو؟".

فشل الوسيط في إجابة سؤاله فأصبح هذا السؤال هو تميمة حظه، من يستطيع إجابة سؤال (مؤنس محفوظ)؟؟، لا أحد بشكل دقيق، أحدهم استطاع إبهاره وإخباره الكثير عن علاقته بأمه وأبيه لكن لم يُجِب عن المطلوب؛ لذا أصبح (مؤنس) هاويًا لهذا العالم وناقلًا جيدًا لتجارب الآخرين، لكن مشكلته تفاقمت مع الوقت.

أفكاره وإبداعاته -إن أطلقنا عليها إبداعات- لا تحصل على قدر جيد من الاهتمام عند النشر، هو الآن يجلس مع عامل البوفية كعادته يثرثر في اللا شيء ويستمع أكثر مما يتكلم، وقد أحبه العاملون في أخبار اليوم لأنه يتباسط معهم أكثر من بقية الصحفيين والكتاب.

- بس الله ينور عليك يا (مؤنس) بيه، الست (هيلجا) الفاجرة دي خليت نهايتها حلوة، تستاهل بنت الجزمة تموت متكهربة.

طبعًا العامل يتحدث عن مقالة قصصية عن الخوارق كتبها الأسبوع السابق نقلًا عن قصة ترجمها من كتاب بريطاني.

- شكرًا يا (فتوح)، بس دي مش قصة أنا اللي كتبتها وقتلت فيها

(هيلجا)، دي حكاية حقيقية حصلت في (اسكوتلاندا).

- بس قفلتها حلو يا بيه.

ثم وضع قدح قهوة رشفَ منها (مؤنس) مداريًا تأزمه من طعمها المضحك، ليس فيها شيئًا من القهوة إلا اسمها، ماذا يطحنون فيها ليغشوها.. لوبيا.

- إنت بتقرأ الجرايد يومًا بيوم يا (فتوح)، مسمعتش رأيك في مقالتي اللي كتبتها إمبارح.

- بتاعت حادثة الكلية الفنية العسكرية، أنا مش عارف ولاد الـ (.......) دول عايزيين مننا إيه ذنبهم إيه اللي ماتوا، شفت الأستاذ (فولي) كتب الاعترافات بتاعة العيال دي إمبارح يا (مؤنس) بيه.

- أيوه أيوه قريت مقالته، إنت رأيك إيه في مقالتي عن نفس الموضوع.

- حلوة.. بس أستاذ (فولي) جاب الحكاية من الآخر.

- ما هو أنا مقالاتي اسمها مقالات رأي مش توثيق.

- حلوة حلوة.. الحكاية الجاية هاتكتبها الأسبوع الجاي في معادك صح؟

- حكاية إيه؟

- حكاية جديدة فيها أرواح وكده.

نفخ (مؤنس) دخان السيجاريلو -كي لا يغضب منه- وشعوره بالإحباط يضغط على أعصابه، نهض وودع (فتوح) فقال هذا الأخير

بلوعة:

- القهوة معجبتكش يا نجم؟ هاعملك واحدة أحلى.

- لا يا حبيبي أنا معدتي تعبانة.

- أجيبلك فوار مهضم.

- لا أنا هاروح مشوار ورايا، أشوفك اليومين الجايين.

صافحه (فتوح) بحرارة كاد أن يخلع معها ذراعه، غادر (مؤنس) المبنى الكبير ووصل لسيارته المركونة موديل شيفرولية شيفيل موديل 1971 والتي كل مرّة يدخل فيها يشعر بأنه يواجه أزمة منتصف العمر، لكنه يحبها بلونها الأحمر الزاهي ويشعر معها بالانطلاق حتى وهو لا يحب القيادة بسرعات عالية.

بعد أقل من عشر دقائق وصل للمقهى الشعبي في وسط البلد الذي يقابل عليه أصدقاؤه، نظام بسيط للمقابلة، كل ليلة من الساعة الثامنة يأتي من يأتي ويتغيب من أراد، نوع من النضج أصاب شلة أصحابه منذ سنوات جعلهم لا يلتقون مجتمعين إلا بالاتفاق المسبق وغالبًا لحضور جنازة أو عرس، لكن الطبيعي أن يحضر لهذا المقهى من أراد كل يوم.

ألقى التحية على بعض الجالسين فردوها، على المنضدة المجاورة للنافذة الصغيرة التي هي موضعهم الدائم جلس العميد (رزق) يدخن معسل التومباك الصعيدي الذي يشتهر هذا المقهى بتقديمه، جربه (مؤنس) من فترة وكاد أن يسعل رئتيه من طعمه، كأنه يدخن ورق شجر يابسًا بالشطة.

اتخذ (مؤنس) جلسته بجواره وهو يقول:

- (رزق) باشا منور القهوة الليلة، مستحيل... اللي أعرفه إنّ وزارة الداخلية مقلوبة اليومين دول، وإلا طردوك خلاص!!

- فأل الله ولا فألك يا أخي، أنا جيت آخد كرسيين معسل قوام قوام ورايح المديرية.

- لسّه حوار الفنية العسكرية عامل أزمة؟

ضحك (رزق) ونفث الدخان سيئ الرائحة وقال:

- أزمة، دا فيه قيادات في الداخلية هتتغير واحتمال يلبسوا البيجامة ويقعدوا في بيوتهم.

- وإنت شاغل بالك ليه؟ إنت مش في مكافحة المخدرات؟ تلاقيهم بيشدوا عليكم كده منظر.

- وقت المصايب الكل ممكن ينضرب، أو ممكن يتنقل، آه أنا قريت مقالتك بتاعة إمبارح، شفت المعلومات اللي جبتهالك ظبطتك إزاي؟ أنا المفروض آخد نص اللي بتكسبه.

- ظبطت إيه.. هو حد حس بالمقالة، محدش كلمني عليها، لا بالخير ولا بالشر، كأنها ما تنشرتش من أصله.

نادى (رزق) على النادل ليغيّر حجر الشيشة ويحضر لمؤنس قدح من القهوة الزيادة كما يحبها ثم التفت له وقال:

- وهو إنت عايز الناس تسقفلك على كل كلمة تكتبها، احمد ربنا على النجاح اللي إنت فيه.

- الناس عايزاني أكتب عن العفاريت بس.

- ما تكتب يا أخي ومتقرفناش معاك، كل ما أشوفك هاتشتكيلي من الموضوع ده، أول مرّة أشوف حد بيشتكي من حب الناس.

ضحك (مؤنس) الذي تعود على طريقة صديقه العنيفة وقال:

- إنت مش هاتفهمني، آخرك تتعامل مع العساكر.

- ومالهم العساكر، بيفهموا أحسن منك.

تبع عبارته بابتسامة وأكمل:

- إنت مش من كام شهر قُلت هاتبدأ في كتاب جديد نوفي بيتكلم عن الأشباح والحاجات دي في مصر.

- بدأته وجمعت حكايتين بس مش عارف، خايف أفضل أكتب في الحاجات دي لحد ما أموت.

- ملكش دعوة بالمستقبل خليك في النهارده، ما يمكن تروح بيتك وتموت بالسكتة القلبية.. كمل كتابك، وطالما الناس حبت اللي بتكتبه عن العفاريت يبقى إنت بتكتب كويس.

- الله على حكمتك يا (رزق).. الدنيا عندك من غير مشاكل.

نظر (رزق) لساعته ووضع مبسم الشيشة جانبًا وهو ينهض ويقول:

- أنا هالحق أمشي أشوف اللي ورايا، فكر في اللي قولتهولك وابقى حاسب على الطلبات.

- وحياة أمك!!!

- آه دي بتسلم عليك أوي.

قالها وغادر المقهى تاركًا (مؤنس) ينظر للنافذة محبطًا.

***

لنترك (القاهرة) بمشاكلها وكُليّتها الفنية العسكرية وسيارتها الشيفورلية ولنعُد لحبيبة القلب قرية (أبو الغيط) التي لا تلقي بالًا للسياسة وظلت على عهدها في تجاهل (القاهرة) كما تتجاهلها هي.

لكن والحق يقال هناك بعض الاهتمام بالأحداث، إن أخذت جولة اليوم في عام 1974م في القرية العجوز لن تجد تغييرًا في البناء، لكن أكيد ستلاحظ بعد اللافتات القماشية عند بيوت بعينها وعلى كل لافتة كتب (شهيد حرب أكتوبر المجيدة).. قدمت القرية أكثر من 35 شهيدًا من أبنائها على جبهة القتال في حرب أكتوبر 1973م و40 مفقودًا لم تصرح القوات المسلحة المصرية عن حالتهم حتى الآن، لا تنسَ أن اتفاقية وقف إطلاق النار كانت منذ بضعة أشهر وما زالت القوات المسلحة على نفس درجة الاستعداد.

أؤمن أن تلك الحرب حركت بعض المياه الراكدة بالنسبة للأهالي، لكن بالنسبة لعائلة (الصولي) فقد ظلوا على حالهم، ما زال البغل (زهير) يدير العائلة وإن وضع الكثير من أمورها في يد ابنه (هلال)، والابن كأبيه يهتم بخلطة من السياسة والتجارة والزراعة والأعمال المشبوهة التي يتم مداراتها بشكل جيد.

والذراع الأيمن لهلال الآن ومستشاره الأمني والثقافي هو (حمامة)، الذي لم يتغير كثيرًا هو الآخر، كبر في السن وتعود سكان

القرية على رؤيته من وقتٍ لآخر لكنهم يرتعبون من ذكر اسمه، لم يعرف أحد على وجه التحديد الجرائم التي ارتكبها لكن الإشاعات كثيرة، والذي يضحكك فعلًا أن الأهالي لو اطلعوا على تفاصيل جرائمه الحقيقية والتي مازال يتفنن في صناعتها إلى اليوم لأصابهم التبول اللاارادي على الفور، لكن الإشاعات تكفيه هيبة بالإضافة إلى حياته الغامضة، فمازال يعيش وحيدًا في منزله على أطراف القرية ولا يزور المنزل إلا اثنين من حراس عائلة (الصولي) يقومون بتنظيف المنزل تحت إشرافه كل أسبوع، أما طعامه فيطبخه هو ويشتريه من خارج القرية، والإشاعة تقول إنه لا يثق في أي شخص يعد له الطعام خوفًا من وضع السم.

لمَ لا نزور الأحباب، (عزيزة) كبرت وأصبحت امرأة حقيقية في الخامسة والعشرين من عمرها، ازدادت جمالًا وتألقًا حتى أصبحت مضرب المثل في تقييم الجمال، والسبب غير معلوم، الملامح الجميلة منتشرة بطول وعرض القرية، لكن شيئًا ما في عينيها ونظرتها، أو ربما ابتسامتها الدائمة، أو سبب لا يعلمه إلا الله جعل العيون لا تمل من تفحصها طوال الوقت خلسة، وحتى هي إن انتبهت لعين رجل تتفرس فيها نهرته أو ابتعدت عن مساره لكنها لم تخبر زوجها بهذه الأشياء خوفًا من تهوره والدخول في مشاجرة ربما تنتهي بقتله أحد الرجال، لكن ما أرعبها فعلًا ملاحظتها مرتين (حمامة) والتي عرفت وجهه مع الوقت يتفرس فيها بطريقة مقززة، وهذا الموقف بالذات لن تخبر به (فايق) والسبب معلوم.

أصبحت أمّا بعد وفاة والدها، أرادت أن تسمي ابنها (جاد) على اسم المرحوم لكن (فايق) توسل لها أن تؤجل هذا الاسم لابنهما

القادم، وأصرّ هو على اسم (عزيز) تكريمًا لها وإظهارًا لحبه.. فأصبحت (عزيزة) أم (عزيز) ذو الثمانية أعوام، لم يرزقهما الله بأبناء آخرين فوضعا في (عزيز) كلّ أحلامهما وطموحهما، دخل المدرسة الابتدائية القريبة من القرية و(فايق) يشغل باله من الآن بالبحث عن مدرسة إعدادية ملائمة له وقريبة ولو وصل الحال لمغادرة القرية ليعيشوا جميعًا بجانب تلك المدرسة.

صار (فايق) رجلًا مختلفًا، بغض البصر عن شاربه الذي رباه ويذكرك بالأوغاد في الأفلام المكسيكية -إن كان بها أوغاد- وجسده الذي امتلأ قليلًا، فقد أصبح أكثر عصبية قليلًا وخاصة في عمله في الطاحونة.

بعد موت (جاد) ظهرت الأوراق التي جهزها منذ سنوات، الطاحونة والمنزل كتبوا بيعًا وشراءً إلى (جوهرة) و(عزيزة) وكل الأموال في حساب بنكي مشترك ببنك مصر وهو كان الوصي على (عزيزة) وأخذ توكيل من (جوهرة) في حياته لإدارته.

بعد أسبوع من الوفاة وظهور الأوراق جلست الأختان مع بعضهما البعض لفترة طويلة في مناقشات ومداولات حتى اتفقتا على كل شيء، وخرجتا لتعلنا لمسعد و(فايق) القرارات، هذا الأخير سيدير الطاحونة بشكل كامل ويحصل على مرتب شهري مقابل يكفيه، الأرباح التي تأتي ستقسّم بالتساوي بين الأختين كلّ 6 أشهر يقدم فيها (فايق) كشوف الحسابات والأوراق، ومن حق (مسعد) زوج (جوهرة) زيارة الطاحونة في أيّ وقتٍ والاطلاع فيها على الدفاتر لكن لا يجلس فيها ولا يتحدث مع أيٍّ من العمال.

تحول (فايق) لشعلة من الحماسة في العمل، استحدث نظامًا جديدًا للحسابات يدقق أكثر في تدوين كل كبيرة وصغيرة حتى هادر عملية الطحن، (مسعد) في العام الأول زاره بانتظام لكنه توقف بالتدريج بعد زيادة الثقة به.

وكما هي عادة (فايق) فمازال يسلم مرتبه بالكامل لعزيزة ويأخذ هو ما يكفيه لتناول الشاي في قهوة (عوني)، ومن وقتٍ لآخر يفصل جلبابًا جديدًا له من مرتَّبه وبعد إلحاح شديد من (عزيزة) التي كانت وما زالت تحاول أن تعطيه مال الأرباح نصف السنوية ليصرف منه وهو ما زال رافضًا وكأنه اختار أن يعيش بأقل القليل ليحافظ على كرامته أمامها.

أشعر نفسه بأنه في امتحان دائم للولاء مما أكسبه المزيد من العصبية وردود الأفعال المبالغ فيها والتي سرعان ما يتراجع عنها إن أذى شخصًا ما، وعلى كلٍّ فأهل القرية يشهدون له بالإخلاص والأمانة ولا يحمل له أي شخص إلا الاحترام والود.

وها هو (فايق) قبيل المغرب يجلس على مقعد خلف مكتبه الصغير في الطاحونة وتلاحظون معي أن كل شيء داخل المكان تم تجديده وتغيرت المطاحن بأنواع أحدث، يفتح دفترًا يراجع حساباته وهو يعد نقود في يده، دخل الطاحونة الولد الجميل (عزيز) بجلباب بني نظيف وطاقية رمادية يظهر من أطرافها شعره الناعم المموج الذي ورثَه من أمه، في الحقيقة ورث ملامحها أيضًا لكن طباعه أقرب لوالده.

صافحه العمال واحدًا واحدًا وهم يلاعبونه حتى وصل لأبيه الذي

احتضنه وأجلسه على مقعد بجانبه قائلًا:

- ها يا بطل عملت إيه في المدرسة النهارده؟

- مش مهم المدرسة، أنا جعان، يلا نروح عايز أتغدى.

ضحك (فايق) ورشف من كوب الشاي.

- طبعًا أمك اللي باعتاك علشان تسحبني على البيت.

ابتسم (عزيز) وقال:

- آه.. وقالتلي مقولكش، تيجي نجيب أكل من عم (عوف) بتاع الكفتة وناكل هنا، وهاقولها إنك اتغديت لوحدك.

عاد أبوه للضحك حتى كاد أن يقع من على كرسيه، بعد أن هدأ قال:

- لو عايز كفتة يبقى نجيب لما نروح البيت وناكل كلنا مع بعض.

- أمي هاتقول لأ وفي الآخر هناكل البامية اللي عاملاها، ما تقولها إنت هي بتسمع كلامك.

- والله يا ابني كلنا بنسمع كلامها. قولي، عملت الواجب؟

- أمي فضلت على دماغي لحد ما خلصته.

- جدع، هابعت أجبلك كيس غزل بنات تاكله دلوقت علشان إنت شاطر عقبال ما أخلص اللي ورايا.. بس بقولك إيه إوعى تقول لأمك.

- سرك في بير يابا.

ضحك وهو ينادي أحد العمال ويعطيه المال ليشتري المطلوب في

نفس الوقت دخل الطاحونة رجل بشارب مبالغ فيه على خده الأيسر علامة جرح قديم التأم بشكل خاطئ فجعل النظر لوجهه مهمة صعبة، باختصار له سمت المجرم القبيح.

تذكّره (فايق) بسرعة فهذا وجه لا يُنسى، إنه (خطاب) أحد رجال عائلة (الصولي) وإن كان لا يعلم أحد مهنته لكنه دائمًا ما يكون بالقرب من (حمامة) المخيف، أعرف أن الحمامة والمخيف لا يلتقيان في جملة واحدة لكنه الواقع الهزلي.

- سلامو عليكو يا ابن والدي.

قالها (خطاب) وهو يقف أمام المكتب، تأمله (فايق) بحذر لكنه أظهر الشدة وهو يرد:

- وعليكم السلام، إنت مين وعايز إيه؟

- بالراحة علينا يا عم (فايق)، أنا (خطاب الديب)، جايلك في حقوق ناس.

- قول.

- فلوس الضرايب بتاعتك زادت الشهر ده.

- زادت إزاي، محدش بلغني.

- أنا بلغك، ضريبة جديدة تدفعها على كل نفر من اللي شغالين معاك.

طبعًا (فايق) ملتزم بدفع ما يسمى بالضرائب لأولاد (الصولي) وهي إتاوة بلفظة لذيذة، والجميع يدفع تلك الضرائب منذ الأزل،

يقولون إنهم يرسلونها للحكومة لكن هذا كلام فاضي وأي خُنفسة في القرية تعلم ذلك لكنها السطوة والقوة.

- مش إنت اللي بتيجي كل شهر تاخد مني الضرايب، أصدقك إزاي؟ توكل على الله وروح شوف مصالحك بعيد عني.

- احنا ضريبة تانية.

- والله.

- أنا تبع المعلم (حمامة أبو وهبة)، ولّا متعرفوش.

لا ينكر (فايق) أن أعصابه اهتزت قليلًا عند ذِكر اسمه لكنه وببراعة أظهر العكس وهو يقول بعدم اكتراث:

- وأنا بدفع ضرايبي للحاج (زهير الصولي) وابنه، يعني الطاحونة دي في حماهم.

- شكلك لمض وعايز تتربى.

قام (فايق) من كرسيه غاضبًا وهو يصيح:

- اطلع برّه يا بجم يا ابن البجم قبل ما أضربك بأوسخ شبشب عندي.

انتفض العمال وسحب كلٌ منهم قطعة خشب أو أي شيء معدني لاستخدامه كسلاح وأحاطوا (خطاب) الذي قال بسخرية:

- كلمة المعلم (حمامة) ما تنكسرش من واحد زيك، كلامك هايوصله دلوقت.

- ليه مخبيه في جيبك..

- لا مستني بَرّه.

تلك العبارة كانت من (حمامة) شخصيًا الذي دخل من بوابة الطاحونة يحيط به خمسة رجال في دخول مسرحي درامي ولم يبق إلا سماع صوت موسيقى صادمة مع زووم بالكاميرا على وجه (حمامة).

تراجع العمال خطوات للوراء وبعضهم ألقى ما كان يحمله و(خطاب) يدور حول المكتب ليصبح قريبًا من (فايق) الذي تسلل الخوف لقلبه قليلًا لكنه حافظ على وجهه الصارم، قال (خطاب) بسخرية:

- شُفت يا معلم (حمامة)، كان عامل نفسه راجل عليا من شوية، دلوقت بقى نعجة.

- مش عايز تدفع ليه يا (فايق)؟

قالها (حمامة) ببرود لكن نبرته حملت التوعد والتهديد فردّ (فايق):

- أنا بدفع لعيلة (الصولي) وبس.

نظر (خطاب) إلى (عزيز) الخائف وقال بنبرة ساخرة:

- شكلك نسيت إن عندك عيل.. ربنا يخليهولك ومتعدموش أبدًا.

انقلبت الأشياء هنا، صرخ (فايق) وقد قسمت القشة ظهر البعير "بتهدد ابني يا ابن الزانية" ثم لكمه بقبضته في وجهه أكثر من مرّة حتى وقع (خطاب) أرضًا وهو يقول بغضب:

- بتضربني على خوانة.

ثم مدّ يدَه في ملابسه ليخرج سلاحه لكن صوت (حمامة) الصارم أوقفه:

- (خطاب).. إوعى تعمل حاجة.

تجمدت يده على مسدسه لبرهة وهو يتبادل النظرات مع (فايق) الذي استشاط غضبه ولم يدرِ إلى أين سيقوده كل هذا لكنه سيكمل إلى النهاية، قال (حمامة) بنفس الجدية:

- تعالى يا (خطّاب).

تخلى عن مسك سلاحه ونهض وهو يتراجع للوراء ببطء حتى التحق بحمامة الذي غادر وتبعه الباقون، خرجوا للشارع وتحركوا في الطُرقات في صمت تام حتى ابتعدوا كفاية فقال (حمامة) ببرود:

- مكنتش عارف إنك حمار للدرجة دي يا (خطاب).

- يا معلم إنت لو سبتني عليه أقتله.

- مش بقولك حمار.

على مرمى البصر ظهرت (عزيزة) تأتي في الاتجاه المعاكس تهرول ملهوفة، تعلقت عين (حمامة) بها فنظرت له بغيظ حقيقي أدهشه وهي تمر بالقرب منه حتى ابتعدت هي.

أكملت بخطواتها السريعة حتى وصلت للطاحونة فدخلتها تبحث عن (عزيز) بعينيها حتى وجدته في حضن (فايق) يربت على رأسه، انتزعته منه بلهفة وقبلته ودمعة تترقرق في عينيها:

- إيه اللي جابك؟

- حسيت إنكم في مصيبة.

تلمظ بعض العمال بعبارات (سبحان الله) و(قلب الأم) فأمر (فايق) أحد العمال بأن يغلق الطاحونة ويأتي بالمفتاح لمنزله، وأخذ زوجته وغادرا المكان وهي تحمل (عزيز) الذي هدأ قليلًا وتسير به بجانب (فايق) في الطريق والذي قال:

- قوليلي يا مبروكة حسيتي بإيه؟

- شُفتك بتتكلم مع واحد شكله ملخبط وحسيت إنه هايغدر بيك، حطيت الطرحة على راسي وخدتها جري لحد هنا.

قال (عزيز) بفرح طفولي:

- أبويا ضرب الراجل وقاله يا ابن الزانية.

- متقولش الكلمة دي تاني.

قالتها له بجدية ثم نظرت لفايق مستفسرة فقال هو مبتسمًا:

- متقلقيش، لما نروح بيتنا هاحكيلك على اللي حصل.

- أنا خايفة.

- متخافيش وأنا معاكي.

- أنا خايفة عليكم مش عليا.

ابتسم وهو يقول:

- أنا هاتصرف، اسبقيني انتي على البيت وأنا هاروح مشوار

دقيقتين وأحصلكم.

- هاتعدي على مقام (نوح المدبوح) طبعًا.

هزَّ رأسه بالإيجاب وهو يربت على كتفها بحب ويقبِّل رأس (عزيز) ثم يتجه في طريق آخر، بعد دقائق وصل للمقام فوقف أمامه.. أضيئت المصابيح المعلقة حوله وانطلق البخور من داخله حتى صارت رائحة الهواء خارجه زكية تهدئ القلب، وهذا هو ما ابتغاه.

دخله فلم يجد الخادم الذي كان في غرفته، وقف أمام رسم على الجدار لباب وقال بصوت خافت:

- أنا خايف يا سيدي، لو حقيقي إنت ولي من أولياء الله ادعيلي ربنا يحفظ (عزيز) منهم، وأنا كمان هادعي بس محتاجك معايا.

لم يكن (فايق) على علم بأن (عزيزة) بمجرد دخولها للدار أمرت ابنها بأن يدخل غرفته ولا يخرج منها حتى تأتيه، نفَّذ الأمر بلا نقاش فغضبتها لا تحتمل، أما هي فخلعت الطرحة ودخلت للغرفة الخالية، أنارت مصباح الجاز وجلست على المقعد، رفعت يديها للسماء تقرأ الفاتحة ثم أنزلتها وقال:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا عارفة إني مقصرة معاك، بقالي كتير مدخلتش الأوضة ولا بخرتها، مش هاقول كنت مشغولة، بس الحياة أخدتني منك، ولو إني عارفة إنك معايا، بتحسسني بكل حاجة تحصل حواليا.. النهارده شفت الضيقة اللي وقع فيها ابني، شكرًا إنك ورتهاني، أنا خايفة على جوزي وابني، أكيد مش هاقولك خلي بالك منهم، بس خليك معايا الأيام الجاية زي ما كنت معايا من

وأنا صغيرة.

***

- لما تاكل لازم تاكل صح.

قائل هذه العبارة العلمية العبقرية هو (زهير) بنفسه وهو يحدِّث حفيده (حمدي) والذي يصلح اسمه كمخبر للشرطة أكثر من كونه طفل في السادسة، أجلسه على قدمه وطاولة الطعام أمامه يجلس عليها أفراد العائلة لتناول العشاء.. الجميع يتناول طعامًا عاديًا إلا (زهير) الذي طلبَ طبقَه المفضَّل للعشاء والذي يشتاق إليه حينما يقرِّر أن ينام خفيف؛ لذا فقد كان أمامه طبق محترم به طبقة من الخبز المشرب في المرق وفوقه طبقة من سمين الضأن المقطع والمحمر وفوق طبقة السمين أرز مغطى بطبقة من صلصلة الطماطم ودقة الخل والثوم، وفوق كل هذه المصيبة قطع لحم ضأن مقطعة لقطع صغيرة محمرة في السمن.. هذا ليس طعامًا بل جريمة، والفضيحة أنه يريد لحفيده أن يأكل معه والبريء يرفض و(زهير) يأخذ ملعقة يلقيها في فمه وملعقة أخرى يحاول بها إغراء (حمدي) الذي تحت الضغوط تناول من الملعقة.

- برافو، كده أحبك وأجيبلك لعب لما أسافر الأسبوع الجاي.

- يابا الواد شبعان، كده هايرجع.

قالها (هلال) وهو يمد يده في طبق البيض بالسمن ويملأ لقمة منه.

- اسكت يا أهبل، أنا عايز معدة (حمدي) تبقى حديد من وهو صغير.

دخلت إحدى الخادمات غرفة الطعام تستأذن ثم تقول:

- لامؤاخذة يا حاج، الحاج (زيدان) جه بره وأنا دخلته أوضة المسافرين.

تبادل (هلال) و(زهير) النظرات قبل أن تكمل الخادمة:

- وبيقول إنه عايز يقابل الحاج (زهير) بسرعة.

- روحي قدميله حاجة يشربها لحد ما أجيلك.

قالها (زهير) وهو ينزل (حمدي) على الأرض ويربت على رأسه ثم ينهض بتثاقل مغمغًا:

- شكل (زيدان) جاي ومعاه مصيبة.

- تحب آجي معاك يابا؟؟

- من غير ما تسأل كنت هاقولك.

خرجا من الغرفة واتجها لصالون الاستقبال ليجدا (زيدان) يتمشى جيئًا وذهابًا حول المقاعد، اتخذ كل منهما مقعدًا و(زهير) يقول:

- مالك عمال تلف حوالين نفسك زي ديك البرابر، اقعد.

جلس (زيدان) وقال بنفاد صبر:

- اسمع يا حاج، أنا حطيت صوابعي العشرة في الشق من (حمامة) خلاص.

فتش (زهير) في ملابسه حتى أخرج علبة سجائره وأشعل واحدة وهو يقول:

- عمل معاك إيه؟

قبل أن يرد (زيدان) قال (هلال) بسرعة:

- أنا عارف يابا، أنا آسف يا عم (زيدان) بس كنت هابلغك بكرة أو بعده بالكتير.

- تبلغه بإيه؟

- أصلي سمحت لحمامة يكسب فلوس من أهل البلد.

ضيق (زهير) عينيه ولم يتكلم ليسمح لهلال بتكملة حديثه وهذا ما فعله.

- (حمامة) بيخدمنا بقاله زمن والراجل عمره ما قصّر معانا، ومخدش مننا غير فلوس قليلة على اللي بيعمله وحتة بيت صغير، وإنتوا عارفين إن اللي بيشتغلوا معانا ومن وقت أقل منه عندهم دلوقت أرض واتنين و...

قاطعه (زيدان):

- إنت اتصرفت من دماغك يا (هلال) من غير ما ترجعلي

- مكنش لازم يرجعلك، اتفاقنا القديم يرجعلك لما (حمامة) يعملنا شغل، دي ملكش دعوة بيها.

نزلت العبارة التي قالها (زهير) كاللطمة على وجه (زيدان).

- أنا فاكر كويس اتفاقنا القديم يا حاج، وحتى لو (حمامة) عمل حاجة من غير ما يرجعلي أنا كنت بعديها إكرامًا لهلال وإنه تحت طوعه، بس ابنك بوظ الدنيا.

نظر (زهير) بملل لهلال وسأله:

- إنت سمحتله يكسب فلوس إزاي؟

- قلتله يتصرف مع كام واحد بطريقته، حددتله مصنع الغزل بتاع (نعمان) وورشة الخراطة بتاعة...

قاطعه (زيدان):

- قلتله يعمل معاهم إيه؟

- يعمل اللي يعمله، يشاركهم، ياخد فردة، يــ....

عاد (زيدان) لمقاطعته هاتفًا بانتصار:

- أهو، ودي المشكلة، (حمامة) طلب منهم فردة.

- كتير من رجالتنا يا عم (زيدان) بياخدوا فردة وإتاوة فوق الضرايب اللي بنحصلها.

- (حمامة) بعت واحد من رجالته يتعارك مع (فايق) صاحب وابور الطحين، و(فايق) ضرب الراجل وجابه الأرض.

صاح (زهير) فجأة:

- إمتى حصل ده؟

- من قيمة ساعتين تلاتة والناس بتحكي على اللي حصل في كل حتة، القهاوي والجوامع.

- و(حمامة) عمل إيه؟

- معملش.

تكهرب الجو فجأة ومال (هلال) بجسده للأمام وهو يسأل بحذر:

- متأكد يا عم (زيدان) إنه معملش حاجة؟

- أيوه متأكد.

ألقى (زهير) بالسيجارة على الأرض وهو يصرخ في (هلال):

- (حمامة) صاحبك غشيم وميعرفش يتعامل مع الناس، كده الولا (فايق) في خطر.

- إهدا يابا وأنا هالم الموضوع.

- تروح لبيت (حمامة) دلوقت وتلم الدنيا، إوعى يعمل حاجة من حركاته.

- بس هو ساعات مبيباتش في بيته.

نظر (زهير) لزيدان قائلًا:

- شوف اتنين من رجالتك يقفوا بعيد عن بيت (فايق)، ولو لمحوا (حمامة) أو حد من رجالته يبلغوه إن (فايق) في حمايتي.

- وهو (حمامة) لو عايز يوصل لفايق حد هايلمحه.

قالها (هلال) فزاد صراخ (زهير):

- يبقى تخرج دلوقت ومترجعش من غيره، مش عايز جثة صاحب طاحونة في بلدي تجر معاها بوليس ونيابة، الدنيا اتغيرت وأنا مش ناقص.

***

(3)

(اليوم الأول)

حمل (حمزة) من الصباح الباكر مواسير المياه التي صنعها في دكانه وماكينة رفع المياه على رأسه، وفي يده حقيبة من الجلد بها الأدوات التي سيستعملها في دق طلمبة الماء داخل منزل (نوح) كما وعده ولو أنه أخلف الوعد ولم يأتِه في موعده المتفق عليه، لكنه سيعتذر بكل تأكيد ويطلب السماح على تأخره.

في طريقه قابلَ أحد الأهالي يركب حمارًا ويجذب بقرة خلفه في طريقه إلى أرضه الزراعية.

- إيه يا (حمزة) اللي إنت شايله على الصبحية؟؟ خير

- ازيك يا عم (بدري) وازي اخوك والعيال؟؟ أنا رايح لبيت الشيخ (نوح)، هادقله ماسورة رفع ميه جوه بيته علشان يشرب منها ويتشطف

- ربنا يباركلك ويباركله، سمعت اللي قاله في عزا (حمودة) إمبارح؟

- والله الراجل مقالش إلا الحق.

- ربنا يستر عليه وعلينا.

حوار سريع لم يتوقفا ليجرياه بل تبادلا الكلمات وكل منهما في طريقه، بعد دقائق ظهر منزل (نوح) لكن قبله ببضعة أمتار جلس على الأرض ثلاثة من عائلة (رجب) على الأرض حول نار يشعلونها ويدخنون الجوزة حولها، عبر من جانبهم فناداه أحدهم:

- رايح فين يا (حمزة)؟

- وإنت مالك؟

- لو رايح لبيت (نوح) ارجع تاني.

لم يتوقف (حمزة) وهو يسير والعرق ينفجر من الجلباب من الحمل الذي يفوق قدرته، ضحك الرجال وتركوه حتى وصل للمنزل وفهمَ لما تركوه، من خلف المنزل ظهر المملوك (خيري) يحمل بندقيته وبملابس ودروع الحرب، على وجهه نظرة جادة متحفزة وهو يقول باللهجة المصرية:

- ارجع مطرح ما جيت.

اقترب (حمزة) أكثر حتى أصبح على بُعد ثلاثة أمتار من المنزل، رفع (خيري) فوهة بندقيته الطويلة ناحيته مهددًا فألقى (حمزة) كل ما يحمله على الأرض وقال:

- إيه العبارة؟ أنا جاي للشيخ (نوح).

- امشي من هنا، (نوح) لا هايخرج من بيته ولا حد هايدخله.

- يعني إيه؟ حبستوا الراجل؟

- امشي من هنا وملكش دعوة بحاجة، دي أوامر الأمير (إسماعيل) بك.

اقترب (حمزة) خطوة واحدة وقال مستعطفًا:

- أنا جاي أدق المواسير دي علشان الميّه.

- مفيش لا ميّه ولا أكل هايدخلوا.

لم يخف (حمزة) حيرته وهو ينظر للمنزل مستنكرًا:

- الراجل كده يموت.

- ملكش دعوة.

انفتحت نافذة المنزل القريبة منه وظهر (نوح) ينظر له من الداخل ويقول بهدوء:

- اسمع كلام المملوك يا (حمزة) وابعد.

- إنت بتقول إيه يا مولانا؟ دا حرام.

- اللي يريده ربنا يكون.

وجّه (خيري) البندقية لنوح وقال محذرًا:

- إوعى تفتح المشرفية تاني.

- ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قالها (نوح) بهدوء ونظر لحمزة يقول:

- أنا اللي اتكلمت وأنا اللي بتعاقب، اللي كتبهولي ربنا هايكون، مع السلامة يا (حمزة).

أغلق بعدها النافذة فغرقَ المنزل في شِبه إظلام إلا من ضوء بسيط يأتيه من خصاص النافذة مع بعض الأصوات لحديث (خيري) و(حمزة).

هو الآن لا يشعر بالقلق كما يتخيل من حبسوه، فهو يطلب الخلوة

طول الوقت، أم يطلب الهروب من المواجهة!! على كل حالٍ حدثت المواجهة وحان وقت العقاب، منذ ساعة تقريبًا اقتحموا باب الدار وأبلغوه بالعقاب، لم يتكلم واستسلم وكأن جسده مرهقٌ لكن روحه ما زالت حية.

ما معه من ماء لا يكفي إلا للشرب ليوم واحد أو ثلاثة أيام لو اقتصد، كيف سيتطهر من أداء ما يجب فعله في دورة المياه؟؟ سيجد حلًا، ربما يقتصد في شرب الماء أكثر ليستخدم دورة المياه، هناك بعض أرغفة الخبز اليابس وقطعة جبن، ابتسم لنفسه لأنه كان ينوي أن يشتري بعض الطعام من السوق اليوم، لكن المماليك دائمًا سباقون لحرمان الناس حتى من أبسط الحقوق.

حمد الله أنه أحضر الكثير من الشموع معه وزيت إشعال القنديل من منزله القديم، على الأقل سيمارس مهنته قليلًا كنوع من التسلية، أحضر كتاب (شروحات على عمدة المصلي) للنابلسي وجهز المنضدة قصيرة الأرجل والمحبرة والأوراق ووضع كل شيء بجوار النافذة لتلقي بالقليل من الضوء، تربع أمام المنضدة وفتح الكتاب يطالعه سريعًا ويَعِدّ صفحاته ثم يَعِدّ كم سطرًا في كل صفحة وكم كلمة في كل سطر وبقلم البوص يضع لنفسه علامات في الورقة التي سينسخ فيها ليعرف حجم الخط المناسب ونوعه الذي سينسخ به الكتاب.

***

سلم المصلون في صلاة المغرب داخل مسجد (إسماعيل) بك، نعم فله مسجد مليء بالزخارف بالقرب من قصره واسمه مسجد الأمير (إسماعيل)، يصلّي فيه الفروض الخمس في بعض الأحيان

هو ورجاله وحراسه من المماليك فيملأون أكثر من نصف المسجد تقريبًا، ويسمح للأهالي بملء الجزء الباقي مع وعد غير مكتوب بمغادرتهم للمكان بعد الصلاة مباشرة، وطبعًا دخول الأهالي للصلاة يكون بنظام هو الآخر، فبعد دخول (إسماعيل) وحاشيته ومماليكه واستقرارهم يدخل الأهالي، حتى إن الأهالي يتداولون النكات حول هذا المسجد فيقول بعضهم إن كل المساجد هي بيوت الله وهذا المكان هو بيت (إسماعيل) بك يأمر وينهي فيه، وبعضهم يتحدث بخبث وسخرية عن فوائد الصلاة مع البك وحاشيته لأنها تعدك بحجز مكان خاص لك في جهنم.. ولا ينسى الناس يوم قال أحدهم خارج المسجد في أثناء صلاة (إسماعيل) "الله يخرب بيتك يا ابن الكلب" فأنهى المماليك صلاتهم في منتصفها وخرجوا ليقبضوا على الرجل بدعوى أنه يسب الأمير، وهو يحلف بكل شيء إنه يسب أحد جيرانه.

لكن في النهاية يصلي الكثير من الأهالي في هذا المسجد متأقلمين على وجود المماليك في الصفوف الأولى بل ويعتبرونهم غير موجودين، واليوم لم يحدث الكثير بعد انتهاء الصلاة، الإمام يدعو للسلطان العثماني وشيخ البلد (إبراهيم) بك وقائد الجند (مراد) بك، ويسهب في الدعاء للأمير (إسماعيل)، والأهالي يرفعون أيديهم أمام وجوههم يرددون برتابة (آمين)، كلها أشياء متوقعة.

إلا صوت (عنتر) من خارج المسجد، يصيح مناديًا:

- ولاد الوسخة حبسوا الراجل الطيب، ولاد الوسخة حبسوا الشيخ (نوح).

اعذروني على اللفظ لكنه ما قاله، لأول وهلة صدم المصليين من الأهالي وهم محتارون بين خبر حبس (نوح) وبين سباب (عنتر) العفوي لدرجة أن بعضهم لم يقدر على كتمان ضحكته فخرجت مكتومة لكنها مسموعة، اضطر الأهالي للمغادرة سريعًا قبل أن تفضحهم ضحكاتهم.

نظر (إسماعيل) ليمينه لتلتقي عينه بعين (أيوب) المحرج.

- إيه اللي أنا سامعه ده؟

- حالًا هايكون الكلب ده تحت إيدينا يا بك.

أشار (أيوب) إلى أحد المماليك فأخذ اثنين آخرين وغادروا المسجد وقت مغادرة الأهالي، وجدوا (عنتر) يسير مبتعدًا وهو يردد نفس العبارة فقبضوا عليه وأحضروه لباب المسجد، خرج (إسماعيل) بجانب (أيوب) الذي صفع (عنتر) على وجهه صارخًا فيه:

- إنت يا كلب بتقول إيه؟

- إنت اللي كلب وابن ستين كلب.

من هول الصدمة فتح (أيوب) فاهه باستغراب وأذنه لا تصدق أنه سمع أحد الأهالي يسبه بهذا الشكل، من خلفه وجد الأهالي يصيحون:

- سامحه يا بك ده بتاع ربنا ميدراش بيقول إيه.

- دا (عنتر) يا أمير، واد طيب وملوش لا في الطور ولا في الطحين.

- (عنتر) عيل عبيط يا بك وإحنا هنعلّمه غلطه.

وعلى هذا المنوال توالت عشرات العبارات من الأهالي الذين غادروا المسجد وتجمهروا حوله بينما (عنتر) يجاهد ليفلت من أيدي المماليك وهو يزوم ويزمجر.. اقترب منه (إسماعيل) وسأله:

- إنت تعرف أنا مين يا فلاح؟

- أنا مش فلاح، أنا (عنتر)، وإنت اسمك إيه؟

- أنا الأمير (إسماعيل).

- إزيك يا عم (أمير إسماعيل)، قولهم يسيبوا دراعي علشان واجعني.

زفر (إسماعيل) بخيبة أمل بعدما فهم حالته العقلية وأمر مماليكه بتركه ثم قال:

- اسمع يا (عنتر)، متقولش الكلام اللي قولته ده تاني.

- ليه؟

- علشان دا كلام غلط.

- لو كلام غلط مكنش الناس تقوله في السوق.

التفت (إسماعيل) بطرف عينه لأيوب وكأنه يلومه على تدهور الأمور ثم عاد ببصره لعنتر وابتسم رغمًا عنه وهو يقول:

- تعرف أسماء الناس اللي قالت الكلام ده في السوق؟

- أعرفهم واحد واحد.

- قولي أسماءهم.

- مش هاقولك.

- ليه يا (عنتر)؟

- علشان إنت لابس لبس المماليك وأنا مش عبيط، مينفعش أحكي للمماليك ولا لولاد (الصولي) على أي حاجة.

صاح أحد الأهالي بخوف محاولًا إيقاف الاستجواب:

- بالله عليك يا أمير تسيبه لحاله دا مش عارف هو بيقول إيه.

قال (عنتر) هامسًا لإسماعيل:

- ما تقلع توب المماليك وخليك جدع والبس زيينا علشان ربنا يكرمك.

ضحك (إسماعيل) وارتج جسده ومال على (عنتر) هامسًا:

- مينفعش، أنا مكنش عندي حرية الاختيار في لبسي، زي انت معندكش حرية الاختيار في لبسك، كل واحد بيلعب دوره

نظر بعد عبارته إلى رجاله وقال بصوت جهوري:

- سيبوه يمشي وإوعى حد يكلمه ولا يقربله.

كبر الأهالي ودعوا للأمير بطول العمر و(عنتر) يسير مبتعدًا و(إسماعيل) يميل على أذن (أيوب) وهو ما زال محافظًا على ابتسامته وقال بأقل نبرة صوت استطاع الوصول لها:

- أنا هيبتي اتهزت في البلد.

***

بعد حسابات معتمدًا فيها على ذاكرته اتخذ (نوح) قراره بالتيمم بالتراب عند الوضوء للمحافظة على الماء، لو كان حرًا لسأل أحد الفقهاء لكنه يعتمد على دراسته القديمة وإطلاعه على الكتب الدينية، صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء توضأ فيهم بالتيمم من التراب الذي يغطي أرضية إحدى غرف الدار المغلقة.

دعني أخبرك أن الشعور بملمس التراب على وجهك ويديك طوال الوقت كريه لأقصى درجة، وخاصة مع كتابته على الأوراق لنسخ الكتاب وخوفه من اتساخ الورقة، لكن بحرفية نجح في عمله ونسخ اليوم 30 صفحة تركهم ليجفوا بجواره وبعيدًا عن الشمعة التي أنارها ليرى ما يكتبه.

طبعًا تتوقع وتنتظر أن يقرأ (نوح) في الكتاب الغريب، وإلا فيما ستكون الأحداث!!!، أصبت، ولو وضعت طفلًا في العاشرة بجوار هذا الكتاب لغلبه الفضول وفتحه، و(نوح) وبرغم كرهه الشديد لهذه الكتب إلا أنه سحب الكتاب من الصندوق، فتحه يطالع الاسم ثانية.. ((كشف غطاء البصر عمن حضر)).

- طبعًا مليان بطرق الاختفاء وتحويل التراب لدهب.

قالها لنفسه بسخرية وهو يفتح أول صفحة والتي لم يلاحظها في أول مرة، فيها ما يشبه المقدمة.

"سبحان مَن علّم آدم الأسماء كلها، وخلق الأجناس وبأسمائه أذلها، هذا كتابي لك يا ابن بطني وقرة عيني، حين أموت ترحّم عليّ وادعُ

الله ليغفر آثامي ويؤجرني على آلامي، هذه تذكرة لك ولنسلك فيما عرفته أمك ممن علمها وهلك، السحر يا ولدي لو تعلمه ألف ألف لما فلح فيه إلا فرد واحد، يختار الله من عباده من كانت له الموهبة وحسن العقل وفتوحات النفس فينفذ ما خطه الأقدمون وبقدرة نفسه وعقله ينجح ويسيطر على الجان والبشر إلا من كتب له الله النجاة، كل ما في هذه الصحف هو الحقيقة، إن جربتها ونجحت فاعلم أن الله اختارك ليختبرك بقدرة نفسك وقلبك، وإن جربتها وأخفقت فاحمد رب العالمين واغلِ الصحف في الماء والخل ليذوب حبرها ثم ادفن الورق خارج أسوار بغداد وسامحني".

إذًا فكاتب المخطوط امرأة، وتتحدث بفرضية غريبة، أن طرق السحر معروفة ولكن ليس كل من يجربها يفلح لأن بعض البشر مؤهلون لذلك، اعترف (نوح) لنفسه بغرابة الفكرة وعدم انتشارها.

وطبعًا لاحظ موضوع (بغداد) هذا، ذلك يفسر سر تشفير بعض المقاطع باللغة الفارسية، تلك المرأة تتقنها لسبب ما وربما لأنها من هناك في الأصل، كما يفسر هنا نوع الرسومات المرفقة بالمخطوط والتي هي طريقة رسم فارسية انتقلت للبلدان المحيطة، سرح بخياله في معنى اسم (محمد سياه قلم) الذي يتم كتابته أسفل تلك الرسومات، بخبرته في اللغة الفارسية فهو يعرف أن كلمة (سياه) معناها (أسود) هل تعني إذًا أنها رسومات بالقلم الأسود لخطاط اسمه (محمد)؟؟

لكن كلمة (سياه) لها ترجمات أخرى ليست منتشرة، تعني (مجنون) أو (فقدَ وعيه لدرجة الجنون) أو (فقدَ وعيه لدرجة التمرد)، أخرجته

من أفكاره قرعات على النافذة من الخارج وشخص يقول بصرامة:

- افتح.

فتح (نوح) النافذة فطالعه وجه مملوك آخر ينظر له بشك، ابتسم (نوح) وقال:

- السلام عليكم.

- وعليكم.

- خير إن شاء الله.

- أنا اللي واقف عليك نوبة حراسة بالليل.

- شفتك الصبح لما جيتوا وحبستوني.

وكأن المملوك أراد قول شيء ما لكنه لم يجد فقال:

- أنا (قاسم الحوفي).

- وأنا (نوح الناسخ).

- إنت بتكره المماليك ليه؟

بطريقة ودية أجابه (نوح):

- بكرههم علشان بخاف منهم.

لم يبد على (قاسم) أنه فهم فأكمل (نوح):

- المفروض الإنسان ميخافش غير من اللي خلقه، ولما لاقيت المماليك بيخوفوني كرهتهم، كأنهم عايزين ياخدوا مكان ربنا على

الأرض.

- يعني إنت بتخاف مني؟

- لا، وعلشان كده مفيش في قلبي كره ليك، لكن بكره أميرك.

فجأة تغيرت نبرة (قاسم) وأمره بغلظة:

- اقفل شباكك.

- مع السلامة يا (قاسم).

***

(اليوم الثاني)

ارتفعت الشمس في السماء و(قاسم) يكافح النوم، برغم اعتياده السهر ليلًا لأعمال الحراسة إلا أنه لم ينم منذ يومين تقريبًا إلا ساعة واحدة، حسد رجال (الصولي) القريبين منه الذين ناموا بجانب النار التي أشعلوها، لم يعرضوا عليه حتى قدح من القهوة، معظمهم أغبياء إلا (رجب) كبيرهم والذي كان يرتاح في الحديث معه هو وشقيقه.

المفترض أن نوبة حراسته انتهت وفي أي وقت الآن يصل (خيري) ليستلم النوبة الجديدة، لكنه وجد شابًا يأتي من بعيد يحمل بيده اليمنى لفة كبيرة من القماش، مرّ على رجال (الصولي) النائمين فلم يشعروا به، ميز (قاسم) ملامحه، لقد رآه في القرية من قبل مرتين لكنه شعر بالقلق.

أمن على بندقيته التي وضعها جانبًا ووضع يده على مقبض سيفه، الشاب يقترب حتى أصبح على بُعد أمتار وقال:

- سلامو عليكو، مش ده بيت عم الشيخ (نوح)؟

- وعليكم السلام، عايز إيه يا فلاح؟

- عايز أقابله، مش هو محبوس جوه؟

(قاسم) في حالة من الذهول من هذا الحوار ولا يعلم كيف أكمل وسأله:

- إنت مين؟

- أنا (عنتر)، وإنت اسمك إيه؟

- امشي يا (عنتر) ممنوع حد يقابل (نوح).

- بس أنا هاقابله.

واتجه إلى باب المنزل فسحب (قاسم) سيفه وصرخ فيه:

- اثبت مكانك.

لم يعِره (عنتر) اهتمامًا وهو يطرق الباب بقوة ويقول:

- أنا (عنتر) افتح يا عم الشيخ.

جذبه (قاسم) من ملابسه للوراء فقاومه (عنتر) وهو يصرخ:

- سيبني أنا عايز أقابله.

انفتحت نافذة المنزل وأطل منها (نوح) فصرخ (عنتر):

- يا عم الشيخ أنا جايبلك أكل وميه.

- سيبه يا (قاسم).

قالها (نوح) بعصبية في الوقت الذي أتى فيه أحد رجال (الصولي) النائمين عندما استيقظ على أصوات العراك وهو يصرخ:

- صلي على النبي يا (قاسم) إيه اللي بتعمله ده، (عنتر) ده عبيط.

للحظة توقف (قاسم) وأدرك كل شيء وربط بين طريقة كلامه الغريبة واندفاعه وعدم خوفه وبين تأخره العقلي، ترك ملابسه فجرى إلى (نوح) يعطيه اللفافة التي يحملها وهو يقول:

- جبتلك جبنة قريش وعيش بتاو وميه.

أمسكه الرجل بطريقة لا تؤلمه وقال:

- إيه يا (عنتر) اللي دخلك في الحكاية دي، تعالى معايا دلوقت.

- وسع أنا جاي لعم الشيخ.

ابتسم (نوح) وقال:

- اسمع كلامه يا (عنتر) مش هاقدر آخد منك حاجة.

بحزن شديد قال:

- ليه؟

- حكم القوي على الضعيف.

أفلت (عنتر) من الرجل ووضع اللفافة على الأرض تحت النافذة وهو يقول:

- هاسيبلك الأكل هنا.

- شكرًا يا (عنتر).

ابتسم (عنتر) لنوح واستسلم ليد الرجل التي أحاطت به برفق وجذبته بعيدًا، كان (قاسم) متسمرًا في مكانه يراقب كل هذا وقليل من الذنب ينمو في نفسه، تخيل أنه كان سيستخدم سيفه مع هذا البريء.

- يا سيد (قاسم) أنا اللي بتعاقب، بلاش حد غيري يتأذى.

قالها (نوح) وأغلق النافذة و(قاسم) يقول في باله ساخرًا أنه ليس

سيدًا بل مملوك.

***

في الزاوية الصغيرة بجوار مفارخ الدجاج الخاصة بأيوب داخل القرية، أنهى المؤذن أذان العصر وتهافت الناس على الدخول والجلوس، لم يمر الكثير من الوقت حتى دخل (حمزة) يتلفت حوله يبحث بعينيه وسط الجالسين عن المماليك من أهل البلد فلم يجد، وقف وسط المسجد الصغير وقال:

- اللي ميعرفش محنة الشيخ (نوح) أنا جاي أقوله إنه محبوس في بيته من إمبارح وممنوع عنه الأكل والشرب بأمر البك، عايز يموته من غير ما يلمسه، وكل ده ليه، علشان قال الحقيقة في عزا (حمودة) إبن (رفاعي) الله يرحمه، قال الـ....

قطع عبارته عندما دخل شاب من عائلة (الصولي) للمسجد والتقت أعينهما ببعض فعرفه، إنه (سليم) شقيق (رجب) نفسه، قال أحد الأهالي:

- وهو الشيخ (نوح) إزاي يقول الكلام ده على المماليك، دا راجل معندوش عقل.

نظر له (حمزة) وقال ساخرًا:

- هو اللي معندوش عقل ولّا إنت اللي جبان يا (عطية).

- أنا مش جبان، احترم نفسك بدل ما أقوم أوريك شغلك.

قال (سليم) بخبث:

- وإنت عايز إيه من الناس؟ تكسر أوامر الأمير (إسماعيل)؟

- أنا عايز الناس تعرف وبس، وهما يعملوا اللي عايزينه.

قال أحد الأهالي:

- (نوح) ده مش من بلدنا، إيه اللي جابه هنا.

نظر إليه (حمزة) وقال بغضب:

- الشيخ (نوح) أبوه وجدوده من (أبو الغيط) وكتير منكم اتعاملوا مع أبوه، واللي ماتعاملش يسأل الكبار وهما يقولوله، كان راجل طيب وحامل كتاب الله.. ساعد الفقرا واتكفل بيهم في حياته، وأنا كنت واحد من الفقرا دول.

- أكيد الأمير هايعفي عنه بكرة أو بعده بكتيره.

قالها أحدهم فردّ عليه أحدهم:

- ولو مات الراجل من العطش ولّا الجوع قبل العفو.

واندمجت الأصوات تتناقش حتى صرخ المؤذن فيهم:

- الكلام ده تتناقشوا فيه بره بيت ربنا.

غادر (حمزة) الزاوية فتبعه (سليم) الذي بمجرد خروجه وجد (حمزة) يمسك بتلابيبه ويجذبه إليه قائلًا:

- جاي ورايا تراقبني ولا تموتني.

- سيب الهدوم يا عم (حمزة)، إنت عايز تجيب لنفسك المشاكل معانا ولّا إيه؟

- طظ فيكم، ولا يا (سليم) إنت ناسي من اللي علمك الحساب والقراية وإنت صغير؟ مش أنا اللي كنت بجيبك بيتنا كل يوم وأعلمك.

ترك ملابسه و(سليم) يقول منفعلًا:

- إنت هاتذلني.

- لا هافكرك، كان نفسك تروح تتعلم في الجامع (الأزهر) وأخوك (رجب) ضربك علشان تنزل تشتغل في الغيطان باليومية، وأنا اللي علمتك وحضرتك علشان تقدم في (الأزهر).. فاكر لما كل يوم كنت باديك يومية الفلوس علشان ترجع بيها لأخوك ويفتكر إنك بتشتغل، عارف الفلوس دي كنت باخدها من مين؟ من الشيخ (نور الدين) أبو (نوح) اللي عايزين تقتلوه.

وعلى عكس ما كان ينتظره (حمزة) من (سليم) فقد صرخ هذا الأخير فيه قائلًا:

- يلعن أبوك لأبوه.

تركه وغادر فقال (حمزة) بصوت مرتفع ليسمعه:

- روح يا (سليم) بلغ أخوك عن اللي كان عايزك تبقى عالم دين وإنت صغير، أخوك اللي خلاك خدام المماليك

أكمل (سليم) مسيره مبتعدًا ووجهه يحمر غضبًا، أخذته قدمه إلى قصر (إسماعيل) فوجد (رجب) جالسًا وحيدًا أمامه على المصطبة، جلس بجانبه فقال هذا الأخير بدهشة:

- إنت ياض مش قولتلي رايح تصلي العصر؟

- مش هاصلي.

- أستغفر الله العظيم، إنت اتجننت!!، ومالك قالِب وشك عليا؟

- مش مهم، فين الرجالة؟

- أوامر جديدة، الكل يمشي في البلد ويشوف كلام الناس عن (نوح).

- واللي يتكلم نقتله زي (حمودة)؟

- مالك يا ابني؟

- أنا بقول الحقيقة، مش إنت بعتني مع (دهشان) علشان أوصل المملوك لبيت (حمودة)، كأني قتلته

هنا توقف (رجب) عن التفاعل معه وتأمله بعينيه وكأنه أدرك شيئًا في نفس أخيه، قال بعد قليل:

- لا إنت ولا أنا كنا نعرف إن (حمودة) هايموت.

- ولو كنا نعرف.

- مكناش قلنا لا، علشان هنكون مكانه، روح ريح في دارنا شوية.

- لا أنا هاتمشى ناحية البحر.

قالها وغادر المكان.

***

انتهى الماء، خبط (نوح) بيديه على رأسه بعدما اكتشف مصيبته، لام نفسه على استخدامه جزءًا من الماء لخلطه بالحبر ليكفيه لنسخ الكتاب بالكامل، لم يتخيل أنه استخدم كمية كبيرة.

- كانت الميّه هاتكفيني بكرة كمان.

عندما سمع نفسه يقول تلك العبارة ضحك كثيرًا وهدأ، حتى ولو كان سيشرب في الغد فسينتهي الماء على أي حال، العطش مصيره، نظر للعشرين ورقة التي أنجزها اليوم بحسرة، في حبر هذه الأوراق دواء عطشه الذي هاجمه أكثر بعد اكتشاف المشكلة.

حتى النافذة لا يستطيع فتحها ليغير هواء الدار المكتوم، اقترب بأنفه منها وحاول شم نسائم الهواء التي تتسرب منها، فكر في النوم لكنه لم يأتِ بعد، أمسك بكتاب (كشف غطاء البصر عمن حضر) وفتحه يقلب في صفحاته حتى توقف عند مقطع كتب بالفارسية فترجمه سريعًا بعينيه:

(لا تصدق يا (كابر) كل ما ذكروه عن الملك (برقان) الملقب بأبي العجائب، قالوا باللغة العربية إنه (ملك) يتملك على الجان، واللفظة الأصح أنه (ملاك)، والعرب لا يعلمون بسر هذا اللفظ، فهو ليس من ملائكة الله وخدم العرش، بل له معنى يعرفه جدودي، لفظة ملاك فيما يتعلق ببرقان تعني أنه كائن يعيش بيننا من أقدم الدهور، حباه الله بقدرات وأمدّ في عمره لسبب يعلمه هو، وجعل له نوابًا يملكون قدرات يرسلهم لمن يريد، أبي قال لي إن الحمقى الذين يتلون التعاويذ للتواصل معه يتواصلون مع أجناس أخرى من الجان يكذبون عليهم، لكن (برقان) لن يتواصل معك إلا إن تحققت شروطه

فيرسل مندوبه والذي هو في الأصل قريب منك لكن لا تراه حتى يكشف عنك بصرك).

بعد هذا المقطع وجد وصف غريب لطريقة تحضير مكتوب بالعربية الفصحى يقول:

(خذ من دهن السذى وحركه على وجهك وكفيك ثم أحضر نسيجًا واكتب عليه اسمك واسم أبيك وجدك واسمي واسم أبي وجدي، وعبارة (ظهر وبان بأمر الله لعبده الفقير) واقرأ ما يأتي (بأمر الله اقترب بهدون بهدون بهدون علمون علمون علمون أيك أت أعبد رحمون رحمون رحيم رحيم افتح عيني على من حضرني يا حامل سيف الثعبان)، ولف النسيج حول رأسك ليغطي عينيك، وكما قلت لك لن أكتب العلامات حتى تعرفها بنفسك، لكن احذر النار يا بني).

أحضر (نوح) ورقة فارغة وكتب عليها (دهن السذى) وأخذ يفكر، أهو اسم خيالي لتلك الأشياء التي يقولها السحرة، سمع أنهم يسمون توابل وأدوات غير موجودة ليخدعوا بها العامة، أم أنها خطأ من الناسخ؟ ربما كانت الكلمة متغيرة؟ نظر للفقرة كلها حتى وصل لآخرها وأعاد قراءة عبارة (احذر من النار يا بني)، هل تقصد اللعب بالنار؟ أم.. نظر لكلمة (السذى) وابتسم وقد فهم، المرأة هي التي غيرت في تكوين الكلمة لأنها متأكدة أن ابنها سيعرف الكلمة الحقيقية، سنون حرف السين هي في الأصل شيء آخر، وحرف الذال ينقلب لحرف دال، الكلمة هي (النبتدى) وهو اسم دهان مضاد للحروق يصنع من لحاء الأشجار وهذا اللفظ هو نطقه بالفارسية وقد مرت عليه في مخطوط من قبل، دهان مضاد للحروق؟؟!!!

وطبعًا قصدت أن يكتب الشخص على النسيج اسمه واسم أمه لكنها استخدمت صيغة أخرى، هذا المخطوط موجهًا بالفعل إلى شخص بعينه واسمه (كابر) وكان من المفترض ألا يتم تداوله.

- يا شيخ (نوح)

عرف الصوت الذي ينادي عليه، صوت (قاسم)، ردّ عليه رافعًا طبقة صوته ليسمعه:

- أيوه يا سيد (قاسم)؟

- إنت كويس؟

- الحمد لله.

- إيه رأيك تكتب رسالة اعتذار لإسماعيل بك وتوعده إنك هاتسيب البلد، أنا ممكن أوصله الرسالة.

ابتسم (نوح) وقال:

- خلينا منستعجلش، يمكن لما الجوع والعطش يقطعوني أكتر أكتب الرسالة وأبوس مداسه كمان، اللي عايزه ربنا هايكون.

***

(4)

لم ينم (فايق) الليلة ولم يقرب (عزيزة)، تقلب في فرشته ألف مرة، وتلك الأخيرة هي الأخرى كانت تشعر بقلقه، أكثر من مرّة تطلب منه أن يتحادثا في أيٍّ من أمور الدنيا لكنه يرفض بأدب متعللًا بمحاولاته النوم.

قبل صلاة الفجر بقليل نهض وقال:

- هاروح مشوار قبل صلاة الفجر.

- مقام (نوح المدبوح)؟

- أيوه.

كان ردُّه فيه لمحة من العصبية فمسحت بيدها على ظهره وابتسمت وهي تضيف:

- براحتك يا حبيبي.

- (عزيزة).

- أؤمرني؟؟

- أنا هاروح الضهرية لسرايا الحاج (زهير الصولي)، هاشتكيلهم من (حمامة) وهما يشوفوا حل.

- اعمل اللي إنت شايفه صح.

كانت تسايره ولا تناقشه أو حتى تطرح رأيها كعادتها عند رؤيته في حالة من القلق الشديد، ذهب هو ليتحمم وتلك ليس عادته قبل

الصلاة فهو يتحمم بعد عودته من المسجد كي لا يصاب بالانفلونزا.. لكنها أغلقت فمها ودعت أن يمر اليوم بسلام.

خرج هو من المنزل وباله مشغول بصراع أمس، لدرجة عدم ملاحظته لحارسي عائلة (الصولي) الاثنين الجالسين أمام إحدى الحقول، أحدهما نبه الآخر ليتولى هو مراقبة (فايق) ففعل وسار وراءه محافظًا على مسافة كبيرة وعينيه في وسط رأسه.

ليلة بلا قمر والظلام شديد، أصوات صرصور الحقل تأتي في الخلفية لتزيد الجو كآبة، لكنه يحفظ طريقه جيدًا وسط الظلام، منازل كثيرة يمر عليها وحقول واسعة، وها هو المقام المضيء كالمنارة وسط بحر شديد السواد، ارتاح قلب (فايق) للمنظر الجميل وغزته الطمأنينة والسلام فابتسم وهو يخبر نفسه في عقله بأن (عزيزة) يفوتها الكثير من روحانيات هذا المقام.

تقدّم حتى دخل في دائرة أنوار المقام ووقف أمامه يرفع يده لقراءة الفاتحة، في منتصف السورة القرآنية انطلقت رصاصتين من خلفه اخترقتا ظهره فوقع أرضًا.. وانتهت حياته.

***

وقف (أشرف) الضابط الشاب بجوار جثة (فايق) يتأملها راسمًا على وجهه أعتى إمارات الجدية والخبرة، لكنه من الداخل كان مرعوبًا، لقد نقل من بضعة أشهر ليخدم في المباحث الجنائية بمديرة أمن القناطر والتي تتبعها قرية (أبو الغيط)، لكنه كبقية دفعته من المفترض أن يتلقى دورة خاصة في البحث الجنائي لكن لظروف إدارية تأخرت تلك الدورة، قسم شرطة (أبو الغيط) _الذي يحوي

على ضابط و7 عساكر_ أبلغهم بإشارة لاسلكية بالحادثة وطلب الحضور على وجه السرعة، وها هو في الثامنة صباحًا يقف بجانب (فهمي) ضابط قسم الشرطة المحلي والذي ظهر عليه نوع من الخمول والراحة كأنه يتعامل مع جريمة سب وقذف لا حادثة قتل.

- فيه حد حرك الجثة؟

قالها (أشرف) بصرامة فرد عليه (فهمي) بلا اهتمام:

- تقريبًا الأهالي نقلوها بعيد عن المقام.

وأشار بيده اليمنى ناحية المقام الذي يبعد حوالي 200 متر عن موقع الجثة الملقاة على ظهرها ومغطاة بملاءة بيضاء.

- وضعية الجثة كانت إزاي لما لقوها؟

- فيه اللي بيقولوا إنها كانت على ضهرها واللي بيقول إنها كانت على جنبها.

- بيقولوا؟؟؟!!!!

- يا (أشرف) بيه الأهالي هنا معندهاش ثقافة مسرح الجريمة، الدنيا ماشية بالتساهيل، لما إدارة المعامل تيجي هاتعرف كل حاجة إن شاء الله.

فكر (أشرف) بأن إدارة المعمل الجنائي مجرد أفراد عاديين وليسوا سحرة، مسرح الجريمة مدمر فكيف سيخرجون بمعلومات، عصر ذاكرته بحثًا عن معلومات درسها في كلية الشرطة عن وضعيات الجثة وترشح الدماء بفعل الجاذبية أو عن حجم الفتحة التي

تصنعها طلقات الرصاص بناء على ابتعاد مسافة إطلاقها لكنه وجد عقله خاويًا، كأنه درس في كلية الفنون الجميلة لا كلية أمنية.

- متكتبش تقريرك إلا لما حد من المعمل يجي، علشان متقابلش أخطاء.

لم يخفِ اندهاشه من قراءة (فهمي) لأفكاره، المشكلة فعلًا في التقرير، لكن هناك أشياء أخرى عليه فعلها.

- قولي يا (فهمي) بيه فيه مشتبهين أو شهود جاهزين للاستجواب؟

- لا.

- عيلة المتهم فين؟

أشار إلى (عزيزة) التي تحتضن ابنها (عزيز) وتفترش الأرض بعيدًا تنظر ناحية المزروعات في حالة شرود وابنها يبكي، ذهب لها ووقف بجانبه.

- البقية في حياتك، إيه صلة قرابتك بالمجني عليه؟

ردت (عزيزة) شاردة كأنها تحدثه من عالم آخر:

- أنا مراته (عزيزة)، وده ابنه، واللي قتله كان واقف هناك.

تبعت قولها بالإشارة إلى منطقة بعيدة كانت تنظر لها من البداية وأكملت:

- فضل مراقبه من أول ما خرج علشان يصلي الفجر، مكنش عارف يصطاده في الضلمة، لحد ما شافه في نور المقام، رفع مسدسه

وضرب طلقتين وهرب وسط الزراعة لحد ما وصل للبحر (النيل) ورمى المسدس فيه بعد ما مسحه بمنديل.

- انتي كنتي هنا وقت الحادثة؟

- كنت في بيتي في الأوضة الفاضية.

اقترب ضابط النقطة منه وهمس في أذنه:

- الست دي بتقول نفس الكلام من بدري، مصدومة.

هزَّ (أشرف) رأسه متفهمًا لكنه قال:

- شفتي وشه يا ست (عزيزة)؟

- لا، أنا كنت بشوف بعينه.

- عين مين؟

- عين اللي غدر بفايق، لكن أنا عارفة هو مين

- مين؟

- (حمامة).

قبل أن يسألها هل تقصد طائر الحمام أم هو اسم رجل رأى شابًا يأتي إليه مسرعًا وخلفه ثلاثة آخرون وهو يقول:

- أهلًا يا بيه، أنا (هلال الصولي) كان المفروض أكون في استقبالك من بدري بس ملحوقة، اتفضل ارتاح في الاستراحة القريبة.

صافحه (أشرف) وهو يقول بحذر مشوب بالصرامة:

- أهلًا يا (هلال)، شكرًا على الدعوة، أنا هافضل هنا لحد ما أخلص شغلي.

- ما تقوله حاجة يا (فهمي) بيه.

تطوع (فهمي) ليشرح:

- أعرفك بهلال ابن الحاج (زهير) كبير عيلة (الصولي)، ناس كويسين ومن زمان بيتعاونوا مع الحكومة، يعتبر هما المسؤولين عن البلد قدامنا.

التقط (هلال) طرف الحديث وأكمل:

- الاستراحة قريبة أوي واللي هاتعوزه هاتلاقيه، الشهود يجوا لحد عندك تاخد أقوالهم.

- أصلي مستني المعمل الجنائي يجي.

- أول ما يحضروا نبلغ سيادتك وتكمل شغلك، و(فهمي) بيه هايسيب العساكر هنا يحرسوا الجثة.

بدا الاقتناع على وجه (أشرف) الذي قال وهو يداعب شاربه وينظر لعزيزة:

- تقدري تتفضلي معانا يا ست (عزيزة) نكمل كلامنا في الاستراحة؟

- إحنا هنوصلها بنفسنا لحد عندك.

قالها (هلال) في حين نظرت هي لهم دون أن تتكلم.. فجأة اقترب رجل في الأربعين من العمر بجلباب فقير وعينين حمراوين حزينة

وقال:

- يا بيه أنا عندي شهادة على خناقة حصلت امبارح مع المرحوم.

تحمس (أشرف) حتى كاد يقفز من فرط التحمس وهو يقول:

- اسمك إيه وشفت إيه بالتفصيل؟

- اسمي (عزوز عبد الباري الحوفي)، أنا شغال مع المرحوم في الطاحونة، إمبارح على المغربية...

قاطعه (هلال) وهو يقول:

- يا (أشرف) بيه يلا بينا إحنا وأنا هاجيبهولك على الاستراحة تتناقش معاه.

- وتجبهولي ليه، انت هاتيجي معانا يا (عزوز).

ابتسم (هلال) ابتسامة صفراء وهزّ رأسه بالموافقة وهو يدلهم على الطريق.

***

- مش محتاج غير أسبوعين أريح دماغي.

قالها (مؤنس محفوظ) لإحسان عبد القدوس، نعم هو الروائي المشهور (إحسان عبد القدوس) والذي كان في تلك الفترة رئيس تحرير (أخبار اليوم).

عدلَ (إحسان) وضع نظارته وقال ساخرًا:

- وأنا مالي، أنا راجل ماشي ومعرفش رايح فين.

- يا (إحسان) بيه امضيلي على الأجازة وأشوفك إن شاء الله رئيس وزراء.

ضحك (إحسان) وهو يقول:

- الله أعلم هاكون بيه ولّا هادخل السجن.

- تف من بق سعادتك دا الخير جاي بس امضيلي على الإجازة.

- يادي أم الأجازة، إنت مش عايز تفهم ليه؟ أنا خلاص مبقتش رئيس تحرير أخبار اليوم ولا حتى في مجلس الإدارة، أنا مجرد تسيير أعمال لحد ما يجي حد مكاني، والله أعلم هايقعّدوني في البيت ولّا هينقلوني على الصرف الصحي.

جلس (مؤنس) أمام المكتب وقال بخبث:

- إنت قلقان ليه بس، دا احنا سامعين إنك مترشح لمنصب كبير.

- بعد حرب أكتوبر (السادات) عايز يغير الوجوه كلّها، تقدر تقول بيتخلص من الحرس القديم.

- سعادتك عمر ما كان ليك عداوات مع حد، امضيلي على الأجازة والنبي.

ضحك (إحسان) بصوت مجلجل أكثر من ذي قبل وهو يرتاح على مقعده ثم قال بعد أن تمالك نفسه:

- والله أنا بحبك يا (مؤنس) ومش عايزك تتبهدل، لو اديتك أجازة أسبوعين الله أعلم مين هايجي بعدي، واحتمال كبير يلغيلك الأجازة من غير ما تعرف ويحولك بعديها على التحقيق للامتناع عن

الحضور.

- يبقى يحلها الحلال.

- إنت عايز الأجازة ليه؟

- هاريح شوية وأفكر في كتابي الجديد.

- عندي ليك الحل.. ريح في بيتك اليومين دول لحد ما يجي رئيس التحرير الجديد، وساعتها شوف نيته إيه.

- هو أنا هاخد الأجازة وأريح في شقتي، أنا هسافر، ومتقلقش كل المقالات سلمتها للجمع وهاتنزل في مواعيدها الفترة الجاية.

- هتسافر بره مصر؟

- لا جوه.

فكر (إحسان) قليلًا وقال:

- عندي حل.. هاظبط الورق هنا إنك في تحقيق صحفي داخل مصر لمدة 7 أيام، وكده ميقدرش حد يلغي الأجازة بتاعتك، اكتبلي أنا رقم التليفون اللي هتتواجد فيه علشان أبلغك لما أمشي وتاخد احتياطك.

- لازم موضوع رقم التليفون ده؟

- إنت هاتنزل في فندق إيه؟

- لا أصلي رايح مكان عائلي

- إنت عندك بلد تسافرلها؟

- آه.

- أنا فاكرك مولود في القاهرة.. أمّال إنت منين في الأصل؟

بدا التفكير على وجه (مؤنس) فبادره (إحسان) قائلًا:

- إيه يا ابني ماتقول.

- مش مهم يا ريس أنا هاسيبلك رقم تليفون بيت لو حصل حاجة اتصل واسأل عليا فيه.

أخرج مفكرة التليفون الصغيرة من جيبه وبحث عن الأسماء حتى وصل لاسم، نقل رقم الهاتف لورقة فارغة من على المكتب وأعطاها لإحسان الذي رأى الرقمين المكتوبين قبل رقم الهاتف والذي يسمى كود المحافظة، قديمًا كان يجب أن تكتب كود المحافظة قبل أن تطلب رقم الهاتف في الهاتف الأرضي.

- ده كود محافظة القليوبية، إنت من بلد هناك يا (مؤنس)؟

- لا دول قرايبي من بعيد هازورهم.

ابتسم (إحسان) معلقًا:

- شكلك بتنكسف من بلدكم.

نهض (مؤنس) متجاهلًا التعليق وهو يقول:

- أنا هامشي دلوقت يا ريس، أشوفك وزير على الأقل إن شاء الله.

- إنت هاتروح امتى البلد دي.

- حالًا.

وخرج من المكتب ليقفز درجات السلم كأنه يهرب من شيء، الواقع أنه يهرب فعلًا، من لحظة إحراج انتابته عندما سخر منه رئيس التحرير بمسألة خجله من قريته التي أتى منها.. لأن ذلك حقيقي.

خرج من البوابة الضخمة وذهب لسيارته المركونة، أعدّ ملابسه وأخذ معه بعض الكتب ليتسلى فيها ووضع كل هذا في حقيبة السيارة الخلفية، أشعل سيجاريلو وقاد السيارة بسرعة متمنيًا أن يبتعد عن الجريدة في أسرع وقت.

أدار راديو السيارة ليستمع عليه للبرامج علها تشغل تفكيره، لكن مع مرور الدقائق فشل عقله في الابتعاد عما أحرجه.

نعم هو يخجل من قريته التي وُلد فيها، والدته أصرت على أن تغادر به بعد الانفصال عن والده وتأتي لتعيش به في القاهرة، صحيح أن أباه كان يرسل لهما مبلغًا شهريًا من المال لكنه لا يتذكر له سوى المعاملة السيئة لأمه في صباه، كان رجلًا غليظ القلب واللسان تحمّلته أمه لزمن لكنها انفجرت وتطلقت، حاول أبوه التواصل معه قليلًا من المرات لكنه كان تواصلًا جافًا بلا طعم، عند موته شعر بنوع من الراحة وكأن حملًا ثقيلًا انزاح عن كاهله.

وربما كان هذا أحد أسباب إخفائه لأصوله القروية، لأن تلك القرية تمثل له أباه، وأقول أحد الأسباب لأن هناك أسبابًا أخرى يخجل من أن يذكرها لنفسه، منها أنه تمنى ألا ينعته أحد بصفة الفلاح بين أقرانه من الصحفيين، تعلم من بعض أساتذة الصحافة إخفاء أصولهم كي لا يرتبطوا بها، نوع من أنواع الترقي الكاذب في السلم الاجتماعي.

متى عاد للتواصل مع عائلة أبيه!!!، لا يتذكر بالتحديد لكنه كان قد بلغ الثلاثين من عمره، أعاد ذلك لنضوجه العقلي على الأغلب، في فترة ما من فترات حياة المرء يبحث عن أصله ويستفسر عن عائلته وهو ما فعله.

ذهب لقريته وتعرف على عائلته التي استقبلته بكل الود والحب عكس ما توقع، لكنه فهمَ تقريبًا سبب الود الزائد، فهو لم يطالب بميراثه من والده منذ مماته، ولم يطلبه وهو يزورهم، لدرجة أنهم أكدوا على أن ميراث والده من الأراضي الزراعية والمنازل جاهز وإيراد بيع المحاصيل يمكنه أن يطلبه في أي وقت، مع التنبيه على رفضهم بيع أي شيء إلا لأفراد العائلة أنفسهم.

فاجأهم أنه لم يطلب المال أو الميراث واكتفى بزيارتهم وإقامته في منزل والده القديم فهو يرى مال والده شيئًا له رائحة المجاري يفضل ألا يمسكه بيديه بعد موته، وطبعًا زاد هذا من محبة عائلته له وافتخارهم به وبما وصله، لكنه شدد عليهم بألا يذكروا تلك الصلة من القرابة كي لا يطمع به الطامعون حينما يعرفون بثراء عائلته.. وافقوه ولم يصدقوه ونشأ عقد اجتماعي بينهم على هذه الأسس.

وصل إلى مدخل قرية (باسوس) وسلك بسيارته الطرق لمنزل أبيه، الفلاحون والعابرون يلقون عليه السلام متبوعًا بلفظة باشا وهم لا يدرون تحديدًا مهنته لكنهم يحفظون سيارته وعائلته التي ينتمي لها في قريتهم، فهو ابن عائلة (الزهراوي)، لكنهم لم يعرفوا من أيِّ فرع في العائلة هو، من منهم يعلم أنه (مؤنس صلاح محفوظ الزهراوي).

***

شعر الضابط (أشرف) بالتوتر الساري بين المحيطين به بعد أن أدخلوه لغرفة استقبال الضيوف في منزل صغير لكنه فخم، رجح أن سبب التوتر هو الرجل الذي تقدم للشهادة، لذلك أصر على أن يكون بجواره حتى دخلوا الغرفة وجلس على أحد مقاعدها، أشعل سيجارة ونفث دخانها ثم قال ناظرًا للرجل:

- شُفت إيه امبارح يا (عزوز).

- قوام كده يا (أشرف) بية، والله ما يحصل قبل ما تاخد واجبك.

قالها (هلال) الذي تملكه القلق وظهر على وجهه المبتسم وهو يلقي بنظرة على (عزوز) من وقت لآخر.

- واجبك وصل وزيادة.

- إنت بتشتمنا بقى، هو إحنا منعرفش الأصول.

أمر أقرب المحيطين به ليحضر الشاي والإفطار، تجاهله (أشرف) وهو ينظر لعزوز ويقول:

- قول... أنا سامعك.

- إمبارح بالليل دخل الطاحونة (خطاب الديب) اتكلم مع المرحوم شوية واتخانقوا مع بعض فالمرحوم ضربه.

- مين (خطاب) ده؟

قبل أن يجيب (عزوز) قال (هلال) بسرعة:

- دا واد مش من البلد يا حضرة الظابط، بيجي يسترزق من الوقت للتاني، لا مؤاخذة بيشتغل باليومية، باينه من بلد في القناطر.

- سمعت قالوا إيه قبل الخناقة.

- حاجة فيها فلوس بس الله أعلم إيه هي.

- وبعد الخناقة حصل إيه؟

تردد (عزون) في الكلام، كأنه يريد أن يتحدث لكن شيئًا ما يمنعه، طبعًا فكر كثيرًا قبل ذكر (حمامة)، في حين قال (هلال):

- أكيد هرب (خطاب) الكلب ده، تفتكر يا بيه هو اللي قتله؟

- ما ترد يا (عزون) حصل إيه بعد كده؟

- مش فاكر حاجة معينة.

قال (هلال) بسرعة:

- مش فيه عمال تانيين كانوا حاضرين معاك في الطاحونة وقت الخناقة؟

- آه.

- خلاص نجيبهم للبيه وهو يستجوبهم واللي نسيته إنت هما يفتكروه.

نهض (هلال) قائلًا بحماس:

- دقايق يا بيه ويكون الكل عندك.

خرج من الغرفة ساحبًا أحد مرافقيه معه ووقفا بعيدًا عن الغرفة

وهو يقول هامسًا:

- إنت تروح دلوقت تجمع كل اللي شغالين في الطاحونة، وتحفظهم الكلام ده، (خطاب) دخل وكان عايز فلوس واتخانق مع (فايق) ولما انضرب مشي وهو بيهلل ويشتم، ولو حد زود فيهم كلمة أو جاب سيرة حد تاني يعرف إنه هايموت.. بعد ما تحفظهم تجيلي بيهم على هنا.

جرى الرجل لتنفيذ الأمر لكن (هلال) فوجئ بعزيزة تدخل وفي يدها ابنها.

- البقاء لله يا (عزيزة)، إيه اللي جابك؟

أزاحته (عزيزة) من طريقها بيدها فصدم (هلال) ولم يصدق كيف تتجرأ عليه لهذه الدرجة، دخلت لغرفة الضيافة ووقفت أمام (أشرف) تقول بجدية:

- كلهم هايخافوا يقولولك حاجة، الحكاية بتتطبخ دلوقت علشان يلبسوها لحد تاني.

- محدش يقدر يضحك على الحكومة يا ست (عزيزة).

قالها (أشرف) وهو يقف لها احترامًا فردّت:

- فيه هنا حكومة تانية وإنت ملكش سلطان عليها.

عاد (هلال) للغرفة قائلًا:

- اعذرها يا بيه جوزها لسّه ميت وحالتها صعبة.

سحبت هي ابنها وغادرت حين قال (أشرف) موجهًا كلامه لعزوز:

- تعرف حد اسم شهرته (حمامة)؟

لم يرد (عزوز) ولم يتفاعل (هلال) فابتسم (أشرف) وقال:

- واضح إن كلكم تعرفوه.

***

بقلق قال (زيدان):

- أنا شايف إنك لازم تنزل بنفسك تقابل ظابط المباحث والمعاونين وترحب بيهم.

سمعه (زهير) شاردًا وهو يداعب حفيده (حمدي) الذي أمسك بمسدس لعبة، لم يرد عليه لكن الرد جاء من (هلال) الذي وقف على مدخل باب غرفة الصالون وكأنه ينوي المغادرة.

- أنا رأيي إن الحاج لو نزل بنفسه يبقى إحنا بندي الحكاية أكبر من حجمها، إنت يا عم (زيدان) اللي المفروض تكون هناك دلوقت، ازاي شيخ الغفر ميكونش مع الحكومة في جريمة قتل.

- أروح ازاي قبل ما أعرف المفروض يحصل إيه؟

- زي ما قلتلك يا عم (زيدان) تقول نفس الكلام على (خطاب).

- أقول ازاي كده وإنت لسّه قايل إن ظابط المباحث عرف اسم (حمامة) وشاكك فيه، أعمل إيه لو ظهر شاهد تاني وكدب كلامي.

أفاق (زهير) من شروده وسأل:

- لما سألكم عن (حمامة) قلتوا إيه؟

- الأول معرفتش أجاوب، بس ربنا فتح عليا واتكلمت بقلب جامد، قلت إن المعلم (حمامة) ده واحد من تجار الخضار اللي بيشتغلوا مع أهل البلد، جه سكن في (أبو الغيط) علشان يبقى جنب شغله، وإنه ملوش لا في الطور ولا الطحين.

- طبعًا مصدقش.

- مش مهم، (حمامة) ملوش ملف في الجنايات وصفحته نضيفة.

تدخل (زيدان) وبخوف قال:

- تضمن منين محدش من الشهود يجيب سيرته؟

- والله العظيم يا عم (زيدان) اللي هايخلف كلمتي منهم لأطير راسه وأولهم (عزوز الحوفي) اللي فتح عنين الظابط عليه.

بهدوء قال (زهير):

- اعمل اللي إنت عايزه بس ابعد عن ولاد (الحوفي).

بغضب ردّ:

- ما هو يابا معاملتك الحنينة معاهم هي اللي خلت واحد منهم يشهد في الأول وميخافش.

بنفس الهدوء رد (زهير):

- وطي صوتك بدل ما أهزقك قدام ابنك وأجيب دماغك تحت رجلي.

- سامحني يابا بس مش كل مرّة تقولنا ابعدوا عن عيلة (الحوفي).

تجاهله (زهير) ونظر لزيدان قائلًا:

- روح إنت للحكومة واثبت على كلام (هلال) وبعدين نتصرف مع اللي يفتح بُقه.

غادر (زيدان) الغرفة و(زهير) يطلب من الطفل هو الآخر الذهاب لأمه ثم يأمر (هلال) بإغلاق الباب، بعد تنفيذ الأمر أشار (زهير) لابنه بالجلوس بجانبه، تسلل الخوف لقلب (هلال) وهو يتخذ مجلسه بالقرب من والده الذي قال بنبرة عادية:

- البلد مفيهاش جثث بتظهر من سنين طويلة، ومن ساعة ما مسك (السادات) والحكومة واقفة على رجل واحدة عايزين يثبتوله إنهم رجالته، يعني حكاية زي اللي حصلت دي هاتفتح علينا العين، (حمامة) بتاعك ده هايسحبنا كلنا للسجن.

- مش هو اللي عمل كده.

- إنت قابلته؟

- لا لسّه مش عارف أوصله، لكن أنا متأكد إنه ممكن يكون أي حد، (خطاب الديب) مثلًا.

- إوعى يلا تكون فاكرني عجزت بجد.. إنت فاكرني الظابط هاتضحك عليه بكلمتين، رجالتنا اللي كانوا بيحرسوا (فايق) مشافوش مين اللي ضربه، تفتكر مين اللي يقدر يعمل كده.. أمك؟

- (حمامة) كبر يابا وعقل ومش هايقتل واحد علشان اتخانق معاه.

- يا ابن الكلب دا أنا اللي جايبه يشتغل معانا، أعرفه أكتر منك، دا

قُطته جمل، لو حد زعله مرّة بيعتبره عدوه طول العمر.

تنفس (زهير) بعمق ليهدأ من الانفعال الذي بدأ في الظهور عليه وقال:

- (خطاب) لازم يموت وتختفي جثته، ولازم المباحث تقتنع إنه هو القاتل، وإنه مجرد واد بلطجي كان عايز ياخد فلوس من (فايق) بالعافية.

- حاضر يابا.

- خلي (زيدان) يتولى موته، وإنت دوّر على الزفت (حمامة) لحد ما تلاقيه.

- من معرفتي بيه شكله مش هايظهر، أكيد وصله خبر إن البلد فيها مباحث.. هايختفي شوية ويظهر تاني لما الدنيا تهدا.

- خلاص جهز شهود إنه بيسافر كتير وإنه مكنش موجود من يومين في البلد، والله لولا إنه ما يتعوضش كنت قتلته بإيدي.

- ومرات (فايق) نعمل معاها إيه؟ دي حالتها كرب.

انفعل (زهير) فجأة:

- يعني أتحزم وأرقصلها علشان أفرفشها، جرالك إيه يا (هلال) ما تولع بجاز وسخ.

- يا حاج قصدي إنها ممكن تتهم (حمامة) في محضر رسمي، دي بقت ولا المجانين وبتخطرف في الكلام.

- الله يكون في عونها، سيبلي أنا الحكاية دي.

***

تخبرني عن تحولات المرأة فأخبرك عن (عزيزة)، أغرب مثال رأته عيني، مازلت تحتفظ بوجهها البريء، لكن طباعها تبدلت، تنتقل من حالة الصدمة إلى التقبل في لحظة ثم تعود للذهول والشرود، الغضب والحلم والاكتئاب والراحة كلها مشاعر تتنقل بينها فتنشرها بين المحيطين في أقل من ثانية، حتى خافها البعض وتجنبوا إثارة مشاعرها.

أتت (جوهرة) شقيقتها و(علي) ابنها ذو الخمسة عشر عامًا وابنتها (مروة) التي تصغره بعام ليقيموا معها في منزل العائلة، (مسعد) الزوج يزورهم يوميًا لكنه فضّل الإقامة بمنزله لتكون (عزيزة) على راحتها.

ومن قال إنها على راحتها، ثلاثة أيام مروا في صمت تام، تناولت الطعام لكنها كانت كفاقدي الوعي، يضعون الطعام في فمها فتمضغه بحركات لا إرادية وتبتلعه، دائمًا ما تلتصق بابنها الحزين الخائف كأنها تطلب حمايته، وهو شعر بتبدلها وحالات الثورة التي تعتريها وهي تسب (حمامة) من وقت لآخر ثم تسب عائلة (الصولي) وفي النهاية تحتضنه وتبكي.

في الليلة الأولى أتت الحاجة (سعيدة) زوجة (زهير) بنفسها ومعها زوجة ابنها وقدمتا واجب العزاء، تحدّثت كثيرًا عن القدر وتقبل المصائب والرضا بالنصيب والمكتوب وكل هذا و(عزيزة) مجرد مستمعة، فأكملت (سعيدة) محاضراتها عن الأخوة والعائلة، وأن (عزيزة) جزء من عائلة (الصولي) وعلى حد تعبيرها:

- ربنا ما رزقنيش ببنات بس والله أول ما شُفتك قُلت إنك بنتي.

- تعيشي يا حاجّة.

- وبما إنك بنتي فانتي مسؤولة مني، كل حاجة تحتاجيها تطلبيها مني على طول.

- الحمد لله ربنا ساترها والطاحونة اللي سايبها أبونا موجودة.

انفعلت (سعيدة) وقالت كأنها تتذكر شيئًا:

- أنا اتكلمت مع الحاج بنفسي علشان الطاحونة، مينفعش تدفعوا عليها ضرايب تاني دي مال أيتام، والحاج عمره ما رفضلي طلب ولا نزلي كلمة.

الرسالة وصلت لعزيزة، هناك الكثير من الامتيازات تنتظرها لو أصبحت ذكية بشكل كاف، فردت عليها ببساطة:

- اللي يعوزه ربنا هايكون.

أقوالها في المحضر الرسمي كانت مفاجأة لجوهرة، فقد رفضت ذكر (حمامة)، وهذا مريح في الواقع، إنشاء عداوة مع مثل هذا الرجل هو الغباء بعينه ناهيك عن عداوة مع عائلة (الصولي) بأنفسهم، لكن (جوهرة) لم تكن غبية فهي تعلم أن زيارة الحاجة (سعيدة) ليست السبب، ولا دخل للخوف في تغيير الأقوال، هناك شيء ما يدور في نفس (عزيزة).

بعد أربعة أيام استلموا الجثة من المشرحة لدفنها، فتحت مقابر عائلة (جاد) لتستقبل الجثة، أقيم سرادق عزاء، كانت الأمور تسير

بوتيرة هادئة، أهل القرية يتناقلون خبر اختفاء (خطاب الديب) يقولون إنه هرب وهذا شيء منطقي لقتله (فايق).

(حمامة) لم يظهر بعد، أهل القرية لم يتحدثوا عنه وكأنه لم يكن، عمال الطاحونة عرضوا على (عزيزة) تشغيلها كي لا تنقطع الأرزاق فوافقت ونصبت عليهم (عزوز) بشكل مؤقت حتى تأخذ قرارها.

لكنّ هناك فعلًا غريبًا أخذت (عزيزة) في فعله بشكل دوري، تخرج في الصباح وحدها وتعود قبل المغرب ولا يستطيع أحد أن يسألها عن وجهتها، عادة غريبة أقلقت (جوهرة) حتى أتى (مسعد) في يومٍ ما لزيارتهم كما يفعل بشكل دوري وأخبر (جوهرة) بالمصيبة.

- أكتر من واحد من أهل البلد قالولي إنهم بيشوفوا (عزيزة) بتروح من صباحية ربنا تقعد على الأرض قدام بيت (حمامة).

لطمت (جوهرة) على وجهها، وقالت وسط الولولة:

- كنت عارفة.. كنت عارفة إنها هاتودي نفسها في داهية.

يمكنك أن تتخيل ما حدث بعد عودة (عزيزة)، دخلا لغرفة النوم ثم جاء الصراخ وتبادل الاتهامات، (جوهرة) خائفة فعلًا عليها، و(عزيزة) تطالبها بعدم التدخل، وانتهى النقاش بإصرارٍ (عزيزة) على رحيل (جوهرة) وتركها لترتاح مع ولدها أيام.

الغريبة أنها وافقت لكن بشرط، أن تترك (علي) معها.

- موافقة.

***

أيقظت (عزيزة) ابن شقيقتها (علي) وأمرته بأن يخرج ليتناول إفطاره، تبعها وهو بين اليقظة والنوم حتى وجد (عزيز) جالسًا بجوار الطبلية في حالة من النوم هو الآخر، افترش الأرض بجانبه ومدّ يده ليتناول الخبز ويعطي جزءًا منه لعزيز.

- هاتخرجي زي كل يوم يا خالة؟

جلست بالقرب من الطبلية وردت ببرود:

- مش بإيدي يا ابني.

- هو انتي عايزة تقابلي (حمامة) ليه؟

- مش عارفة، بس لازم أقابله.

- طب ما تاخديني معاكي.

- وإنت عايز تيجي...

فجأة قطعت كلامها وعيناها تتسعان وكأنها ترى شيئًا أمامها، قالت بشرود محدثة نفسها:

- (حمامة) رجع.

- بتقولي إيه يا خالة؟

قامت وسحبت طرحتها السوداء تغطي بها شعرها وقالت قبل أن تغادر الدار:

- خلي بالك من (عزيز) لحد ما أرجع.

أسرعت في خطواتها فسارت أقرب للهرولة حتى وصلت إلى

الأراضي الزراعية خلف منزل (حمامة)، ثلاثة فلاحين يحرثون الأرض بالفأس رأوها فتبادلوا العبارات فيما بينهم عن انتظارها كلّ يومٍ لحمامة، اقتربت من المنزل الذي لا يحيط به شيء كأنه معزول بالقصد.

وقفت ترمق المنزل بتحفز، فجأة أحست بحركة من خلفها، نظرت لتجده (حمامة) ينظر لها بارتياب وفي حركة لم يتوقعها هو انحنت على الأرض والتقطت حجرًا ألقته عليه، لم يملك الوقت ولا المسافة الكافية للتراجع فاصطدم الحجر برأسه أعلى عينه اليمنى وانفجر الدم من جرح قطعي.

الفلاحون الذين التقطوا ذلك المشهد اقتربوا أكثر ليتابعوا، (عزيزة) تلتقط حجرًا ثانيًا وتلقيه عليه لكنه تفاداه وأمسك بيدها بقوة، أنشبت أسنانها في يده فتحملها لثوانٍ لكنها غرست أسنانها أكثر وشعرت هي بطعم الدماء يغرق فمها، سحب يده وهو يتأوه ويصرخ:

- كفاية.. انتي عايزة إيه؟

طرحتها وقعت أرضًا وشعرها المنفوش والدماء الباقية على شفتيها أعطوها منظرًا جعل الخوف يدب في قلب (حمامة)، ضغطت على كلماتها قائلة:

- قتلت جوزي ليه؟

- مقتلتوش.

- استنيته وقتلته قُدّام المقام ليه؟

- الكلام معاكي مش هايوصل لحاجة.

أمسكت بحفنة من التراب وألقتها في وجهها وهي تصرخ وهو ما زال يحاول تمالك أعصابه التي أوشكت على الانفلات.

من ناحية المنزل ظهر اثنان من حراس عائلة (الصولي) يحمل كلٌ منهما بندقيته على ظهره، اندفعا ناحية (عزيزة) وأحدهم يوجّه بندقيته نحوها وهو يسبها، رفع (حمامة) كفه لهما وهو يأمرهما:

- محدش يقربلها.

- حق جوزي هاخده منك ولو بعد 20 سنة.

- يا مين يعيش يا (عزيزة).

- أنا هاعيش وهاربي ابني على حلم واحد.. يفصل راسك عن جسمك، وهايحصل ولو دخلت قبري بعدها بساعة.

كان يعلم أن ثورتها تهدأ فحافظ على صمته، وفعلًا نظرت له بحقد طويلًا ثم رفعت غطاء رأسها من على الأرض وارتدته ليقع التراب الذي تلوث به على ملابسها ووجهها فزادها قسوة، غادرت المكان وعيناها مازالتا معلقتين به.. نظر (حمامة) لها وهي تبتعد وتمر على تجمع من الأهالي قوامه ثمانية أفراد أتوا على صوت الصراخ، بمجرد أن نظر ناحيتهم تفرقوا.

أما هي فأكملت مسيرتها في القرية وشعور جديد يغزو خلاياها، شعور بالراحة، استعادت شيئًا من نفسها بعد هذه المواجهة، أهل القرية ينظرون لها بعيون مشفقة بينما هي لأول مرّة منذ وفاة زوجها تلقي عليهم السلام واحدًا واحدًا بالاسم كسابق عهدها.

***

- نورت بلدك يا (حمامة).

قالها (زهير) وهو على رأس مائدة الإفطار التي جلس عليها (هلال) و(زيدان) و(جمال) و(حمامة) بالطبع الذي لف على إحدى يديه رباطًا ليوقف الدماء وعلى وجهه وضع لاصقة طبية، كان إفطارًا متأخرًا في وقت الظهيرة لكن (زهير) أصر عليه بعد علمه بحضور (حمامة).

- البلد منورة بكبيرها.

أمسك (زهير) بقطعة كبيرة من الفطير المشلتت وغمسها في طبق المورتة ثم ألقاها في فمه وقال:

- أنا فطرت الصبح، بس نفسي اتفتحت تاني لما شُفتك، كنت فين الكام يوم اللي فاتوا؟

طبعًا لم يتناول (حمامة) أي لقمة طعام كعادته.

- كنت بشوف مصالحنا في (الخرقانية) و(شلقان) و(العرب) لحد ما جالي خبر البوليس اللي ملا البلد.

قال (زيدان) وهو مندمج في تناول الطعام:

- عملت طيب إنك مجتش، الظباط سألوا عليك بس إحنا قفلنا الموضوع.

بقلق قال (هلال):

- قُدّام الناس وبصراحة، قول لنا إنت اللي عملتها؟

- لا.

- يعني محستش بالإهانة من (فايق) فقتلته.

- محدش يقدر يقل مني ويفضل عايش.

ضحك (زهير) وقال بتباسط:

- يعني إنت اللي عملتها.

- قلت لا يا حاج.

- يبقى (خطاب) هو اللي عملها.

قالها (زيدان) فنظر له (حمامة) وببرود سأله:

- هو فين دلوقت؟

- الله يرحمه، كان لازم حد يلبسها وأهو عمل اللي عليه.

هنا قال (زهير) وهو ينفض يده من الطعام:

- خلينا في المهم، إنت من دلوقت لازم تخف رجلك على البلد، (جمال) هايفهمك كل حاجة.

قال (جمال) بلهفة كأنه ينتظر إيجاد دور له في تلك الجلسة:

- إنت هاتيجي معايا على محافظة (بنها)، هانفتح لينا شغل هناك، أنا بدأت من شهر، فتحت محلات أدوات منزلية وفرش، مهمتك تحمي شغلنا علشان نوسعه وبعديها عيلتنا هنا هايبعتولنا البودرة خام كمان كام شهر، إحنا هانخرطها و...

قاطعه (حمامة) بقليل من الانفعال:

- أنا مش رايح في حتة، هافضل هنا.

تكهربت الأجواء قليلًا في حين قال (هلال):

- دا لمصلحتك ومصلحتنا، وانت ياما ساعدتنا نفتح شغل في بلاد كتير، حبكت يعني المرة دي تعصلج.

- يا (هلال) أنا مش هاروح مكان إلا بمزاجي.

كان الانفعال في عبارة (حمامة) هذه المرة واضحًا لدرجة أن صوته ارتفع أكثر مما ينبغي، صرخ فيه (زهير):

- إنت ياد هاتخوفنا، بنقولك علشان مصلحتك ومصلحتنا، ما تتكلم عدل.

خفض (حمامة) عينيه للأسفل وقال:

- سامحني يا حاج، أنا اتكلمت من عشمي

وفي حالة من الانفعال قليلًا ما تخرج من (زهير) أزاح أحد أطباق الطعام بغضب فطار في الهواء واصطدم في الحائط متهشمًا، مسح على وجهه وهو يقول بصوت أقل انفعالًا:

- يا ابني أنا مش عايز مشاكل في البلد إحنا مش ناقصين، وإنت روحك في مناخيرك ومش كل حاجة تتحل بطريقتك، الناس لو حسوا بالقهر منك هايقلبوا علينا.

- أنا هافضل بعيد عن الناس.

- بس هما مش هايبعدوا عنك، إنت بقيت لبانة في بقهم، تفتكر إن لما (عزيزة) جاتلك النهارده واتجننت عليك الناس معرفتش، دول ناقص يذيعوها في الراديو.

- أنا هاتصرف.

- هاتتصرف إزاي، تفتكر إنها هاتسيبك في حالك، هاتفضل تنطلك في الرايحة والجاية، إنت بقى هاتعمل إيه؟ هاتقتلها؟

- لا أنا مش هاقتل (عزيزة).

قالها وعيناه مازالتا تنظران لأسفل، والغريبة أن من كانوا على الطاولة شعروا بأن العبارة تحمل شيئًا ما أبعد من معناها.

***

(5)

اليوم الثالث

الأمن مستتب أمام منزل (نوح) في قرية (أبو الغيط)، (خيري) استلم الحراسة الصباحية من المملوك (قاسم) وها هو يجلس على المقعد بجوار المنزل الهادئ منذ ساعة، لمح شابًا يأتي من بعيد حاملًا لفة في يده، كان (قاسم) قد أخبره بكل شيء عن (عنتر) وتوقع أنه هو، بمجرد اقترابه من المنزل سأله بغلظة:

- اسمك إيه؟

- أنا (عنتر) وانت اسمك إيه؟

ربما بسبب براءة وجه الشاب أجاب (خيري):

- أنا (خيري)، إيه اللي في إيدك؟

- إزيك يا عم (خيري)؟ دي لقمة علشان عم الشيخ، هو فين؟

- جوه.

- أنا داخلّه.

- ممنوع الدخول.

حانت من (عنتر) التفاتة إلى أسفل نافذة المنزل فوجد لفة الطعام التي تركها بالأمس ملقاه كما هي.

- هو عم الشيخ ما أخدش الأكل اللي أنا جايبهوله ليه؟ دا أنا جايبله النهارده بيض مسلوق وجبنة قديمة

- ممنوع دخول الأكل أو الميّه يا (عنتر).

- سمعتها من الراجل اللي كان واقف هنا، إلا هو اسمه إيه؟

- اسمه (قاسم).

- عم (قاسم) كان عايز يموتني.

قالها وببساطة طرق بقوة على نافذة المنزل وهو ينادي على (نوح)، نظر (خيري) إلى رجال (الصولي) الجالسين بالقرب من المنزل فهز أحدهم رأسه له بمعنى "اتركه يفعل ما يريد".. طرقات طرقات نظر بعدها له بيأس وقال:

- هو مبيردش ليه يا عم (خيري)؟

- يمكن لسّه نايم، تعالى بالليل قابله.

- لا أنا هاقعد أستناه.

وجلس أسفل النافذة فلم يجد (خيري) شيئًا يفعله حاليًا إلا الجلوس هو الآخر على مقعده.

- قولي يا عم (خيري).. إنتوا ولاد كلب ليه؟

***

ثلاثة أحصنة عليها (رجب) واثنان آخران يجريان في القرية، قليلًا ما يمتطي أبناء عائلة (الصولي) الأحصنة وهذا معناه حاجتهم للتحرك السريع، توقفوا بجانب إحدى الأراضي الزراعية التي يعمل بها بعض المزارعين الذين انتبهوا فتركوا ما يفعلون.. وقفت الأحصنة بالقرب منهم ونزل (رجب) ومرافقيه وهو يصيح كالديك:

- مش عايز تدفع الفردة ليه يا (هنداوي)؟

تقدم منه رجل في الخمسين وقال بثقة:

- مش كل شهر تزودوا الإتاوة علينا، اللي هادفعه الشهر ده هو اللي بدفعه كل شهر، كفاية إنكم محرمين علينا نخرج نروي أرضنا الفجرية، هو حكم (قراقوش).

- آه حكم (قراقوش)، وانت هاتدفعها الشهر ده بزيادة والشهر اللي جاي أزيد علشان طولة لسانك.

ثم نظر لبقية المزارعين الواقفين وقال:

- وانتوا زيه مش هاتدفعوا الفردة؟

- إحنا زيه هاندفع بسعر الشهر السابق.

أشار (رجب) لرجاله وقال:

- امسكوه.

عندما اقترب بقية المزارعين أخرج (رجب) سكينًا من طيات ملابسه فتوقفوا، أعاد السكين وذهب لحصانه ينزع من عليه العصا والفلكة، وهي أداة مصرية تراثية قديمة مصممة بطريقة معينة لتكبل قدم الضحية ويتم رفعها للأعلى فتعلق الضحية من قدميها كالذبيحة ويمكن ضربه على قدميه بكل سهولة.

علقوه في الفلكة ورفع (رجب) العصا للأعلى ثم هوى بها على قدمي (هنداوي) العاريتين وهو يقول:

- أنا لو مرجعتش بالفردة المماليك هايجوا مكاني وهايقتلوكم.

صرخ الرجل وتفجرت الدموع من مقلتيه من جراء إهانة كرامته و(رجب) يضربه ويتكلم.

- اللي بعمله ده يا شوية بهايم علشان مصلحتكم، إنتوا مش قد المماليك.

صرخ أحد المزارعين وهو يرفع فأسه لأعلى قائلًا:

- يلعن أبوك لأبو المماليك، هي موتة والا أكتر.

تقدّم إليهم فأخرج (رجب) سِكّينه ثانية لكن الرجل أكمل تقدمه وتبعه البقية وأحدهم يحمل عصا وآخر يلوح بفأس صغير، تراجع (رجب) للوراء وأمر رجاله بترك (هنداوي) ثم ركبو الأحصنة بسرعة وغادروا وهو يقول:

- بكرة هاتفهموا يا شوية حمير.

***

استيقظ (نوح) بفم جاف وألم برأسه، الظلام داخل غرفة نومه لا يعطيه لمحة عن النهار والليل، نافذة صالة الاستقبال فقط هي التي يدخل منها الضوء حتى وهي مغلقة.

وكأن حِمل الدنيا كله على أكتافه فتح باب الغرفة وخرج باتجاه النافذة، دخل بصيص من الضوء قيّم منه أن الغروب اقترب، سمع صوت يتحدث من خارج النافذة، صوت (عنتر)، كان يغني أغنية شعبية قديمة، ابتسم وقال بصوت لم يتخيل أنه سيخرج مجروحًا

هكذا:

- ازيك يا (عنتر)؟

- عم الشيخ (نوح)، افتحلي أنا مستنيك من الصبح.

تداخل صوت (خيري) يقول:

- قوله يمشي يا شيخ (نوح) علشان لو دورية عسكر عدوا بعد الغروب هايقبضوا عليه.

- (عنتر)، إنت لازم تمشي يا ابني.

- مش قبل ما تاخد الأكل والميّه اللي جبتهُملك.

- ما أقدرش لا أفتحلك ولا آخد منك حاجة علشان خايف عليك.

- خلاص هاستناك لحد ما إنت تخرج لوحدك.

ضحك (نوح) فسعل، قال بعدها:

- مش إنت بتحبني يا (عنتر)؟

- آه والله.

- يبقى تسمع كلامي وتمشي دلوقت.

- خلاص أنا ماشي.

بعد ثوانٍ قال بلهفة:

- يا عم الشيخ كنت هانسى أقولك.. (حمودة) بيسلم عليك.

- إنت شُفته فين؟

- حلمت بيه وأنا نايم، بعتلك السلام وقال إنه مستنيك، هو إنت رايحله قريب؟

- شكلها كده يا (عنتر).

- مع السلامة.

أراح (نوح) رأسه على الأرض ولم يفقد الابتسامة بَعد، حديثه مع (عنتر) أراح نفسه قليلًا، الغريب أن شعوره بالعطش والجوع قلّ كثيرًا، لكن تركيزه صار منعدمًا وإحساس طاغٍ بالنوم يهاجمه لذا أغمض عينيه ليستسلم لذلك الشعور المريح.

وقع في النوم لكنه حلمَ بحُلمٍ غريب، رأى نفسه يمسك بكتاب السحر الغريب وبجانبه امرأة في الخمسين تنظر له بحزن، فزع من الحلم واستيقظ وهو يستعيذ بالله من الشيطان، نظر من خصاص النافذة فوجد الظلام، ضاعت منه صلوات اليوم بكامله، تحامل على نفسه وتوضأ بالتيمم ليصلي وهو ما زال يستعيذ بالله من الشيطان.

***

هذا اليوم أحضر (قاسم) معه كنكة القهوة وبعض أعواد الخشب الجاف، أشعل لنفسه نارًا بجوار بيت (نوح) وأعد القهوة ليشربها، لن يطلب من عائلة (الصولي) القريبة منه أيّ شيءٍ فهم أجلاف.

أعدّ القهوة وصبها ثم أشعل البيبة وسحب منها نفسًا عميقًا تبعه برشفة من القهوة، نظر لرجال (الصولي) وهم يتحدثون حول النار والضحكات تجلجل بينهم من وقت لآخر وشعر بالوحدة، لكم تمنى أن يكون مثلهم.

من داخل دار (نوح) سمع صوتًا، اقترب أكثر وألصق أذنه بالنافذة، صوت بكاء شديد وشخص يدعو الله إن شاء ينجيه وإن شاء يهلكه، لم ينكر أنه تأثر، لكنَّ عبارات أخرى سمعها لمست وترًا حساسًا بداخله حين قال (نوح) باكيًا "كلنا عبيد يا الله، استعبدونا في الدنيا وناطحوك في ملكك، ربي.. إن الملوك إذا شابت عبيدهم في رقهم عتقوهم عتق أبرار.. وأنت يا خالقي أولى بذا كرمًا.. قد شبت في الرق فاعتقني من النار".

لم يجد سببًا يفسر له هذه الدموع التي انهالت من عينيه إلا لأنه سمع من يذكره بعبوديته، رفع يدًا مترددة ودق على النافذة وقال بصوت خفيض:

- ادعي لي يا شيخ يخرجني من العبودية.

توقف صوت (نوح) قليلًا ثم عاد يقول بصوته الباكي المجروح:

- ادعيلي إنت إني أرتاح.

***

اليوم الرابع

الليلة السابقة كانت سوداء على (قاسم)، جلس بقرب المنزل يستمع لتضرعات (نوح) طوال الليل حتى قبل الفجر بقليل، لم يتناول طعامه وتوقف عن شرب القهوة والتدخين وظل في حالة من ثبات المشاعر كأنه في حلم طويل أيقظه منه مقدم (خيري) ليستلم منه نوبة الحراسة، لكنه لم يغادر بل ظل جالسًا بجانب (خيري) صامتًا وهذا الأخير يحاول تبيان حال زميله.

- حصلت حاجة إمبارح يا (قاسم)؟

- لا.

- أمّال مرحتش تنام ليه؟

- فاكر البلد اللي جيت منها يا (خيري)؟

التفت له بدهشة فهذه الذكريات لم يعتد المماليك على النبش فيها من صغرهم، لكنه رد باقتضاب:

- مش فاكر غير إني كنت عايش جنب جبل عليه تلج

- فاكر أهلك؟

- مش فاكر.

- ولا أنا فاكر.

- روح نام أحسن بدأت تخرف.

- إيه الفرق بينا وبين المصريين؟ ليه تجار العبيد اختارونا إحنا

وجابونا هنا، ليه مش العكس؟ يعني المصريين يتاخدوا عبيد ويجيوا بلادنا ويكونوا فيها مماليك.. بس في كل الحالات هانكون كلنا عبيد.

- إوعى تكون أكلت الداتورة اللي بياكلها ولاد (الصولي).

- أنا واعي وفايق.

ظهر على امتداد البصر ما قطع حديثهما، كان (عنتر) آتيًا وفي يده لفافة كل يوم، لكن بجواره عشرة شباب على الأقل ومن بينهم (حمزة) ويحملون لفافات مشابهة، تحفز رجال (الصولي) ونصب (خيري) قامته رافعًا بندقيته في حين ظل (قاسم) على حاله.

بمجرد اقترابهم تركوا اللفائف على الأرض وتقدم (حمزة) يقول بنبرة مرتفعة ليسمعوه.

- إحنا هانسيب الأكل والمية هنا النهارده، لكن بكرة هاندخل بيته.

بينما تقدّم (عنتر) وهو يلوح بيديه في الهواء ويقول:

- ازيكم عاملين إيه؟

***

عاد (إسماعيل) بك لقصره وسط مماليكه وسنابك الخيول ترن وسط القرية، لفت نظره نظرات الأهالي له، فهم إما يتجنبون النظر لموكبه أو تمتلئ عيونهم خوفًا ورهبة إن وقعت عليه، لكن اليوم النظرات صارت أقرب للجراءة فبعضهم يثبت عينيه عليه بلا خوف.

فتحت البوابة الكبرى فدخلها وترجل من على ركوبته وعينه تشي

بالقلق داخله، المملوك قلق بطبعه فحياته سلسلة من المؤامرات لكن ليس عليه أن يزيد قلقه بالانتباه للعامة.

سأل أحد الحراس عن (أيوب) فأجابه بأنه خرج منذ قليل ليحل مشكلة مع الأهالي، انتظره في القاعة الشتوية لساعة كاملة حتى عاد ودخل عليه بعدما علم بسؤاله عنه:

- حمد لله على سلامتك يا بك، إن شاء الله تكون موفق في رحلتك للمحروسة.

- المشاكل كتير والتوقعات سيئة، أخبار (أبو الغيط) ونواحيها إيه؟

- الحمد لله كل حاجة مظبوطة.

ابتسم (إسماعيل) بسخرية قائلًا:

- يعني إنت مش عايز تحكيلي على الحقيقة؟

ابتسم (أيوب) هو الآخر لكن بنوع من الخجل وهو يرد:

- الأمور على حالها في البلد، وإنت طول عمرك بتسيب المسؤولية دي عليا.

- إنت بتواجه تمرد من العامة يا (أيوب) صح؟

- المعتاد يا بك.

نادى (إسماعيل) على أحد الحراس الذي أتى فطلب منه إرسال الخدم بقهوة وبعض الحلوى، عاد للكلام مع (أيوب) بجدية.

- العامة عمرهم ما يتمردوا إلا إذا حسوا بالأمل، مين أملهم المرة

دي؟

- (نوح).

شغل (إسماعيل) عينيه بزخارف نباتية على أحد الحوائط وقال:

- طلب العفو مننا؟

- لسه.

بقاله كام يوم محبوس

- أربعة أيام من غير أكل ولا شرب.. لكن هانت.

- فيه ناس مدفعتش الفردة؟

- للأسف آه، كتير.

شرد ببصره ثانية وهو يقول:

- إدي للشيخ ده يوم كمان، لو ماطلبش السماح ومشي يبقى اقتله.

- الناس هاتتجنن والرعاع صوتهم هايعلى علينا.

- لفترة قليلة وبعديها هاينسوه، لكن لو عاش أكتر من كده هاينتشر التمرد في كل مكان..

حمد (أيوب) ربّه أن (إسماعيل) لم يسأل عن تفاصيل أكثر، لأن حالة التمرد في القرية أصبحت أكبر من المعتاد وتنذر بانفجار.

***

لم يعد يعلم متى يكون الليل ومتى يكون النهار، أشعل (نوح)

شمعة بيد مرتعشة بعد معاودة شعور العطش ونظر لباب الدار وبكى، خلف هذا الباب ينتظره الماء والطعام لكنه عاجز، يقتلونه بالبطيء.. في أي وقت ينام فجأة ويستيقظ فجأة، لا يتذكر هل صلى أم لا، حتى الصلاة نفسها لا يدري هل كان يؤديها بشكل صحيح أم يخرف.

لم يعد يتبول من يومين فحتى فكرة شرب البول لم تعد مجدية، التفت للمحبرة وعاودته فكرة طرقت باب رأسه كثيرًا، لم يعد هناك بُدٌ من تنفيذها.. أمسك بالدواة وفتحها ثم جرع منها جرعة نهمة.

طعم مقرف نتن يدخل جوفه ثم معدته.. تقلّص وألمّ ببطنه ثم قيء، لم يتقيأ شيئًا تقريبًا إلا القليل من الحبر مختلط مع مادة صفراء شفافة، ظلّ في هذا القيء المؤلم لدقائق قبل أن يغيب عن الوعي.

استيقظ شاعرًا بالإعياء أكثر من الأول، فكر كم هو ضعيف وكم تخيل نفسه في صورة العابد الزاهد، من يتحمل الجوع والعطش ويصبر على لذات الدنيا، والحقيقة أنه انهار بعد وقت قليل.

هل يكتب الخطاب الذي يستعطف به المماليك، أمسك دواة الحبر والتفت للباب، يمكنه أن ينهي معاناته، شيئًا ما في نفسه رفض تلك الفكرة، قال بصوت ضعيف:

- عايز أخرج.. عايز أخرج.

ثم ابتسم، تحامل على نفسه ونهض ومعه الدواة، ذهب لأحد الجدران وغمس إصبع يده في الحبر وخط على الجدار بعض الخطوط وهو يضحك بلا صوت، تراجع للوراء لينظر لما فعله، رسمة

بدائية لباب كبير بمقبض.

جلس أرضًا واستسلم للنوم لدقائق فاق بعدها وأمسك بكتاب (كشف غطاء البصر عمن حضر) وفتحه قائلًا بسخرية:

- مماليك تستعبد البشر وبشر يستعبدوا العفاريت.

ما باغته فعلًا أن عينه كانت تقرأ بسهولة وحتى المقاطع الفارسية مازال يمتلك كامل قدرته على ترجمتها بمجرد النظر، جزء من عقله مازال بكامل لياقته، أم هو يتخيل ذلك؟

كان يمر بعينيه على الكلام الذي يشرح مواضع الأبراج ومواعيد عمل الأسحار وحتى المقاطع المكتوبة بالفارسية، توقف عند مقطع بالفارسية جذبته ترجمته يقول:

(لو نسخ هذا الكتاب فلن يفيد أحد، لذلك يا بني طلبت منك مرارًا وتكرارًا بتذويب حبره ودفن الورق نفسه، السر في الورق، خطت عليه الطلاسم بحبر (الساري) الذي لا يرى لعين البشر فجعلته كالمنارة وسط ظلمة الليل لا يراه إلا مندوبي (برقان)، ولن ترى المندوبين إلا إن كنت المختار).

تحت المقطع وجد رسمة بطريقة (محمد سياه قلم) فيها رجل يجلس القرفصاء يقرأ في كتاب وخلفه ظلام دامس يظهر منه عين وملامح مرعبة ضبابية.

لم يجد (نوح) ريقًا ليبتلعه من قوة الخوف الذي انتابه، ربما لأنه في حالة انهيار حوّلت مشاعره لكتلة من اللهب تشتعل بلا منطق، وربما لأنه شعر بشيء معه في المنزل.

قال بصوته المرهق لنفسه ليطمئن:

- لا، الكتاب ده مش قديم أوي دا مجرد نسخة، أنا عارف، أنا ناسخ، أنا (نوح الناسخ).

فكر أنه من المستحيل أن يكون ذلك الكتاب هو النسخة الوحيدة. هاجمه شعور النوم فحاول الاستسلام له لكنه فشل، الخوف غلب النعاس، زحف حتى الجدار وأسند ظهره إليه متلفتًا حوله، كم ظلّ في مكانه؟ لا يعلم، لكنه ضحك بلا صوت والدموع تملأ عينيه ثم زحف وأمسك بعباءته الملقاة في طرف القاعة، حاول تمزيقها بأسنانه لدقائق حتى نجح، جسده يهتز من ضحكاته وآلامه وهو يكتب على قطعة من نسيج العباءة بالقلم بعد غمسِه في الحبر اسمه واسم أبيه وجدّه ثم اسم أمه وأبيها وجدها، زحف حتى وصل للكتاب وقلب في صفحاته الأولى حتى وصل لمراده ونقل العبارة إلى النسيج (ظهر وبان بأمر الله لعبده الفقير) ثم اقترب من الشمعة وقرأ الكلمات بصوته الضعيف لكنه حمل لمحة ساخرة:

- بأمر الله اقترب بهدون بهدون بهدون علمون علمون علمون أيك أت أعبد رحمون رحمون رحيم رحيم افتح عيني على من حضرني يا حامل سيف الثعبان..

سمع صوت خطوات من حوله، ضحك للمرة الألف وهو يلعن الخبال الذي أصابه بعد كل هذا الجوع والعطش لدرجة تهوره وقراءة تعويذة بل وتخيل أنه يسمع صوت خطوات أقدام.

لكن الشمعة انطفأت وأدرك صوتًا يحدثه في أذنه بصيغة الأمر وبنبرة حادة ليست كصوت البشر يقول "التزم بالمكتوب يا ابن آدم"،

شعر بعدها بالحر الشديد فربط قطعة القماش التي كتب عليها حول رأسه بسرعة كما كان مكتوبًا في الكتاب.

***

(6)

مرّ أسبوع وأصبحت (عزيزة) في حالٍ أفضل، تذهب بابنها ويرافقها (علي) ابن (جوهرة) إلى المقابر لتزور قبر عائلتها والذي أصرّت على دفن (فايق) فيه، كلّ صباح كما هي العادة تقرأ الفاتحة وتدعو له ولأبيها وجدودها بالرحمة والمغفرة، بعد نهاية الأسبوع أخذت ولدَها وذهبت به لمدرسته كي تقدّم شهادة الوفاة وتبرر غيابه طوال تلك الفترة مع وعد بإنتظامه على الحضور وهذا ما حدث.

وكم هي غريبة تلك الحياة التي تستمر بعد موت الأحباء، ينشغل العقل ساعة وراء ساعة بأشياء أخرى وتظل ذكرى الميت في ركن بعيد يعود له الأحياء من وقت لآخر.

زارت شقيقتها (جوهرة) واعتذرت لها عن الحالة التي كانت عليها من قبل، ولم تكن تحتاج حتى للاعتذار فجوهرة تحبها وتراها كابنتها، ومن الصعب أن تنتظر الأم من ابنتها الاعتذار، بادرتها (عزيزة) قائلة:

- عندي فكرة علشان الطاحونة، إيه رأيك أنا أقف فيها الصبح و(مسعد) جوزك يقف فيها بعد الضهر.

تحرجت (جوهرة) من إخبارها برأيها فأكملت (عزيزة):

- عارفة عايزة تقولي إيه، الناس هتتكلم على الست اللي واقفة تشتغل وكأن معندهاش رجالة، بس (مسعد) عنده الدكان بتاعه وحرام يقفله دا باب رزق.

- الحل عندي.. تاخدي (علي) يقف معاكي الصبح، وبعد الضهر يقف

مكان أبوه في الدكان.

رحبت (عزيزة) بالفكرة وعادت لمنزلها ودخلت للغرفة الخالية، أشعلت المصباح وقرأت الفاتحة، ثم قالت:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا عارفة إن ليك دخل كبير في إنك تخليني أشوف اللي بيحصل بعيد عني من وأنا صغيرة، حتى روح أبويا وريتهالي وهي بتفارقني، أنا نفسي في حاجة تانية، أشوف حبايبي اللي ماتوا، عايزة أشوف (فايق) وأكلمه.. وحشني.

***

مرّ أسبوع جديد والحياة تسير بوتيرة منتظمة.. (عزيزة) مع ابن شقيقتها (علي) في الطاحونة صباحًا وهي تتعلم ما استطاعت عن إدارتها وبعد الظهر تعود للمنزل في انتظار ابنها (عزيز) وتعد له الطعام وتشرف عليه وهو ينهي مذاكرته وفي الليل تقرأ القرآن لتهدي ثوابه لفايق.

اليوم فقط لم تسر الأمور كما يجب، عادت (عزيزة) لمنزلها وأخذت في تحضير طعام الغداء مع تجهيز حلوى (سد الحنك) لأن ابنها يعشقها، وفجأة انقبض قلبها وشعرت بعزيز خائف ويحاول الهرب، وفجأة انقطعت الرؤيا.

خرجت من دارها جريًا فقابلت أحد الرجال فنادت عليه بلهفة:

- عم (شلبي) قول لعلي إبن اختي يجيلي على مدرسة (عزيز)

لم يسألها الرجل بل نادى على أحد الشباب وأمره بتبليغ الرسالة بأسرع ما أمكنه، و(عزيزة) تجري وتجري حتى تقطعت أنفاسها،

تعثرت وسقطت مرتين لكنها لم تبالِ، خرجت لطريق السيارات السريع بعد القرية وغيرت اتجاهها إلى ناحية القناطر الخيرية، مدرسة ابنها قريبة، لكنها فوجئت بأطفال يرتدون ملابس المدرسة يهرولون في الاتجاه العكسي متجهين ناحيتها، أوقفتهم فتعرف أحدهم عليها وقال من بين لهاثه:

- عربية راكب فيها اتنين مغطيين وشهم خطفوا (عزيز) من قدام المدرسة.

***

جهود بحثها باءت بالفشل، السيارة بلا أرقام وضابط القسم قال إنها على الأغلب مسروقة والشهود مجرد أطفال، (علي) و(مسعد) يحاولون تقديم المساعدة لكن لا أحد يعلم ما يجب فعله، ذهبوا جميعًا بعد صلاة العشاء إلى منزل شيخ الخفر (زيدان الصولي) الذي استقبلهم في المضيفة وأكرمهم، فجأة أمسكت (عزيزة) يده تقبّلها قائلة بلوعة:

- والنبي يا حاج (زيدان) أنا مستعدة أعمل أي حاجة بس (عزيز) يرجعلي.

سحب يده وقال متعاطفًا:

- أستغفر الله العظيم.. اللي في إيدي هاعمله يا بنتي، الغفر بتوعي هايدوروا من الليلة دي على ولاد الليل القريبين من بلدنا يمكن حد منهم اللي عمل كده.

- إنت عارف يا شيخ الغفر اللي عمل كده مين.. (حمامة)، قوله إني

مستعدة أبوس رجله قدام البلد كلها بس يرجعهولي.

بهت (زيدان) وارتبك وهو يرد عليها:

- و(حمامة) هايخطف ابنك ليه بس؟

- أنا اللي حمارة وغبية، رحت هددته بيه فحرمني منه.

- (حمامة) مش في البلد من يومين.

حاولت تقبيل يده ثانية وهي تقول:

- أنا هتنازل عن حقي في كل حاجة أملكها خدوها أنا راضية، بس بلاش ابني.

تمتم (زيدان) بصوت خفيض يلعن به (حمامة) لكنهم سمعوه، نهض ونصب قامته قائلًا:

- أنا هاطلع على العمدة أخده في إيدي ونروح على كبيرنا كلنا، الحاج (زهير)، وبإذن الله نحل المصيبة دي

تركوا داره فاقترحت (جوهرة) أن تذهب هي وابنتها لمحاولة مقابلة الحاجة (سعيدة) زوجة (زهير) لكنها طلبت من (عزيزة) العودة للمنزل لأنها ليست في حالة تمكنها الكلام بحكمة فبعد كل شيء الكلام مع زوجة (زهير) يجب أن يكون بحساب.

عادت (عزيزة) لمنزلها برفقة (علي) وجلست على الأريكة دامعة تنظر لباب الغرفة الخالية و(علي) يواسيها بين وقت لآخر.

خرجت حشرجة من حنجرة (عزيزة) وأمسكت رقبتها بيدها اليسرى وباليد الأخرى لوحت في الهواء، أمسكها (علي) محاولًا

تهدئتها، لكنها ظلت على هذه الحالة لنصف دقيقة قبل أن تهدأ وتنساب الدموع من عينيها ثم فقدت وعيها، نقلها (علي) لغرفة نومها وأصيب بحالة من الضياع فيما يجب أن يفعله.

أيذهب ليستدعي أمه؟ لكنه سيترك خالته في حالتها الغامضة تلك، أم يظل بجانبها لكنه لا يعلم ما يجب عليه فعله فربما يخاطر بعدم نجاتها.. اتخذ في النهاية قراره وظلّ بجانبها وكل بضع دقائق يضع إصبعه عند فتحتي أنفها ليتأكد من أنها تتنفس.

بعد ساعة تقريبًا وصلت (جوهرة) وابنتها وفزعت من حالة (عزيزة)، هشمت بصلة وقربتها لأنفها فعاد وعيها لها، سألتها ألف سؤال لكنها لم تجب بل هبطت عليها حالة اكتئاب أعنف بمراحل من التي أصابتها عند موت (فايق).

أمرت ولديها بالعودة للمنزل وتركها هنا الليلة بجانب أختها، جلست بجانبها على الفراش ووضعت يدها على رأسها ترقيها وتقرأ آيات القرآن حتى أغمضت عينيها، غطت جسدها وغادرت الغرفة على أطراف أصابعها لتنام في الغرفة الثانية.

لكن (عزيزة) لم تنم، أغمضت عينيها فقط لتصفي عقلها، بعد ساعتين سمعت صوت ابنها يخبرها بشيء.

غادرت الفراش ووضعت الطرحة على رأسها وسحبت من الدولاب 100 جنيه ثم غادرت الدار.

***

(عزت) كان ساهرًا في منزله الصغير بباسوس يلعب الطاولة مع

زوجته في غرفة النوم ويضحكان، مواعيد نومه دائمًا في حالة يرثى لها، ليلة يسهر إن طلب منه أحد مهمة خاصة ويضطر لعدم النوم ليخرج في الصبح بقاربه لصيد السمك، وربما أتت مهمة جديدة فلا ينام لليوم التالي ثم يدخل في حالة من النوم لعشرين ساعة وهكذا دواليك.

زوجته تحبه وتتحمل مواعيده الجنونية فهو لطيف معها في كل الأوقات ويشعرها بالاحترام والتقدير فتخجل من لعب دور المرأة النكدية، والليلة لا وجود لمهمات خاصة لكنه يريد السهر، طاوعته وأحضرت الطاولة التي يحب لعبها وقد تعلمتها خصيصًا من أجله، وبدأت السهرة بأكواب الشاي والحديث والطاولة وبعض المقدمات لليلة هانئة.

- يا ريس (عزت).

صوت امرأة تنادي عليه من الخارج، ارتدى جلبابه وخرج مسرعًا ليجد (عزيزة) تقف أمام بيته وتقول:

- إنت الريس (عزت كشك)؟

- أيوه، انتي مين؟

- أنا عايزاك في شغل.

بدهشة علق وهو ينظر حولها:

- انتي لوحدك!!! أمّال مين اللي دلك عليا؟

- سألت وما توهتش.

- اتفضلي تاخدي واجبك.

دعاها للدخول وهو ينادي على زوجته بأن معه ضيفة، أجلسها على مصطبة بدائية داخل المنزل وقت خروج زوجته من غرفة النوم بعد ارتداء ملابس مناسبة وهي تقول:

- نورتي يا حبيبتي.

- اسمي (عزيزة).. من (أبو الغيط).. ابني انقتل النهارده واترمت جثته في البحر_تقصد نهر النيل_ وعايزاك تدورلي عليه.

تلقى عددًا لا يحصى من هذه المهمات ولهذا يسمونه صياد الجثث، لكن هذه المرأة الغريبة جعلته يتوجس خيفة وهو الذي لا يخشى الخروج في الليل للبحث عن الموتى.

- البقية في حياتك يا ست (عزيزة)، الحكومة هي اللي بلّغتك بإن جثته اترمت في البحر؟

- أيوه.

- تعرفي إمتى اترمت بالتحديد وفين اترمت؟

- من (باسوس) أو من (أبو الغيط)، واترمى في البحر من حوالي ساعتين

- خلاص سيبيلي عنوانك في (أبو الغيط) وأنا هاخرج دلوقت بأمر الله أدور على الأمانة، قوليلي اللبس اللي كان لابسه.

- مش هاقولك لأني هاجي معاك.

نطقت الزوجة أخيرًا تقول بلطف:

- لا يا حبيبتي ده شغله، لا انتي هاتتحملي تشوفي اللي بيشوفه ولا هو هاياخد راحته.

أخرجت من ملابسها الـ100 جنيه ووضعتهم في يد الزوجة وهي تقول:

- الفلوس دي ندرتها علشانكم لو وافق الريس (عزت) يساعدني ويريح قلبي.

- شيلي فلوسك يا ست، لو انتي متعرفيش فأنا مباخدش فلوس على الحكاية دي.

نظرت لعينيه وقالت:

- دي مش علشانك دي علشان مصاريف ابنك أو بنتك.

تبادل هو وزوجته النظرات المندهشة وقال:

- أنا معنديش عيال.

نظرت لزوجته وابتسمت قائلة:

- مراتك حامل.. لازم تولدها في المستشفى.

ثم نظرت له ثانية مكملة:

- اعتبرها هدية من ابني الله يرحمه لإبنك الجاي ربنا يمتع عينيك بيه.

***

ظلّ (عزت) يسأل نفسه البقية من عمره عن السبب الذي من

أجله قبل بالنقود وبمرافقتها معه، هل هي البشرى التي حملتها، أم شخصيتها، أم قوة لا يعلم مكمنها تخرج منها سيطرت عليه.

ساعدها في ركوب القارب الخشبي وحمل معه بطانية وماءً صالحًا للشرب يكفيهما، فك حبل المرساة وحمل أطراف المجاديف وهو يقول:

- محدش بيدخل البحر ده بالليل من الصيادين إلا أنا، علشان كده واجب تسمعي كلامي وتنفذيه من غير مناقشة، مهما شفتي أو سمعتي لا تخافي ولا تصوتي وتسيبيني أتصرف.

- حاضر.

- ولو لقينا الأمانة سيبيني أتعامل أنا معاها، دي مسؤوليتي لحد ما نرجع بيها.

- حاضر.

جدف بالقارب لتبتلعهما الظلمة، بعد دقائق توقف بجانب تجمع أشجار متشابكة الأغصان على شاطئ النهر والأغصان تمتد للمياه، أخرج من جوف القارب عصا خشبية طويلة مدها في الماء عند الأغصان يبحث فلم يجد شيئًا.

غادرا حدود قرية (باسوس) من النيل وبقيت بضعة كيلومترات على قرية (أبو الغيط)، قال هو بحرج:

- فيه في نفسي حاجة يا ست (عزيزة) عايز أقولها.

- قول...

- قلبي بيقولي إن الحكومة معندهاش عِلم بموت ابنك.

- قلبك صادق.

كانت تنظر لجوف القارب ولا تنتج ملامحها أي تعبيرات وهي تتكلم.

- عرفتي ازاي بموته؟

- جه وقالّي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- متستبعدش حاجة عن ربنا يا ريس (عزت).

برغم الظلام لكنها سمعت حركة في الماء تبعد عنهم عشرة أمتار على أقل تقدير، التفتت وراءها فأمرها (عزت) بنبرة منخفضة:

- إوعي تطلعي صوت أو تبصي، دا (شق البحر).

لكنها نظرت على الرغم من أوامره، رأت شيئًا ما يصعد من تحت الماء، كأنه رأس بشري ليست له ملامح واضحة بسبب الظلام، شعرت بأنه ينظر ناحيتهم حتى وهي لم ترَ عينيه.. ثم انخفضت الرأس لتختفي ويتحرك جسد ما مكانها تحت سطح الماء في اتجاه القارب يشق الماء تاركًا خطًا وراءه.

اقترب حتى غاص تحت القارب ثم صعد برأسه مرّة أخرى على بعد بضعة أمتار، قال (عزت) مخاطبًا إياه:

- السلام والأمان من عبد الله لعبد الله، أنا جاي أدور على أمانة وماشي على طول، حلفتك بعهد الشيخ (نوح) عليك تسيبنا في

طريقنا.

انخفض الجسم في الماء ودار حول القارب دورتين ثم غاص، اهتزت (عزيزة) من داخلها لقرب هذا الكائن منهما، سألت:

- هو (شق البحر) حقيقي؟

- أديكي شفتي، بس أمانة عليكي ما تحكيش لحد.

- إيه عهد الشيخ (نوح) اللي إنت حلفته بيه.

- أبويا حفظني الكلام كدة، قاللي لو مقلتش الكلام ده هايقلب المركب باللي فيه ويسحبه لتحت علشان كده مفيش صيادين بيصطادوا بليل.. خايفيين منه.

لم تسأله ثانية وظلت شاردة لنصف ساعة كاملة و(عزت) يتوقف من وقت لآخر يدب عصاه في النهر في مناطق محددة، حتى وجدها تقول فجأة بفرحة غريبة:

- (عزيز) ابني، هنا.

وأشارت له ليسير للأمام.

- انتي شوفتي حاجة عايمة على وش الميه؟

- لا بس سامعاه.

أطاعها في رهبة وهي تكاد تقفز من الفرحة كلما سار في طريقه، حتى صاحت به أن يتوقف عند بعد أمتار، اندهش لأنه يحفظ هذه المنطقة، وهي طلبت أن يوقف القارب عند منطقة عادية لا هي ضحلة ولا بها دوامات ولا تصلها أغصان الشجر، اقترب من هذا

المكان والذي هو قريب من إحدى الضفتين ووجد جسدًا طافيًا على الماء، ردد بخوف:

- مستحيل الجثة تقب على وش الميه كده.

أوقف قاربه بجانب الجسد الطافي فمدت (عزيزة) يديها وجذبته بقوة لها لتنقله للقارب، حينها عرف (عزت) السر وراء الجسد الطافي.. هناك شيئًا ما يرفعه من الأسفل، ظهرت يدان في الماء انخفضتا بعد أن سحبت (عزيزة) الجثة، وبمجرد انخافضهما شعر بهذا الكائن يسبح من تحت القارب ويشق النهر.

- بسم الله الرحمن الرحيم.. دا (شق البحر).

لفت (عزيزة) جسد ولدها في البطانية وقبلته في جبينه، رأى (عزت) وجه الطفل الجميل وآثار الذبح واضحة على رقبته.. انحدرت من عينه دمعة وهو ينظر للماء لشق البحر الذي رفع رأسه من الماء بعد أن ابتعد عن القارب ثم نظر إلى (عزيزة) وقال:

- انتي ست مبروكة، سامحيني لو زعلتك بكلمة.

انشغلت هي بالتربيت على رأس ابنها وتقبيله ثم ابتسمت لعزت ورجته:

- إوعى حد يعرف اللي حصل ده.

- والله العظيم هايفضل سر في قلبي هاخبيه عن أقرب الناس ليا.

- وصلني لشط البحر بتاع (أبو الغيط) وارجع لبيتك بالسلامة.

- تحبي أنزل معاكي (أبو الغيط) وأوصلك لبيتك.

- لا.. أنا عارفة طريقي كويس.

***

استيقظت (جوهرة) من نومها حين شعرت بالعطش، فتحت باب غرفتها وخرجت لتحضر زجاجة ماء من الثلاجة لكنها فضلت أن تدخل لغرفة شقيقتها لتطمئن عليها، فتحت عليها الباب فلم تجدها في فراشها، دب القلق في أوصالها وهي تبحث عنها في كامل غرف المنزل حتى توقفت عن الغرفة الخالية المحرم دخولها إلا على أهل المنزل، مدّت يدها لتدير مقبض الباب وانفتح، شهقت رعبًا، أرض الغرفة محفورة، هذه من المحاذير التي أخبرها بها أبوها.

موضع الحفرة درجات سلم بدائية تقود لأسفل، نفس المكان الذي حدده والدها لها ولاختها، ضوء مصباح الجاز يأتي من الفتحة، وقفت عند درجات السلم فوجدت (عزيزة) في الأسفل تحمل ابنها المذبوح وتبكي وهي تقول:

- السلام عليك يا سيدي (نوح)، دا ابني (عزيز) جايباه علشان يندفن جنبك وتخلي بالك منه

***

خاتمة

في حالة من الشرود افترش (قاسم) الأرض بجوار منزل (نوح) في نوبة حراسته الليلية، لا قهوة ولا تدخين ولا شيء مجرد عصا وجدها على الأرض يلعب بها في التراب.

فجأة شعر بالدفء ثم تحول لحر لا يطاق، المصدر هو منزل (نوح) والذي لم يتخيل ما يجري بداخله.

فنوح الذي لفّ قطعة القماش حول عينيه لم يشعر بالحرارة التي تحولت للهب، وبرغم أنه مغمض العينين ويلف حولها عصابة إلا أنه شعر بضوء كضوء الشمس وآلام احتراق في يديه ووجهه وعينيه.

لكنه لم يرى أن مصدر كل هذا الضوء هو نقطة صغيرة أمامه اشتعلت وأضاء نورها المنزل ثم خبت، ومن قلب الظلام ظهر كائن أطول من حجم الانسان قليلًا يرتدي ما يشبه الجلباب المقطع وقدماه ويداه نحيلة، رأسه يشبه البشر لكنه بلا عينين، فتح فمه وقال بصوته الغريب:

- لم تكن تحتاج لكل ما فعلت، يكفي أنك مؤهل للقاء

***

إلى اللقاء مع الجزء القادم والأخير